أحمد حسين أبو الرجال
تذكّر
رواية

أحمد حسين أبو الرجال

تذكَّر ٣٦

رواية

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٤
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٤
© أحمد حسين أبو الرجال ٢٠٢٤
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدَمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

حسين أبو الرجال، أحمد.
تذكَّر ٣٦: رواية / أحمد حسين أبو الرجال - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.
٣٣٦ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789778721997
١- القصص العربية.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٠٦٥٥ / ٢٠٢٣

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

رسوم الغلاف: علي سليمان
تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

بالطبع لن تشعر بي...
ولا بعد مائة عام.
يجب أن نتبادل الأجساد ليحدث ذلك.
هناك خنجر استقر في قلبي، أطوف به وأركض، لا يمكنك رؤيته على الرغم من لمعانه، كأنما صُنع من الهواء، يؤلمني كلما ارتديت قميصي.
يؤلمني أيضًا أن أحدًا غيري لا يراه.
يمكنني الجزم بأنك سمعت عني سابقًا، لربما حدثك أحدهم عن «رجل الملائكة»، أو رأيت وسم «#المجرم» فوق حائط نصف متهالك. هل تكرهني، أو تنعتني بالخائن؟!
لا بأس!
أعلم أنهم سيقولون لك قصة أخرى.
لديَّ أشياء لو علمتها فستغيِّر رأيك، إن عالمنا ليس كما تعتقد.
وللأسف، ليس هناك كثير من الوقت.
يجب أن تعرف ما أعرف حتى لا يموت السر معي.
مرة أخرى...
عالمنا، ليس كما تعتقد!

شهاب المستشار

١
٨ دقائق طوال

لا أريد أن أبدو غريبًا...

ولكنني - كلما فكرت في لحظتي الأخيرة - أتذكر فورًا قانون الفيزياء الأشهر في أفلام الكارتون، هناك قاعدة هزلية تتكرر أمام عينَي: الذئب يكمل مطاردته للضحية مهما حدث، يركض خلف الطائر المسكين فوق الجبل، فينتهي الجبل، ولكنه - أي الذئب - يكمل ركضه في الهواء لأميال وسط السحب.

فقط يسقط حينما ينظر أسفل منه، أو تطلب منه الفريسة أن يفعل ذلك.

أعرف ذئبًا لم ينظر تحته...

أعرفه جيدًا...

الأمر الآن...

٥:١٣ صباحًا

انتبهت.

لم ينفض النهار الجديد من فوق كتفيه برد الليل بعد، كنت في شقتي الجديدة - محدودة المساحة - في كومباوند «بيفرلي»، تراقصت الستائر الحريرية أمامي، يبدو أنني تركت الشباك مفتوحًا مجددًا، انعكست أضواء ملونة على وجهي وعن جانبي، كان التلفزيون على الوضع الصامت، يعرض بضعة إعلانات تجارية رتيبة الإيقاع، شردت للحظة إلى حين انتهاء المنتج المعروض، باحثًا عن شيء معين: إعلان يخص آلة مميزة لقتل البعوض، لكن الإعلان التالي كان لماكينة رياضية مزيفة، يستعرضها رجل - مفتول العضلات - لا يحتاج أصلًا إلى ممارسة الرياضة لمدة خمس سنوات على الأقل.

أغلقت التلفزيون وضغطت على زر ماكينة القهوة المجاورة لسريري الأرضي الواسع، فأصدرت ضجيجًا طويلًا قبيل أن تطحن حبات القهوة وتنتج لي ما طلبت.

ما إن انتهيت من الرشفة الثانية من «المكياتو» حتى اعتدلت، أفرك عينَي في محجريهما، أستنشق رائحة القهوة النفاذة، لسبب ما باتت تؤرقني، لا أعلم إن كان الأمر بسبب نوعية الحَب الذي أشتريه، أم أنني - بطريقة ما - طورت نوعًا من المناعة أو العنصرية تجاهها.

هناك أحمر شفاه متآكل على حافة السرير، ورموش صناعية ملقاة بجانبه،

هل حصلت على إحداهن ليلة أمس أو قبلها؟ لا أذكر، هل كنت جيدًا معها؟ متى كان الأمر؟ هل كانت جميلة؟ هل تظاهرتْ أنها تحبني؟ حاولتُ الضغط على رأسي لأتذكر، فسال أنفي دمًا.

لا أعلم ما يحدث لذاكرتي من بعد تشخيصي بورم في الفص الجداري بالمخ، ويبدو أنه أصاب قلب الجدار، شيء يُدعى الـ«SMG»، وامتد حتى أصاب «الحصين الأيمن»؛ منطقة ملعونة، يقول الدكتور أبيض إنها تسيطر على إدراكي للوقت، وترتبط بالخيال والإبداع والتوقع. لا أعلم إن كان هذا الورم على وشك صناعة مبدع جديد مني، أم جماد حي.

صوت صرير قاسٍ، اخترق طبلتَي أذنَي، هرعت إلى النافذة وإذ ببضعة مراهقين يمرحون بسياراتهم الفارهة، هناك شاب عاري الصدر يبرز من نافذة بورش حمراء وبيده زجاجة كحول، كان قائد البورش يدور بضعة دورانات بهلوانية، غير مهتم بصديقه الذي قد يتحول إلى شطيرة لحم هرئة في أي لحظة.

كنت أشعر أن الحياة في كومباوند «بيفرلي» أصبحت عبئًا. لكنني كنت أعزي نفسي قائلًا: «لا بأس، لن أسكن هنا طويلًا على أي حال».

٩:١٨ اليوم نفسه

مرتديًا قميصًا حريريًّا، تابعت وجهي في المرآة، لقد نحفت كثيرًا حتى جحظت عيناي الواسعتان، ذاتا القزحيتين البنيتين الكبيرتين، تذكرانني بأعين مصاصي الدماء في أفلام هوليوود. وبرز أنفي المعقوف الذي يميزني بسبب نحافته.

تجاهلت وجهي واستقررت أمام شاشتي الضخمة، وحينما أقول ضخمة أعني أنها تغطي الحائط المواجه للسرير، في يدي جهاز تحكم، على شكل قفاز، اشتريته من معرض إلكتروني في دبي في زيارة عمل، لم أبدأ في التقليب بين صفحات الإنترنت - بحثًا عن فيديو مباشر لمقدمة تُدعى «فداء نمر» - حتى سمعت نداءً في السماعة اللاسلكية في أذني اليمنى: - أستاذي، دورك الآن.

ثم حُوِّلتُ إلى خط هاتفي آخر:

- مرحبًا بك في خط «أونس». الحوار الألماني العربي. إذا بتحب بتحكي معنا باللغة الألمانية، أو تترجم لك إيما، على شرط أن تتحدث العربية الفصحى قدر المستطاع، ليفهمك جميع العرب.

صمتت بعدها ليترجم صوت أنثوي معدني ما قالت، يشبه صوت مساعدة

الهاتف، لكنه من الواضح أنه يخص مترجمة ما على الخط، حرفوا صوتها ليبدو كصوت إنسان آلي.

صمتُّ لبرهة ثم رددت:

- «تشارك معنا» أصح، لأن كلمة «تحكي» لهجة شامية.

انتظرتُ حتى ترجمت إيما، لكنني لاحظت ابتسامة فداء ترتسم على وجهها، لقد عرفتني من صوتي مجددًا.

- سيدي الغامض، هل أنا محقة؟! هل ما زلت على رأيك؟ من دون اسم!

- ما أقوله أهم بكثير من اسمي!

رفعت حاجبها تعجبًا، وتابعت:

- لكن الأمر غريزي، ألا تتفق معي؟ أعني: من دون أن تعرف مع مَن تتحدث قد يتملكك الخوف، لكن يمكننا أن نكمل، لو الأمر سيعرضك للخطر بسبب شيء فعلته، أو أن تكون معارضًا في بلد غير ديمقـ...

- لا تحاولي تصويري في صورة بطل! كنت خارجًا عن القانون واعتزلت الأمر.

صمتت لثانيتين، ثم بدأت في احتضان كوب القرفة باللبن الذي أمامها، كان عود القرفة يظهر خلال التصوير بصورة لافتة. رشفت منه مرة ثم تلتها بأخرى، انتظرت حتى جاءها التأكيد باستكمال المحادثة من المخرج وتابعت: - معذرة! لا أفهم شيئًا ما، ما الفائدة التي قد تعود على شخص خارج عن القانون، أو متورط في نشاط إجرامي، من مناقشة الحياة في منطقة الشرق الأوسط في راديو للتعارف الألماني العربي؟

- لماذا افترضتِ تورطي في نشاط إجرامي؟!

- ماذا تعني؟!

- أعني ما قلت.

- أليس هذا شيئًا منطقيًّا؟

- منذ بضع ثوانٍ، صرحتِ بأنني قد أكون معارضًا في بلد غير ديمقراطي، مثل ٩٠٪ من بلاد الشرق الأوسط. أليست تلك صورة من صور الخروج عن القانون؟ ومن دون سجل إجرامي.

- حقيقة أستاذي! أنا لا أعلم ما أفكر فيه حينما أتحدث معك. أنت لا تعطيني كثيرًا من التفاصيل!

- بالعكس، أعطيتك التفاصيل وما هو أفضل منها: الحقيقة التي لا يراها أحد، السبق الصحفي الذي لن تحصلي عليه في ألف سنة من دوني!

- في المرة السابقة تحدثت عن أشياء مبهمة! البنك الدولي، تقليل مستوى المعيشة!

- ما المبهم في تقليل مستوى المعيشة في العالم الثالث والشرق الأوسط؟!

- لا أعلم أستاذي. لا يوجد إثبات لرأيك؟

ابتسمت وتابعت:

- فلنبدأ بالقاهرة - على سبيل المثال - كانت تقوم بتعويم تدريجي للعملة كل خمس سنوات، باستثناء سنة الثورة، كل شيء يجري وفق طريق مدروس، لكن لا أحد يلاحظ: ١٩٩٢ - ١٩٩٧ - ٢٠٠٢ - ٢٠٠٧، وبعد ذلك، هل هي مصادفة يا فداء؟

- لا يمكن الجزم بأي شيء.

- ماذا عن كون زوجتَي آخر رئيسين قبيل ثورة يناير إنجليزيتَي الأصل؟ مصادفة أيضًا؟ هل انفجار مرفأ لبنان قبل العام الذي يتوقع فيه الخبراء إفلاسها أيضًا مصادفة؟ الأمر شبه اتفاق عالمي بين كل العائلات ويطبق في جميع الدول بطرق متفاوتة، لأغراض سيكولوجية بحتة.

- هل تلمح لحدوث شيء في السنة الحالية؟

- لا ألمح، أنا أعلم!

- ماذا لو لم يحدث تعويم أو إفلاس في لبنان، هل ستعترف بخطئك؟!

أعلم أنني ضغطت على وتر ما في قلب فداء، فهي لبنانية من أصل فلسطيني هاجر أبواها في أثناء طفولتها، تعاني حالة متأخرة من مرض المياه الزرقاء جعلها تفقد النظر بشكل شبه كامل في سن مبكرة. تابعتُ بدوري: - وماذا لو حدث؟

عادت إلى الوراء، وتركت لإيما - الإنسانة الآلية - الترجمة، وشرعت في تصفيف شعرها الداكن ذي الصبغة المائلة إلى الزرقة بأصابعها، تابعت محركة رأسها نفيًا: - معذرة! أستاذي المجرم - عفوًا - الخارج عن القانون! كيف علمت كل ذلك؟

- علمت ماذا؟

- البنك الدولي! مستوى المعيشة! تعويم العملة!

- يمكنكِ توقع طريقة تفكير العائلات.

- مجددًا العائلات؟! ماذا ستستفيد العائلات من نشر الفقر بيننا؟

- كما قلت: أغراض سيكولوجية.

- لا أعتقد أنهم يفكرون بتلك الطريقة!

بحثتُ في شاشة التلفزيون عن تجربة قديمة كنت أشاهدها، تجربة بها بضعة فئران ومتاهة، كانت باللون الأبيض والأسود. تابعت: - تجربة متاهة «تولمانز» لقياس الحافز والتعلم: ثلاثة فرق من الفئران، عُرِّضت لمتاهة معقدة، الفريق الأول، يحصل على الطعام بمجرد حل المتاهة والوصول إلى نهايتها، الفريق الثاني، يحصل على الطعام لو وصل إلى نهاية المتاهة لمدة عشرة أيام متتالية، الفريق الثالث، لا مكافآت من أي نوع حتى لو وصل إلى نهاية المتاهة كل يوم.

قلبت الصور وأردفت:

- النتيجة: فريق واحد من الثلاثة تعلم الوصول إلى نهاية المتاهة بكل كد واجتهاد، وأسرع من الفريقين الآخرين. خمني، مَن هو؟

- الفريق الأول، الذي سيحصل على الطعام بمجرد الوصول إلى حل المتاهة.

- خطأ! الفريق الثاني، الذي حصل على الطعام بعد اليوم العاشر.

- لماذا قد يحدث ذلك؟

- سؤال سهل! والإجابة أسهل: الفريق الأول محظوظ، اعتاد المكافأة والرفاهية لذلك ضربه الكسل، الفريق الثالث يشعر باليأس لأنه لن يحصل على أي شيء مقابل مجهوده، لكن الفريق الثاني لديه الحافز.

- لأنه جرب الحرمان والمكافأة.

- بالضبط يا فداء، لا يريد العودة إلى الجوع، لديه حافز ليعمل أكثر وبضعف المجهود والتركيز اللذين يبذلهما أي فريق آخر، العائلات تريد مزيدًا من العمل والإنتاج، الأمم المتحدة والبنك الدولي كذلك.

- لماذا تربط كل شيء بالعائلات؟ لربما الأمر اقتصادي بحت!

- لو كنت لا تشعرين بالثقة في كلامي، لا تسأليني عما أعلم.

صمتت في انتظار الترجمة، ثم ترددت قبيل أن تسأل بنبرة أكثر حِدة:

- لو افترضنا جدلًا صحة نظرياتك، ما زالت هناك كومة من الأسئلة المعلقة!

- لربما يمكنني المساعدة في طرحها أرضًا!

حركت رأسها متفهمة وعاجلتني:

- مَن هي تلك العائلات التي تذكرها دائمًا؟ ما العلاقة المنطقية بين العائلة المالكة للبنك، وتلك التي تتحكم في الأمم المتحدة؟

- ربما لن تعجبكِ الإجابة.

- لا يهم رأيي، أستاذي.

تنهدت طويلًا وأردفت:

- إنها شبكة متكاملة.

- هل هذا كل شيء؟

تابعت بينما أقلب بين الصور في الشاشة المقابلة لي:

- بذكر الأمم المتحدة، دعيني أذكرك بقصة صغيرة، في العام ١٩٠٦ أشعل ضابط إنجليزي النار عن غير عمد في جرن الحبوب، في قرية صغيرة تُدعى «دنشواي»، رحلة صيد روتينية لصيد الحمام، انتهت بمأساة، كان سببها وفاة ضابط إنجليزي بضربة شمس، ومجزرة قُتل فيها العديد من الفلاحين المصريين من بينهم امرأة.

- حادثة دنشواي!

- صحيح. ستة وثلاثون إنسانًا أدينوا خلال أربعة أيام، فقط لأنهم فزعوا لحرق قريتهم وللسيدة القتيلة، تنوعت العقوبات بين الإعدام والجلد والسجن الشاق المؤبد.

- كل هذا يعلمه الجميع!

- لكن الجميع لا يعلم الكثير عن القاضي الذي جلس يعد تلك الأحكام الدموية، لقد كان مصريًّا، يُدعى «بطرس غالي»، عاونه كلٌّ من شقيق سعد زغلول الأصغر، وإبراهيم الهلباوي. وأقتبس من كلمات الأخير واصفًا الضحية: «هؤلاء السفلة وأدنياء النفوس، أساءوا ظن المحتلين بالمصريين، بعدما أمضوا بيننا خمسة وعشرين عامًا! ونحن معهم في إخلاص واستقامة».

- أليس بطرس غالي هو الأمين العام للأمم المتحدة؟!

- الآن بدأت الصورة تظهر أمامكِ، هو جده بالفعل، وهو يحمل الاسم نفسه. لقد كان بطرس غالي الكبير رجلًا مخلصًا للإنجليز، ساعدهم على تمديد امتياز قناة السويس حتى ٢٠٠٨، وكان اختياره طبيعيًّا لتلك المحاكمة. هل ترين الصلة بين كل شيء؟ هل تتوقعين أن بطرس غالي الحفيد كان ليصل إلى الأمم المتحدة لأنه الأفضل في العالم؟

- توقعت أن تخبرني شيئًا أكثر إثارة من ذلك!

- توقعك صحيح. بالعودة إلى الحادث - وأمام طبلية الإعدام - هناك طفل صغير تعلقت عيناه بعينَي غالي، كان ذلك بعد الحكم على قريبه الذي لم يتعدَّ الخمسة عشر ربيعًا بعد، كانت نظراته حادة فيما تجمدت قدماه فوق الأرض، كان يغطيهما جلباب صغير، نظرات أخافت غالي نفسه أكثر من بكاء النساء وصريخهن، كبر الطفل والأمر محفور في عقله.

- ماذا فعل ذلك الطفل؟

- كل ما يمكنني قوله، هو أنه التحق بكلية الحقوق، ولنقل إن اسمه هو المستشار «أ». قادته الأقدار أن يصبح قاضيًا، لكن أُعفِيَ من منصبه بعد أحداث يوليو التي قام بها الضباط الأحرار، لأنه حكم للمطرب محمد فوزي بأحقيته في شركته الخاصة بتصنيع الأسطوانات الموسيقية، قبل أن تُحوَّل القضية إلى قاضٍ آخر، أكثر التزامًا بالتعليمات.

- يبدو أن المستشار «أ» لديه الكثير من الغضب!

- بالفعل، لذلك قرر التمرد على كل شيء.

- وأي نوع من التمرد تقصده؟

- النوع الأكثر تأثيرًا.

- معذرة! كن مباشرًا من فضلك. ماذا تحاول أن تقول بـ«الأكثر تأثيرًا»؟!

استجمعت معلوماتي وأغمضت عينَي لثانيتين وتابعت بعدما فتحتهما:

- لقد أقام محكمة موازية، استعان فيها ببعضٍ ممن وثقوا به. محكمة تطبق القانون الحقيقي.

- سيدي! لا أحد يملك هذا الحق!

- حتى تعريف الحق نسبي يا فداء.

- سامِحني! لكنه شيء مثير للغثيان أنه قرر أن يقوم بدور القاضي والجلاد معًا!

- هل يزعجك هذا الأمر؟

تمالكت غضبها بعدما تحول الأمر إلى جدال شخصي وتابعت:

- قل لي كل شيء من فضلك.

قلبت الصور في التلفزيون لتظهر أمامي صور فلاحين معلقين فوق طبليات الإعدام، ثم قلبت حتى وصلت إلى خبر في جريدة قديمة، عن نبأ إقالة قاضٍ يُدعى «أحمد صدقي»، لمعاداته ثورة يوليو، ثم تابعت: - لقد سمعت أنه اختار القضايا الحساسة فقط، أعني لم يكن ليهتم لو أن أحدًا سرق حلاقًا إيطاليًّا مثلًا في الإسكندرية، أو أن رجلين تنازعا على ملكية قطعة أرض في الفيوم، فقط قضايا الحياة أو الموت!

- ما أول محاكمة نفذها؟

- يقال إنها محاكمة حمزة أمين البسيوني.

- أعرف ذلك الاسم، كان لواءً أيام عبد الناصر، لكنه مات في حادث، هذا ما أتذكره.

- ما تقولينه هو دليل عبقرية المحكمة!

- عفوًا! ماذا تقصد؟

- فداء، المستشار «أ» خطط لذلك الأمر أربع سنوات متتالية، حمزة البسيوني كان أسطورة تعذيب المعارضين لعبد الناصر، انتظره المستشار ليخرج من السجن ويحاكمه، لكن للأسف، توفي أخوه معه بالخطأ. لم يتحمل المستشار الأمر، فعزل نفسه ومساعده -

الذي كان يُدعى «شوقي» - وقدم نفسه والأخير للمحاكمة بتهمة الإهمال، تخلف شوقي بالطبع عن الحضور، فعاقب المستشار «أ» نفسه بالغرامة والحبس في منزله، وعيَّن مكانه أحد المساعدين، يقال إنه توفي في محبسه بسبب حالته النفسية السيئة، لكن البعض يقول إن ترك زوجته له كان السبب، والبعض الآخر يقول إنه كان يعاني مرضًا خطيرًا.

- نهاية مؤسفة! لكن متوقعة على أي حال.

- لمَ افترضتِ أنها النهاية؟

ترجمت إيما لتتابع فداء:

- تقصد أن تلك المحكمة الموازية استمرت؟

- صحيح، لكن الأمر الأكثر أهمية من المحكمة، هو الشبكة التي وضحتها لك توًّا. الأمر يختلف عما يقال في كتب التاريخ! العائلات على اتصال دائم، ويختارون مَن يكون بينهم.

- حدِّثني أكثر عن المحكمة.

- للأسف معلوماتي غير مكتملة.

- وكيف استمرت من دون المستشار «أ»؟

صمتُّ طويلًا، ثم تابعت مردفًا:

- يقال إن قاضيًا يُدعى «الأشعري» رأَسها بعده، وقرر قبول المال مقابل البتِّ في القضايا لتمويل المحكمة، بشرط أن يدرس القضية جيدًا.

- قتلٌ بالأجر!

- لا يمكن تشبيه الأمر بذلك، بدليل أنه رفض كثيرًا من القضايا.

- معذرة، أنا لا أصدق تلك الحكايات.

- أنا لست هنا لأني أحتاج منك أن تصدقيني!

- هناك ثغرة واضحة في تلك القصة - أعني - ماذا عن الشرطة مثلًا؟! لمَ لم تتصدَّ لهم؟!

- ذاع صيتهم بالفعل، واغتالت الحكومة الأشعري، ظنًّا منهم أنه كان وراء محاولة اغتيال مبارك، ثم اكتشفوا الخطأ. توسط شخص بين عائلة مبارك والمحكمة، وتُدورِك الأمر، لينتهي باتفاق ضمني.

- وما هو؟

- تُجمِّد المحكمة عملها نسبيًّا في القاهرة، ثم تُعوَّض ماديًّا على مقتل رئيسها، وأن لا تطول المحاكمات الموازية أيًّا من الوزراء، أو أي شخص يتصل بالعائلة الحاكمة عمومًا.

- من رأَسها بعد الأشعري؟

- كما قلت لكِ، معلوماتي ليست كاملة، لكنْ هناك شيء مشهور عن رئيس المحكمة الأخير، لقد كانت له رؤية مختلفة نوعًا ما، ومؤلمة أيضًا.

- مؤلمة لمن؟

- مؤلمة للمستشار الذي استحدثها، إنه الجيل الأخير من المستشارين، تمامًا كما يأتي نبي فيحطم الأصنام، ثم يرحل، ويأتي بعده جيل يضيع الدين، ثم يليه جيل يعبد الأصنام، الأصنام نفسها التي كسرها النبي أول مرة. هناك أشياء لا يمكن السيطرة عليها، طاقة غير قابلة للإيقاف مهما وُضعت أمامها من عقبات: النفس البشرية!

- تقصد أنه...؟

- بالضبط! قبل كل القضايا تقريبًا. أصبحت المحكمة جاذبة للعملاء والموظفين معًا. وكما قلت، انهارت وانتهت كل المبادئ التي أسسها المستشار الأول.

- لهذا لا يمكن لشخص أن يطبق القانون بيده، لا توجد محكمة تستحق الاسم لو كانت كما تصفها، الشخص الذي يفجر نفسه في الأسواق يعتقد أنه على وشك دخول الجنة. صدقني، تلك النهاية متوقعة! لكن على أي حال، لو كان هناك شيء مثل تلك المحكمة لتسربت تفاصيلها للإعلام.

- المحكمة انتهت بعد ذلك بعقد، لم تعد موجودة، ثم إن الإعلام مثل الفرقة الموسيقية، يتبع نوتة معينة، حتى المعارضة تعزف اللحن المطلوب منها بدقة، لا توجد نغمة نشاز غير تلك التي تريدها العائلة!

- الحقيقة أن تلك المحكمة - إن وُجدت - لا تقل إجرامًا عن أي قاتل يستحق العقاب!

- رائع! لقد وضعتِ القاضي والمجرم معًا في قفص الاتهام، وصرتِ مستشارة بدورك! هل ترين كم الأمر مغرٍ؟ كلٌّ منا مستشار في لحظة ما!

نظرَت طويلًا إلى الكاميرا كأنها تراني، نظرتُ إليها بدوري. سألتني:

- كيف عرفت كل هذا؟

ترددت كثيرًا قبل أن أجيبها:

- كتاب وجدته بالمصادفة، في مكتبة قديمة في أثناء عملي.

أردفت بكثير من الفضول:

- ماذا كنت تعمل؟!

القاهرة، كورنيش المعادي

شتاء ٢٠١٦

أصدر انعكاس الغروب لونًا فضيًّا لامعًا فوق مياه النيل الهادئة، كانت ليلة شتوية غير باردة، ترجلت تجاه مدخل مركب «نايل رومانس» السياحي، مرتديًا بنطالًا فاتح اللون تمنعه حمالات حمراء ماركة «جوتشي» من السقوط، وقميصًا أبيض، فوقه جاكيت أزرق اللون، يزين رقبتي النحيفة شال أحمر اللون قيم المظهر، ينسدل شعري الأسود الطويل على جانبَي وجهي ذي الفك العريض، وعلى وجهي استقرت نظارة نظر دائرية زرقاء اللون نحيفة المعدن. تقسم جسدي شنطة كروس بنية اللون.

مرر الحارس جهاز استشعار فوق جسدي وأسفل ذراعَي، أصدر الجهاز صوتًا حينما اقترب من فخذي، فأظهرت له قلم الأنسولين الخاص بي، فتفهَّم، ثم فتش شنطتي ودلفت إلى داخل الباخرة.

في العادة لا تقوم البواخر السياحية بتلك الإجراءات، خصوصًا أن اليوم لا يوجد أي حجوزات، لكنها تعليمات الغول، أو حمدي الغول، لواء سابق يقال إنه تورط في تعذيب بعض ثوار يناير فشعر بأنه مستهدَف، هناك مَن يقول إن الأمر أكذوبة، وإنه لم يفعل ذلك ولا تلك، لم أكن هنا من أجل تلك الأمور على أي حال.

أشار إليَّ أحد العاملين في الباخرة بالصعود، ووصف لي مكان مكتبه، كانت الباخرة فاحشة الثراء، بها حمَّام سباحة - في الدور الأخير - لا أعرف مغزاه،

بجانبه مكان للاستجمام، وقاعة أفراح احتلت دورًا كاملًا، وهو الدور الأول، أما الثاني فكان غرف نوم فاخرة. قد سمعت أن كثيرًا من نجوم الفن والثراء أقاموا بها حفلات زفاف أسطورية، تشبه تلك التي يُحكى عنها في ألف ليلة وليلة.

مررت بالقاعة الكبيرة، لم يكن هناك سوى سيدة تنظف الأرضية بمكنسة حديثة، وجدت غرفة الغول، ودخلتها طواعية.

لا أعلم كيف تملكني هذا الشعور، كأنني في مكتب لواء في مديرية أمن الدولة؛ علم مصر، أثاث فخم وتلفزيون كبير مفتوح على الوضع الصامت، بينه وبين المكتب الخاص به حوض سمك كبير الحجم، وُضع في مستوى متوسط أقرب إلى الأرض، بجانبه حوض أصغر وأقل نظافة، به العديد من سمك الدنيس الفضي اللامع.

وهو يدخن سيجارة مبتسمًا وعلى أذنه هاتف نقال، يضحك قليلًا، ثم يواري سوءة سيجارته في مطفأة كبيرة امتلأت بمثيلاتها، ثم يتابع حديثه في المكالمة. كان ستينيًّا، متوسط الجسد، يميل إلى النحافة، شعره أسود للغاية، يصرخ بالقول: «أنا مصبوغ!»، وكذلك شاربه غير المنتظم المتداخل مع شفته السفلى، عيناه زائغتان يضربهما الصفار.

أشار إليَّ بإصبعيه أن أدخل وأجلس، ففعلت، ثم انتظرت حتى أنهى حديثه المبهم، الذي بدا لي متعلقًا بامرأة. أخرج سيجارة أخرى وأشعلها معلقًا: - ميعادك إنجليزي!

ابتسمت قائلًا:

- خليها أمريكي!

قهقه مردفًا:

- عندك حق، ما إنتَ عايش في كاليفورنيا! معلش فكرني باسم العيلة مرة تانية.

- عيلة رفعت دياب، أنا راغب رفعت دياب.

- ملوك الشوكولاتة السويسري! غني عن التعريف يا راغب بيه. شيحة كلمني عنك كتير. تشرب إيه؟

- واضح إنك مهتم بالتفاصيل يا حمدي بيه!

أشار بسبابته قائلًا بنبرة تحمل كثيرًا من الثقة:

- باحب أشوف الصورة كاملة، خصوصًا لو الصورة فيها حد هاشتغل معاه.

أومأت إليه إيجابًا، وسرحت بعدها في حوض السمك الكبير، هناك سمكة

واحدة كبيرة الحجم تسبح فيه بحرية، طويلة، ذات رأس بارز، تشبه الثعبان لكنها ليست كذلك، عيناها بارزتان من دون جفون، طولها يتخطى المتر تقريبًا، لديها زعنفة طويلة تخرج من بطنها وتمتد بطولها، تعمل حركات موجية. هناك قوقعة صناعية، تنفتح فتخرج منها فقاعات هواء، وساعة يدوية نصف مدفونة في الرمال التي تستقر فوقها. أردفت: - واضح!

رمق الحوض بدوره معلقًا:

- نسيت أعرفك على آنجيلا، هي سمكة شكلها يخوِّف شوية بس جواها كويس.

- اسمها مميز!

- كل حاجة فيها مميزة!

- والسمك التاني؟!

- دول؟! لا ملهمش أسامي، دول هنا عشان يسلوا آنجيلا، وده شرف ليهم بالمناسبة.

ثم رمقني بنظرة طويلة مردفًا:

- زي ما إنتَ شغلانتك تسلي الناس!

اعتدلت وتلاشت ضحكتي، علقت بنبرة أكثر ثقة:

- أنا مش باسلي حد!

- الشوكولاتة مش مسلية؟!

- الشوكولاتة اللي بنبيعها من أغلى الأنواع في العالم!

أومأ إيجابًا وابتسم مداريًا بعض الحرج، ثم تابع بعدما أفرغ ما في حلقه من حشرجة في منديل: - حاسك اتضايقت! أنا نفسي بافرح لما باشوف الناس مبسوطة في المركب هنا وبترقص.

قام بعدها من مجلسه وأشار إليَّ فتبعته، أمسك بعصا تنتهي بشبكة صغيرة، وضعها في الحوض الصغير، حصل على سمكة سمينة، ونظر إليَّ بينما السمكة تعافر في شبكته قائلًا: - لو بتحب شغلك إوعى تضايق منه!

ثم ناولني الشبكة، فأمسكت بها، أشار إليَّ برأسه أن أضعها في الحوض الخاص بسمكته المخيفة. تجمدت. رمقني طويلًا بنظرة لم تُرِحني، استعاد شبكته مني وألقى بالسمكة في حوض مدللته آنجيلا، لبضع ثوانٍ لم يحدث شيء؛ سمكته المرعبة تقبع في أسفل الحوض، والسمكة الأخرى السمينة تلهو في السطح، تحاول الابتعاد قدر المستطاع عن المسخ الهادئ.

تابع حمدي الغول:

- راقِب التفاصيل! وافتكِر دايمًا، آنجيلا جواها كويس.

لا أعلم ماذا حدث، لكنه أشار إلى سمكة الدنيس بيده، تجمدت فجأة عن السباحة، بل وتجمدت عن الحياة وانقلبت على جنبها فوق سطح المياه، كأن السر الإلهي قد خرج منها فجأة، اقتربت منها آنجيلا المخيفة والتهمتها على مرتين، من دون أدنى مقاومة.

تساءلت:

- السمكة ماتت إزاي؟!

ابتسم معلقًا وهو يحرك أصابع يده في الهواء:

- بالسحر، خفة يد!

- بتفهم في السحر للدرجادي؟

حرك رأسه إيجابًا مردفًا:

- لسه باتعلم، وباعرف أقرا الأفكار كمان.

ثم رمقني بتلك النظرة المخيفة، وانفجر ضاحكًا. أشار إليَّ مردفًا:

- نفسي تشوف نظرة الرعب اللي على وشك! مفيش سحر ولا حاجة!

قلت بالإنجليزية بينما أضع يدي على صدري لأتنفس:

- يو جات مي!

استندت إلى المكتب فتابع هو:

- كلمني أكتر عن البيزنس!

أخرجت من شنطتي قطعتَي شوكولاتة، ملفوفتين في ورقتين ذهبيتين جذابتين، ناولته واحدة، فاختار الأخرى التي في يسراي، ناولته إياها وشرعت في أكل الأخرى. تابعت بينما ألوكها بتلذذ: - إحنا واخدين توكيل الشوكولاتة السويسري «ليندا» في الشرق الأوسط كله.

تساءل:

- هو ده شغلك بس؟

- مؤقتًا. بادور على بيزنس جديد.

- ليه؟! اتمردت على العيلة؟

صمتُّ لبرهة وعدلت من نظارتي مفسرًا:

- اتمردت على البيزنس كله!

- حد ما يحبش الشوكولاتة السويسري؟

علقت بعدما ابتلعتها:

- ما كانش جالي السكر! بالمناسبة دي فيها كحول لو عندك أسباب تمنعك.

تجمد وقطع أكلها، ثم مد يده صائحًا:

- يا أخي اتقِ الله! هات واحدة كمان.

قهقهت طويلًا وأخرجت من شنطتي واحدة أخرى وناولته إياها، ثم أخرجت قلم الأنسولين من جيبي وحاولت أن أحقن نفسي بجرعة منه. لاحظه الغول، مد يده مجددًا طالبًا إياه، وافقته رافعًا حاجبي من التعجب، ثم ما لبثت أن تلاشت تلك العلامات من وجهي حينما أخرج من جيبه نسخة مطابقة منه، وضعهما بعضهما بجانب بعض كالتوأمين، وانفجر ضاحكًا.

طلبت منه القلمين بدوري، وقربتهما أمامي على المكتب، ثم ابتسمت وناولته القلم الخاص به. عاجلته: - دي علامة! هتوافق بقى على السعر اللي طلبته من حضرتك يا سيادة اللوا؟

طلب قطعة جديدة، ناولته إياها، لاكها بشهوة، ولكنه حرك رأسه نفيًا بعدها: - في التلفون قلتلك سعر صعب توصله - بالمناسبة - عادةً مش باقابل الناس هنا، بس إنتَ عشان حد مميز وعايز أعرفك. وافقت، وأهو بالمرة أوريك المكان. الشوكولاتة دي، مستحيل تكون طبيعية!

أخرجت من شنطتي العلبة كلها، حصلت لنفسي على قطعة منها وأهديته الباقي، قلبها وألقاها على مكتبه، تابعت: - هاجيبلك منها علبتين، العلبة بتكسر الميت دولار! قلت إيه؟

أشعل سيجارة جديدة ونفث دخانها، قلب العرض في رأسه، ثم أشار إليَّ بالسيجارة: - عشر علب. هاجيبلك خصم ١٠٪ زيادة، ولو حد عرف أنا وإنتَ هنزعل من بعض!

راجعت الأمر في عقلي قليلًا، صافحته لأكمل الاتفاق، فاعتصر يدي. ما زال يحتفظ ببعض القوة ذلك الغول.

تابع سحق الشوكولاتة بأسنانه الداكنة، واحدة تلو واحدة. لم أستطع أن أمنع نفسي والتقفت ما في يدي وأكلتها، سألني وهو يلوك ما في فيه: - حد يسيب شغلانة زي دي؟! دي أحلى شوكولاتة دُقتها في حياتي!

تابعت:

- لسه الموضوع مش نهائي. ممكن جدًّا أكمل في نفس المجال، كل شيء وارد!

حرك رأسه إيجابًا، ثم أمسك بالشبكة وناولني إياها مجددًا:

- أستأذنك عشان إيدك أطول من إيدي، ممكن تجيبلي الساعة اللي واقعة دي.

رددت بنبرة بها بعض الحدة:

- حمدي بيه أنا مش جاي هنا عشا...

قاطعني بطريقة أبوية:

- أرجوك تساعدني! وما تخافش من آنجيلا. الحقيقة إن هي اللي هتخاف منك، آخرها تاكل سمك صغير.

ترددت فتابع:

- مهمة بسيطة زي دي هتاخد عليها خصم ٥٪ زيادة!

تنهدت طويلًا وأمسكت بشبكته، مددت يدي، وصلت الشبكة إلى مقربة من السمكة، لكن للوصول إلى الساعة، كان عليَّ أن أمد ذراعي بالكامل داخل الحوض العميق. لامست الشبكة جسد السمكة فابتعدت عن الساعة، ثم بدأت زعنفتها الخارجة من بطنها في الرفرفة بسرعة ملحوظة، وهنا بدأ كل شيء!

انتفضتُ صارخًا، وأخرجت يدي بحركة عفوية من الحوض وسقطتُ بعيدًا ممسكًا بذراعي من هول ما شعرت، رمقته بنظرة ذعر ثم رمقت الحوض مرة أخرى، تابعت التأوه على الأرض من فرط الألم، سبَبته بأبشع الألفاظ وعاجلته بصوت منهك: - إنتَ... أكبر... حيوان شُفته في حياتي!

اقترب مني وجلس القرفصاء أمامي، بينما أتلوى أنا من الوجع:

- هو مش سحر ولا حاجة، مجرد كهربا، السمكة دي بتطلع ٨٦٠ فولت، يعني صعقة كاملة «طويلة» منها ممكن تقتل بقرة. شُفت كذبة صغيرة إزاي ممكن توجعك؟

اعتدلت ورتبت هندامي ووضع شنطتي، حركت ذراعي مرتين بصعوبة، ثم صرخت بإنجليزية ذات لهجة أمريكية: - «يو سيك فاك»!

وتابعت بينما أنا في طريقي للخروج:

- أنا غلطان إني ضيعت وقتي مع إنسان مجنون وكذاب زيك!

استوقفني صائحًا:

- إنتَ كذبت عليَّ الأول يا راغب بيه!

توقفت، ثم التفتُّ متسائلًا:

- تقصد إيه؟!

- أقصد شغلك في الخليج، اللي خبيته عني!

- عرفت إزاي؟

- قلتلك قبل كده، أنا راجل باحب أشوف الصورة كاملة وأراقب التفاصيل.

رمقته طويلًا، من أسفله إلى أعلاه باحتقار عميق قائلًا:

- اهتم بتفاصيلك الشخصية!

هممت بالرحيل مجددًا، لكنه تابع:

- إنتَ في محيط شغلي حاليًّا، من حقي يكون بينا شوية ثقة، ومش هتخرج من المركب غير بإذني!

التفتُّ مجددًا:

- بتهددني؟!

مد يده ليصافحني:

- الحقيقة إني حابب أتعرف عليك، بدون كذب أو أسرار، الكذب مكلف وأنا باعتذرلك.

ترددت كثيرًا، صففت شعري بأصابعي ثم عدت لأصافحه، علق مبتسمًا:

- أنا شايف إننا بدأنا التعارف غلط، أستسمحك نبدأ من أول وجديد بقلب مفتوح.

قلبت الأمر في عقلي، ثم حركت رأسي إيجابًا ببعض التردد، أشار إلى الكرسي أمام مكتبه فجلست، أخرج من ثلاجة صغيرة أسفل مكتبه علبتَي بيرة مثلجتين، شربنا منهما، ثم تابع التهام الشوكولاتة قائلًا: - فيه سبب يخليك تخبي شغلك الخاص؟

تنهدت طويلًا مفسرًا:

- مش كل الناس بتفهم فكرة مكتب توريد الخادمات.

سرحت في حوض المسخ مجددًا، ليعلق هو:

- بالمناسبة! مش عايزك تشيل من آنجيلا. الطريقة اللي بتموت بيها السمك ممكن تبان موتة بشعة، بس الحقيقة إنها طريقة رحيمة جدًّا لو قارنتها بالقرش مثلًا، كل حد ربنا بيديله طريقة معينة في الافتراس!

حركت رأسي إيجابًا. تساءل:

- دراعك أحسن؟

- أحسن. بس حاسس إني...

- إنك إيه؟!

- كان ممكن أموت!

ابتسم ثم احتلت ابتسامته كل وجهه تدريجيًّا:

- لا! أنا كنت عارف إنك هتشيل إيدك بسرعة.

ثم نفض يديه وحدثني بنبرة هادئة، كأن شيئًا لم يكن:

- كلمني أكتر عن المكتب، إيه السبب اللي خلاك تفضله عن تجارة العيلة؟

أخرجت من جيب الشنطة لوحي الإلكتروني، وبدأت أقلب فيه مفسرًا:

- الشركة دي بتكسبني أكتر عشرين مرة!

توهج وجهه، وتجمدت المضغة في فيه، لكنه تظاهر بعدم الاكتراث رامقًا النيل، ثم تابع وهو يقرأ غلاف العلبة: - والبنات اللي بتوردها، هل بنفس جودة ليندا؟

قهقهت من دون النظر إليه وأنا أقلب بين صورٍ في اللوح الإلكتروني:

- أعلى بكتير.

شرع في تقشير قطعة جديدة وقال لي مشيرًا بسبابته:

- لو هتعلى بالجودة هاعلى بالخصم.

- أفندم؟!

- راغب، إحنا بنتكلم عربي!

- العربي بتاعي مش أحسن حاجة.

ابتسم وحرك رأسه إيجابًا ثم أردف:

- أنا محتاج بنت نضيفة تهتم بيَّ وبشقتي اللي في زايد.

نظرت إليه طويلًا، ثم تابعت ما أفعل في اللوح الإلكتروني من دون اكتراث: - أنا ما باورَّدش لمصر! بس ممكن أعرفك على مكتب هنا يقدر...

- إنتَ عايز الفرح يبقى أسطوري، وبأقل تكلفة ممكنة، وأنا محتاج حاجة نضيفة، ثم الغول يتقاله لأ؟!

- ما أقصدش لأ، أقصد إني مش عارف السيستم في مصر...

- إنت بتتكلم مع السيستم!

- بس فيه ورق وتفاصيل أنا...

- ما تقلقش! المهم تكون حاجة سبيشيال!

أشعل سيجارة جديدة وتابع بعدما أطلق سحابًا رماديًّا طويلًا:

- وما تهربش!

سادت لحظة من الصمت تلاقت فيها أعيننا، شعر ببعض الحرج فرسم ابتسامة على وجهه، سألته بنبرة هادئة: - وإيه اللي يخلي البنت تهرب؟

- فيه منهم بيهرب من الزهق، فيه منهم بيهرب من كتر الضغط.

نظرت إليه طويلًا، استجمعت بأسي وسألت بنبرة هادئة:

- حمدي بيه، إنت عايز البنت ليه بالظبط؟

تراجع إلى الوراء بظهره، طقطق أصابعه وتمطع طويلًا، ثم تابع بنبرة واثقة: - مش مهم ليه، المهم إني هادفع.

- فيه حاجات أهم من الفلوس.

- زي إيه يا راغب؟

- الحياة الكريمة اللي هتعيشها البنت. الأخلاق اللي هتتعامل بيها.

- ما بلاش النغمة دي معايا! ما تقنعنيش إن الزباين اللي بتتعامل معاك ما بتقومش من على سجادة الصلاة!

اتسعت عيناي، قهقهت قليلًا، ثم حركت رأسي إيجابًا، تابعت التقليب في صور الخادمات في اللوح الإلكتروني، وعرضت له ثلاث صور متتالية، لأفريقية فاتنة الجمال، تُظهِر من جسدها المنفجر أكثر مما تخفي، ثم آسيوية، وقوقازية. سال لعابه، وأشار إلى الأفريقية. أردفت: - ليَّ شرطين، أولًا: هادخلها مصر ومليش دعوة بيها.

تحسست ذراعي التي كانت لا تزال تؤلمني وتابعت:

- والشرط التاني: إني هاخد خصم ٥٠٪.

- بس ده خصم كبير.

- البنت هتبقى ملكك.

- ولو حصلها حاجة لا سمح الله؟

- بره عني! المهم يفضل فيها النبض.

- النبض بإيد ربنا.

صمتُّ طويلًا من هول الجملة، ثم أردفت:

- ما اختلفناش، بس إحنا عايزين حاجة تعيش معانا. مش هندفع ده كله في حاجة استخدام المرة الواحدة، هي مش سرنجة! ولا إيه؟!

- مين قال إنها هتتحمل الضغط ومش هتقول للحكومة أو المستشفى؟!

- كلمة «ضغط» دي ليها أكتر من معنى.

- اختر أصعب معنى في دماغك.

- إنتَ خوفتني كده يا حمدي بيه!

- ما باحبش الخوافين!

تنهدت ونظرت بعيدًا. احتجت ربع دقيقة كاملًا لأستجمع ما يريد قوله، ثم تابعت: - ليه بتحط الاحتمال ده في الأول؟

- لأنها هتتكلم.

- مش هتتكلم.

تغيرت ملامحه فجأة، كأن ثمة وحشًا يختبئ خلف وجهه، ماردًا مخيفًا تشكل في ملامحه جعل نبرة صوته تختلف، صرخ قائلًا واللعاب يتطاير من فمه المرتعش: - هتتكلم! في الأول هتقول أنا هاروح المستشفى أتعالج، وأول ما يضغطوا عليها هتتكلم، مفيش إنسان يقدر يتحمل الضغط، فاهم ولا لأ! أنا أكتر واحد ممكن يقولك.

ساد الصمت بعدها للحظة، حاولت التغلب على حالة الصدمة التي اعترت وجهي من المسخ الذي رأيت، بلعت ريقي وتابعت: - حمدي بيه، خد جرعة الأنسولين، كمية السكر اللي كلتها مع العصبية مش صح. أنا أخوك الصغير ومريض سكر زيك.

حصل على نفس أخير من سيجارته، وغرس سن الأنسولين في جسده ليحصل على جرعة تعادل ما التهمه من الشوكولاتة. ابتسم قليلًا ليداري بعض الحرج وتابع: - صوتي عِلي عليك شوية! معلش!

طلبت منه سيجارة، فسمح لي، أشعلتها وحصلت على نفَسي الأول منها، تحتاج معظم السيجارات نحو ثماني دقائق لتشعل نفسها للنهاية، أقل من ذلك لو حصلت على نفَس أو اثنين. حصلت على نفَس واحد وتركتها تحترق. نظرت حولي، كانت هناك نافذة كبيرة تطل على النيل، راقبتها وأردفت: - عجبني منظر النيل من هنا!

رمق النافذة وتجاهل كلماتي، ثم تابع بصوت يعتريه الإجهاد فاتحًا أزرار قميصه العلوية: - عايز رد منك.

فكرت مليًّا وحركت رأسي إيجابًا وأردفت:

- هاساعدك، هاورَّد المنتج ومليش دعوة بقرارك بعد كده.

أومأ إيجابًا بدوره، لكن تضاعفت عليه آثار الإعياء، وزاغت عيناه كأن شبحًا يحادثه. تابعت وأنا أقلب صور اللوح الإلكتروني: - لو مصمم على رأيك، فيه عرض هاعرضه عليك، منتج هابيعهولك بنص التمن!

تنهد بصعوبة، ثم أشار إليَّ بسبابته أن أكمل. تابعت:

- فيه بنت مقطوعة من شجرة، مش هيحصل حاجة لو قطعت فرع الشجرة نفسه زي ما إنتَ عايز.

تابعت تقليب الصور حتى وصلت إلى فتاة ذات ملامح مصرية، في العشرينيات من عمرها، قمحية اللون، تظهر مبتسمة.

حرك رأسه إيجابًا وهو يراها ثم تجمدت عيناه، حوَّل بصره إليَّ، ظهر الذعر

على جنبات وجهه، تعالت أنفاسه، بلع ريقه وتحولت عيناه إلى عينَي ذئب غاضب: - مين اللي باعتك؟

سمحت لنفسي بأخذ نفس جديد من السيجارة، تبقى منها ست دقائق. تابعت بعينين ثاقبتين: - شبح بنت ميتة، ماتت بطريقة بشعة من شخص سادي. الشبح زارني في الحلم!

تابع بالحدة نفسها:

- وصلت إزاي لصورتها؟!

- هتفرق معاك الإجابة؟

رمق الأغلفة الفارغة صائحًا:

- حطيت إيه في الشوكولاتة؟

صمتُّ لثانيتين وتابعت:

- نسيت إني أكلت منها معاك؟!

شهق بصعوبة ليتنفس وعلا صدره وهبط بسرعة، تابعت بدوري:

- بس لو المشكلة في مستوى السكر، خد القلم بتاعك.

أخرجته من جيبي ووضعته أمامه على المكتب، لتتسع عيناه أكثر، أخرج القلم الذي حقن نفسه به منذ بضع ثوانٍ، سرح فيه للحظة، تابعت بنبرة أكثر قربًا إلى صوتي الحقيقي، بوجه متجهم: - خفة يد!

قال بصوت مبحوح مجهد:

- إنتَ بدلت القلم!

رددت بصوت هادئ:

- وإنتَ بدلت حياتها بالموت!

- كانت حادثة.

- الدكاترة ما عرفوش يخيطوا فيها حاجة.

تعالت أنفاسه وفتح درج مكتبه بعصبية وأخرج مسدسًا أسود اللون، وصوبه إليَّ، سقط منه أرضًا في الحال، نظر إلى يديه المرتعشتين. تابعت أنا: - سم مستخرَج من الأفعى القرنية، معدل كيميائيًّا، بيسبب الشلل الرخوي. ده السبب إن عضلات جسمك والحجاب الحاجز بتتجمد، وإنك مش قادر تتنفس كويس.

بدأ في مسك رقبته، وتراخت يداه بجانبه، وحشرج صوته، أمسكت به وجررته. جررته حتى اقترب من الحوض الخاص بمسخه. اقتربت من رأسه هامسًا: - ممكن تبان موتة بشعة، بس هي طريقة رحيمة جدًّا، لو قارنتها بالغول، مثلًا!

دفعت رأسه بداخل الحوض. لم يستطع أن يحرك جسده بسبب الشلل، ما هي إلا خمس ثوانٍ حتى رأيت جسده ينتفض بسبب الصعقة الكهربية. مرة، تتلوها مرة أخرى، فأخرى... ثم أخرى.

بناءً عليه، أقرت هيئة المحكمة صفر، بمعاقبة المتهم بالإعدام، على أن يتذوق إحساس العجز نفسه الذي عانته المجني عليها: سعدية نبيل عبد التواب، التي عانت بعدما خدرها الجاني، واغتصبها بأبشع الطرق، وشرَّحها حية بسادية لا مثيل لها. انتهى.

في طريقي للخروج شاهدت السيجارة، وإذ بها انتهت. لا بد أنني قد أخذت أكثر من عشر دقائق كاملة. إن كل سيجارة أشعلها تحمل معها بضع دقائق، أثقل من أن أحملها أنا.

باغتني صداع، سال أنفي بخط من الدماء، مسحته وقذفت بضع كبسولات مضادة للألم في حلقي، وهممت بالرحيل.

في الخارج خلعت عن رأسي الشعر المستعار، والنظارة، وطقم الأسنان، عاد فكي إلى طبيعته. ألقيتها بجانبي في السيارة، وهممت بالرحيل.

العودة إلى الحاضر

القاهرة

اليوم نفسه

لا يحلم الرُّضع بالكوابيس، لأنهم لا يعلمون معناها بعد، هناك أشياء أتمنى لو أُخفيت عني.

* * *

قاومتُ ذكرى الغول وطردتها من رأسي بتفاصيلها القذرة، توقفت سيارتي الدودج القديمة أمام بناية مستشفى «كيور» ليلًا، الهواء البارد يداعب وجهي، ويترك رائحة مختلطة من العوادم في أنفي، لقد أغدق المنتجون على هذا البلد بالإهمال حتى اعتاد المستهلكون كل شيء قبيح، واعتادت رئاتهم كل شيء داكن.

دلفت إلى المستشفى، اسمه المباشر يتحدث عن الشفاء، أمل من دون

واقعية، نوع من أنواع الوقاحة! لقد كان ذلك المستشفى أسوأ كوابيسي حتى الآن.

جلست مرتديًا قميصي الأبيض ذا الخطوط الدقيقة والحمالات الحمراء، التي تتراقص كلما فتحت دولابي، تُخرِج لسانها في فخر لباقي ملابسي الغالية، لم يعد الأمر ينفع الآن مع الأحزمة، لقد خسرت ٣٠٪ من وزني تقريبًا في أقل من عام، فوقها معطف جلدي، لم أرتدِ حذائي الجلدي ذا النصل المخفي، فقد أصبح ثقيلًا على جسدي على أي حال.

استقررت فوق مقعد معدني بجانب الآخرين. أتذكر كيف قابلت نادر دانيال هنا، كانت مصادفة عجيبة، جندني بعد حديث طويل، قال لي إن المحكمة صفر لم توظف شخصًا قَطُّ لم يمتهن الأمر من قبل، بل ووجهني إلى التدريب، فصرت الأفضل، أو ظننت نفسي ذلك!

تابعت عيناي دقات الساعة المقابلة لي، هناك شيء يجعل صوت حركة عقرب الثواني شيئًا مخيفًا، ومزعجًا في الوقت نفسه، على يساري امرأة ثلاثينية، وابنتها لم تتخطَّ السنوات الخمس بعد، ابتسمت لي وهي تعبث في هاتفها الصغير، وأطلقت بالونًا أحمر اللون صنعته من علكتها، فانفجر لكن آثار انفجاره عادلت قنبلة عنقودية في رأسي، ابتسمت لها، على الرغم من كل شيء.

سرحت في الطفلة لوهلة، كيف سيطر ذلك الملعون المستطيل - المُسمى بالهاتف - عليها كالمارد، وجعلها تخضع له من دون أن تتفوه، تساءلت: ما الفارق بين الهاتف الحديث والأطباء النفسيين الذين ينوِّمون الضحايا في الأفلام النفسية القديمة؟! لعل الفارق أن الهاتف قد يفعلها لفترة أطول.

عدت إلى الساعة: ٦:١١ دقيقة، لقد مرت إحدى عشرة دقيقة كاملة وأنا أشاهدها كالمعتوه، حمدًا لله أن والدتها كانت مستغرقة في هاتفها ولم تلحظني! إحدى عشرة دقيقة مرت على رأسي كأنها إحدى عشرة ثانية، إن الأمر يتدهور بشكل سيئ، أسرع مما تخيلت.

أشارت إليَّ الممرضة فدلفت إلى داخل الغرفة.

سمعت صوت موتور مكتومًا، فرأيته فوق كرسيه المتحرك الإلكتروني، يتحرك تجاهي، الدكتور أبيض، استقر أمام مكتبه وطفق يقلب يده في المحلول المعقم، ثم يرمقني بتلك الابتسامة، كان ستينيًّا، يعاني بعض الصلع يداريه بخصلاته البيضاء الناعمة، وجهه أوروبي الطابع مستطيل، أزرق العينين

دقيق الأنف. سمعت أن أصوله لبنانية. لسبب ما يذكرني بالمطرب البوسني دينو مرلين أو بدرجة أقل بستينج، كنت أتمنى أن أرى شكلي حينما أصل إلى الستينيات. لكن من المؤسف قول الحقيقة، هذا السهم لن يصل إلى ذلك المدى! عمومًا شكله لم يكن سبب اختياري له كطبيب منذ سنوات، لكنه الأفضل هنا في مجال المخ والأعصاب.

أشار إليَّ مبتسمًا:

- جيت تودعني؟

مازحته قائلًا:

- كنت فاكر إن ساعتي فيها شوية رمل!

حرك سبابته نفيًا، ومط شفتيه أسفًا، كأنه يقول إني أسأت فهمه. ثم شرع في فتح ظرف الأشعة الخاصة بي: - غلط، ساعتك الرملية لسه فيها كتير!

- إنت قلت إني هاودعك!

- مش يمكن ساعتي أنا اللي مفيهاش!

رمقته بنظرة حادة، فأنا لست في مزاج لأخبار أخرى سيئة، عاجلني:

- ما تقلقش! مجرد هاسيب المستشفى وهاسافر، افتكرت إنك عرفت!

أشارت إليَّ الممرضة بخلع قميصي، فجاريتها لتظهر أضلاعي النحيلة، استقررت فوق السرير لكنني لاحظت تغير وجه الدكتور أبيض حينما انتهى من التحاليل، فتفهمت. عاجلته بدوري: - الرملة بدأت تخلص؟!

انتبه، ورمقني بنظرة ذعر حاول التغلب عليها بابتسامة زائفة، لم أكن أحتاج الكثير لأعلم أن الأمر يزداد سوءًا.

أردف هو:

- نفسيتك مش أحسن حاجة، خسرت وزن كتير!

- تفتكر مشكلتي في الوزن بس؟!

- احكيلي!

حينما أتحدث، أفكر في لوحة بابل، أعلم أنني سأتكلم لغة لن يعرفها أحد غيري، لذا أفضِّل الصمت غالبًا.

قاومت شهوة الصمت واستطردت:

- نوبات الصرع بتتكرر بمعدل أسرع. فيه مناطق عامية في ذاكرتي، سنين كاملة اتمسحت. ذكريات بعيدة ممكن أفتكرها كويس وأقرب وأبعد منها مش لاقيها، بس عارف إنها حصلت. الصداع أقوى من زمان، ده غير شوية ألم في الصدر، وده اللي جابني الحقيقة.

- كل حاجة ليها حل.

- ما تحاولش تعمل الموضوع ده معايا!

- تقصد إيه؟!

- ما تبعليش منتج إنتَ مش عايز تشتريه!

- فيه كذا اتجاه لسه ما جربناهوش.

حركت رأسي نفيًا وأردفت:

- كل حاجة ماشية في اتجاه واحد: الورم بينتصر!

اقترب مني بكرسيه وحاول لملمة جأشه، قال بنبرة هادئة:

- لسه ما جربناش الحل الكيميائي، أنا محتاج إنك ما ترفضش، أرجوك!

- كم شهر فاضلي؟

- أنا متأكد إن العلاج الكيميائي أفضل من الانتظار.

- عايز أعرف الوقت اللي فاضلي يا دكتور!

تجاهل سؤالي وتابع:

- شهاب أنا مش باعلم الغيب! لكن أقدر أساعدك في تكاليف العلاج، ممكن أقدمهولك كله هدية، أنا ليَّ علاقات مع شركات أدوية كبيرة و...

- دكتور أبيض!

نظر بعيدًا وتنهد، ثم مسح بعدها نظارته بمنديل أخرجه من جيبه، أجابني:

- شهور، في أي لحظة ممكن يحصل «ميتاستيزس» وينتشر، فيه بعض التحورات البسيطة بدأنا نلاحظها في الضلع السابع، البنكرياس، الغدة الدرقية، بس صدقني باينة في الأشعة بأعجوبة ومع ذلك لازم ناخد عينة من الخلايا ونفحصها للاطمئنان.

حركت رأسي إيجابًا وتابعت وأنا أغلق قميصي، رافضًا أن يتمم الكشف، لقد عاهدت نفسي أن أتظاهر أنني لا ألاحظ تدهور حالتي، حتى ينتهي الأمر. أعامل الورم مثل ذكرياتي المؤلمة. أنتظر نسيان وجوده مع الوقت.
ابتسمت قائلًا:

- اتشرفت جدًّا بمعرفتك دكتور أبيض، نتقابل في البر التاني!

ضم شفتيه في أسف، ثم حرك رأسه إيجابًا. تساءل بعدما رأى إصراري على الرحيل، تساءل بنبرة أهدأ: - لسه موضوع الوقت ده بيحصل؟ والأحلام... الست اللي بتشوفها!

- هيفرق في النتيجة؟

حاول الاعتذار وأشاح بوجهه بعيدًا بحثًا عن أي شيء في حرج، لكنني استطردت: - الاتنين بيحصلوا، بطريقة مخيفة. الوقت أصبح لغز، أوقات ما

باحسش بساعة كاملة. أوقات الثانية بتكون دقيقة!

أشار إلى مساعدته فتناولت ملف الورق منه، تابع:

- ده طبيعي، منطقة الـ«SMG» ليها صلة مباشرة بالوقت، بس ما تنساش إنه مسمَّع في جزء مسؤول عن الإبداع: «الحصين» أو «الهيبوكامبوس».

- ما تقلقش يا دكتور، مش ناوي أسمَّعك أي شعر أو مؤلفات موسيقية عملتها وأنا باسلق المكرونة!

ابتسم الدكتور أبيض، ثم ما لبثت أن تحولت ابتسامته إلى ضحكة طويلة، ابتسمت بدوري، كان من الجيد كسر حدة الموقف على أي حال. علق: - ما أقصدش، كنت عايز أقول إن ممكن جدًّا يحصل شوية تهيؤات من وقت للتاني.

سرحت لوهلة في حركة عداد الثواني في ساعتي، ثم حدثته بجدية تلك المرة:

- الورم اختار المكان الصح عشان يضغط عليه. أوقات باحس إن المخ معقد زي المتاهة!

- المخ شيء إعجازي يا شهاب. يمكن نختلف على اللي كونه، بس الأكيد - واللي محدش يختلف عليه - هو عبقرية تصميمه.

ابتسمت مهندمًا ملابسي، متجاهلًا كل الأخبار السيئة:

- أنا قربت التجربة اللي قلتلي عليها.

حرك رأسه إيجابًا مبتسمًا بدوره:

- المتطوع اللي شاف عدد صور أكتر من الطبيعي بسبب الخوف؟!

- دي أنا حفظتها! بس أنا أقصد تجربة مختلفة، الفيران اللي عندها ضرر في «الهيبوكامبوس» في المخ! ما قدروش يتعرفوا على الوقت أو يشعروا بيه لما عدت اتناشر دقيقة! فقدوا إحساسهم بالوقت تمامًا، مع إن فيه أكتر من ساعة بيولوجية جوه المخ.

- إنت قارئ جيد يا شهاب!

تجرعت بعضًا من الفودكا من زجاجة صغيرة أخرجتها من جيبي مبتسمًا:

- حط أي راجل في مكاني هيقرا كل شيء!

- بس مش أي راجل في مكانك هيرفض العلاج!

حركت رأسي إيجابًا، ثم قمت من فوق السرير واعتدلت واقفًا:

- صعب راجل زيي يخدع نفسه!

توجه إلى مكتبه واستخدم سيجارة إلكترونية مطلِقًا سُحبًا من الدخان الأبيض المعطر برائحة القهوة، اتجهت إليه لأصافحه للمرة الأخيرة، حينما مددت يدي توتر لأن في يمناه السيجارة، فوضعها بسرعة على مكتبه، لكنه - عن طريق الخطأ - ضرب بيده بروازًا زجاجيًّا يحمل صورة ابنته معه، كانت

شقراء في العقد الأول، مبتسمة، تفتقد سِنة من أسنانها، ومعهما رجل غليظ الجثة، في مستواه العمري نفسه، كان من الواضح أن مكان الصورة في الولايات المتحدة، أمام المسلة الفرعونية الشهيرة.

سقطت الصورة وبدت على وجهه علامات الاستياء، لكنه فوجئ بها في يدي. أمسكت بها في طريقها بين المكتب والأرض. تجمدت للحظة.

لم تخفِ عيناه تلك النظرة، كأنه يحسدني، لم أتخيل أن يتمنى شخص ما أن يكون في موقعي. تابعت: - بس ممكن يخدع الوقت!

حرك رأسه نفيًا ببطء قائلًا بعينين واثقتين:

- قصدك الوقت خدع جسمك! زي ما البحر الهادي بيخدع المركب بالظبط.

وضعت الصورة في مكانها متابعًا:

- مش مهم التفسير، المهم المركب ترسى على بر.

- اللي إنتَ فيه ده شيء عبقري! ممكن ينقذك من مواقف صعبة.

حركت رأسي إيجابًا:

- صعب أشرحلك أنقذني قد إيه!

صافحني والفضول يقطر من كلماته:

- أقدر أسمعك لو عايز تحكي.

حركت رأسي نفيًا أسفًا، لأنني لا أستطيع الشرح، ثم أردفت قابضًا على يده في وداع حار: - في البر التاني هاشرحلك!

لا أعلم كيف غرغرت عيناه بالدموع، لكنني لم أتخيل أن يحدث ذلك، اختفيت، أعلم نفسي؛ لا أجيد تلك اللحظات.

***

أمتلك قدرًا كافيًا من البراعة لتجاهل الصور التي تطعن نفسي وروحي. أعلم أن اللحظة التي سأفقد فيها تلك المهارة، هي اللحظة نفسها التي سألصق فيها فوهة سلاحي بفمي.

تجاهلت أمر التقرير فور عودتي من المستشفى. وفي الدور الرابع في بنايتي بكومباوند «بيفرلي»، حاولت عدم الضغط على حساسات القدم، التي وضعتها تحت مشاية الترحاب الموضوعة أمام بابي، أدرت مفتاح الباب ودلفت، لا أعلم، لكنني فكرت أن ما بقي لي لا يحتاج كل هذه الاحتياطات الأمنية.

أنرت مصابيح الشقة، لتظهر صور المرأة التي رسمتها عشرات المرات وعلقتها على الحائط، صورة لامرأة جميلة تفتقد عينين. ضغطت على زر التلفزيون ليفتح على قناة إعلانات شهيرة، تُدعى «ألفا»، كان هناك إعلان عن شواية معدنية فارهة، تستخدمها شقراء وابنها وزوجها، جميعهم ينعمون بوجبات لذيذة وحياة مثالية في البراري.

قناة «ألفا» لها علاقة بالمحكمة صفر، هي غطاء لطيف يدر بعض الأموال، لكنه يخفي وسيلة تواصل عبقرية.

تعرض القناة إعلانات متنوعة لمنتجات يمكنك طلبها من تطبيق يحمل الاسم نفسه، لكن هناك إعلانًا واحدًا لا يأتي إلا مرة كل بضعة أسابيع، إعلان آلة لقتل الحشرات والبعوض، حينما يأتي فإن المستشار يحتاج إلى أن يقصد أي خط مترو قريب منه، ثم كرسي أصحاب الهمم في العربة الأخيرة، ويمرر هاتفه باستخدام قارئ الـ«QR» أسفله، لتظهر له تفاصيل المستهلك، إن وافق على اتخاذ القضية - وأقول اتخاذ القضية جدلًا - لأنه لا يوجد مستشار حقيقي الآن. لكن - على أي حال - يكون لديه قليل من الوقت ليهاتف خدمة العملاء ويطلب من الموظف أن يشتري المنتج. ساعتها يُمنح أسبوعًا لينفذ الأمر.

تذكرت أنني لم أذق الطعام منذ فترة، لم أكد أشرع في إعداد بعض المعكرونة وكرات اللحم حتى هاجمني الصداع وسال أنفي دمًا، بدا أن النوبة الصرعية تنبئني بقدومها.

حصلت على بعض المسكنات والفودكا، لكنني ركضت ناحية الحمَّام لرغبتي الشديدة في التقيؤ، ألقيت برأسي في المرحاض وفعلت ما فعلت، لأجد الدماء تمتزج بالمخاط! لقد سببت لي المسكنات قرحة ما، لعل هذا يفسر الألم الشديد الذي أشعر به في أمعائي من وقت إلى آخر.

رمقت عن يميني مسدس «ريفولفر» برازيليًّا كنت قد اشتريته من دييجو، لمع في عينَي، فأمسكت به برعشة وحذر، قربته من فمي وقبلته قبلة فرنسية.

«هيا أيها الجبان! أنت هالك لا محالة، تظن أنك لن تمرح وترتع في جهنم بعد كل ما فعلت، فقط لأنك تمتلك بضعة مبادئ؟ اضغط على الزناد، انهِ كل شيء!».

ذلك ما جال في خاطري ساعتها. اعتصرت الزناد وأغلقت عينَي، فتحرك

قليلًا، حاولت أن أضغطه إلى نهايته.

«هل مللتِ من الحشرات المزعجة، والبعوضة المقززة؟! إليكِ جهاز «إنسيكتور» الجديد!».

أخرجت فوهة المسدس من فمي، فتحت عينَي، وتنفست الصعداء.

لمن تدق الأجراس؟

حينما أفكر في الأمر شتاء ١٩٨١، أرى نفسي صغيرًا، في السادسة من عمري، أرتعد فوق اللسان الخشبي، وهو، يقف هناك، يرمقني بنظرة ذئب حذر، حاصر فريسة وليدة في اللامهرب. يلمع نصل سكينه خلف ظهره، يبتسم بعينين زائغتين.

وخطوة أخرى إلى الوراء.

يتبعها سقوط في بحر غاضب.

ثم أعود لأرى نفسي رجلًا بالغًا، في مكان آخر، يلفح الهواء وجهي، تتطاير خصال شعري ثم تسكن بعدما تهدأ الأمواج، أنا أمام البحر نفسه، لكنه الآن أخضر اللون رائق، رماله صفراء مائلة إلى البياض، اللسان الخشبي الذي هربت منه في طفولتي خلفي.

هناك فنجان قهوة فارغ في يدي، أنظر عن يميني فأجدها، سيدة بيضاء اللون هادئة الملامح، هناك بضعة عروق تخللت ظهرَي يديها، صانعةً أفرعًا زرقاء في جلدها الأبيض النقي، لعل تأثير الزمن قد انتصر عليها، شعرها الذهبي الجاف، يصل إلى أذنيها، شعرت أنها تعرفني، تعلقت بيدي في خوف. هل هي أمي؟ أعود ببصري إلى يدي وإذ بالفنجان تملأه قهوة داكنة اللون، سوداء.

«أكثر ظلمة من أعماقك!». كأنني سمعت شيئًا يهمس بتلك الجملة في أذني، شعرت بمرارتها قبيل ارتشافها، من دون تردد، قربت القدح من فمي، وشربت القهوة على مرة واحدة.

أعود بعدها إلى البحر ببصري، في البداية لم يحدث شيء غير طبيعي، لكن تهيجت أمواجه بغتة فتناثر رذاذها في الهواء غضبًا، ثم تناحرت وعلى ألسنتها الزبد الأبيض. لكن شيئًا أشعر به في صدري يؤرقني، التفتُّ عن يميني وإذ بالمرأة التي اعتصرت ذراعي خوفًا قد اختفت. نظرت أمامي وإذ بالأمواج على ارتفاع عدة أمتار، ثم أسمع صوته باكيًا: صوت مراد، أو «ظل» كما لقب نفسه في المحكمة: «بلاش يا إكسلانس! ما بدِّي موت بها العمر».

التفتُّ إليه لأراه ينظر إليَّ بعينين داميتين، تذرفان دموع الرعب والهلع. بيده المرتعشة مسدس أسود اللون.

الماضي لحن عبقري سمعته بالخطأ، تلازم نغمته رأسك أكثر فأكثر، كلما

حاولت تجاهله.

وشيء ما يجعلني أحرك يدي، فيتبعني هو بحركة لاإرادية، لكنه يلهث ويتصاعد صوت أنفاسه، كأنه يحاول منع يده التي تحمل المسدس من الاقتراب من رأسه. أقرب إصبعي الوسطى والسبابة إلى رأسي فيضطر إلى فعل ذلك، ينظر إليَّ وعيناه ترجواانني بألا أفعل. يحرك رأسه نفيًا فأتجاهله، وأحرك إبهامي فتنطلق الرصاصة من مسدسه وتفجر رأسه. يتناثر الدم والأشلاء بينما تظللنا الأمواج. أنظر إليها وأركض باكيًا.

صدري يؤلمني أكثر بينما أحاول الهروب، أعجز عن التنفس، لأن ثمة قبضة منعتني من الحركة، قبضة أطبقت على رقبتي، وإذ به أمامي: رجل مخيف، ذو ملامح غير واضحة، أطلق عليه «الخووخ». روحي تكاد تخرج من رأسي. نظرت إلى وجهه المبهم، رأيت عينيه الداكنتين، كأنني أنظر إلى ثقب أسود غاضب.

في الأحلام لا يعطيك عقلك فرصة للتحقق من الحبكة الدرامية، ويبدو القفز من فوق ناطحة سحاب والاستقرار فوق تنين ناري يطارد قطيعًا من الديناصورات شيئًا منطقيًّا. لم أعد بحاجة إلى مزيد من التفسير؛ أنا في كابوس ما! نصفه - للأسف - حدث لي بالفعل.

٨:١٤ صباحًا

استيقظت إثر نوبة الاختناق في أثناء النوم، شيء يُدعى «آبنيا»، كما يسميه الدكتور أبيض، يحدث بسبب عدم قدرة المخ على إبقاء مجرى التنفس مفتوحًا. يقول الدكتور أبيض إنها تحدث لي عشرات المرات ليلًا على الرغم من نحافتي، وإنها قد تقتلني يومًا ما، لأن المخ - في إحدى المرات - قد يستسلم ويفشل في أن يوقظني عن طريق رفع ضربات القلب، التي يفعلها عبر وضعي في بضعة كوابيس سريالية لأستيقظ. متى سيمل مني؟ العقل شيء عبقري، لكن لا يمكنك الاعتماد على ما تجهله.

لا ضرر أن يحصل الخووخ على روحي يومًا ما، لكني أظن أن الورم قد يسبقه لذلك. أشعر أن هناك تحديًا بين أعضاء جسدي، أيها يسبب لي الضرر الأكبر، ويبدو لي أن جميعها فائزة.

رائحة القهوة النفاذة، وصور المرأة التي أعلمها جيدًا، معلقة على الحائط، أراها في مشهد أعلم أنه حدث، وكوابيس لا أعلم كيف تسللت إليه، كل ما

أعرفه أنها ربتني وأنقذتني من الموت بكل السبل، وأنها علمتني السباحة في عمر صغير، لمنع ذلك المعتوه الدموي من تقطيعي إربًا: زوجها.

سيطرت عليَّ فكرة أنني كنت على وشك تفجير رأسي قبيل البارحة، لولا أن سمعت إعلان قاتل الحشرات، لماذا قد يمنعني الفضول من قتل نفسي؟ ولماذا أقتل نفسي أصلًا بدلًا من انتظار دوري؟

مرت بضع ساعات. أنا جالس على الكرسي المقابل للشاشة، أعاني شللًا تامًّا، أفكر فقط! لم أعلم أنه قد مرت كل تلك الساعات لولا أن نظرت في الساعة مرتين. قمت وفتحت الستائر لأراقب ما يحدث من النافذة، حرَّقت أشعة الشمس قزحيتَي عينَي، ولكنني استمتعت بمنظر بضعة أطفال يركلون الكرة.

اتجهت إلى شاشة التلفزيون العملاقة، أشاهد فداء نمر وهي تغرد في برنامجها المفضل عندي، ثم قلبت في قنوات الأخبار، وإذ ببعض أعمال شغب، تنقلها قناة أجنبية من القاهرة، سيطرت عليها الشرطة ببراعة، كُتب أنها مظاهرات اندلعت اعتراضًا على تعويم جديد للعملة ترى فيه الحكومة إصلاحًا اقتصاديًّا. إلا أن شيئًا ما لفت نظري في البناية التي تجاور الإطار المحترق؛ وسم على الحائط رسمه شخص برشاش دهان أسود. جمدت الشاشة بواسطة القفاز وكبَّرت الصورة، لم أصدق عينَي، إنه وسم على الفيسبوك.

#المجرم!

هرولت للبحث عن هاتفي، وقصدت الفيسبوك، وكتبت الوسم، ولا أصدق ما أرى!

هناك المئات من الأشخاص يتناقلون كلماتي بل ومقاطع صوتية، لقد حصلت على دقائق الشهرة الخمس عشرة الخاصة بي! وهذا قد يسبب لي بضع مشكلات! حتى لو كان خط هاتفي دوليًّا، يمكنهم تعقبي إن أرادوا! حسنًا، اللعنة عليَّ، أنا ميت في كل الأحوال!

هاتفت راديو «أونس»، وكما توقعت تركتني المتحدثة أدخل على الخط في أسرع فرصة، بادرتها بالحديث، بينما أنا أقترب من وجهها في الشاشة التي أمامي: - تبدين مرهقة اليوم!

عادت بظهرها إلى الوراء في حركة عفوية، وأمسكت بكوب القرفة، ثم عاجلتني: - أهلًا، رجل الساعة!

- لماذا تطلقين عليَّ ذلك الاسم؟

- لأن توقعك صحيح، أقصد اقتصاديًّا على الأقل!

- متابعتي لمصفوفة ما لا تجعل مني عبقريًّا لأني توقعت الرقم الجديد.

- الآن أنت متواضع!

تابعت إيما ترجمة الحديث إلى الألمانية لأتابع:

- أنا فقط مستهلك قرر التمرد على المنتج الذي يحصل عليه.

- لماذا تصنف الناس - دائمًا - كمنتجين ومستهلكين؟!

- لأنهم كذلك، وأنا لا أعني المعنى الاقتصادي الآن!

- ماذا تعني؟

- هل أقول أشياء غير منطقية؟

- أقصد: ماذا ينتجون وماذا نستهلك؟

- أي شيء، كل شيء! منتجات، أفكارًا وذكريات، مبادئ وانتماءات! والاستهلاك ليس اختياريًّا.

- عفوًا! لكن لا أحد يرغمك على شراء أي شيء!

صمتٌ طويلًا وعلقت:

- تلك هي العبقرية في الأمر، المستهلك يظن أن لديه رفاهية الاختيار. المواطن الأمريكي مثلًا يظن أنه حر، لكنه يختار فقط بين الديمقراطيين والجمهوريين، وكلاهما لا يستطيعان - مثلًا - أن يفرضا قانونًا لحماية الأطفال، أتحدث عن القتل بدم بارد بواسطة الأسلحة التي تملأ أرض الفرص.

- ولماذا تعتقد أنهم لا يستطيعون سنَّ هذا القانون؟

- إجابة سهلة، لأن شركات الأسلحة تشارك في تمويل حملات الحزبين المرشحين أنفسهما.

- المواطن الأمريكي يمكنه دائمًا الاعتراض أليس كذلك، هل يمكننا نحن؟

- لا يمكنك أن تعترض وأنت منهار اقتصاديًّا، مما يقودنا إلى النقطة الأهم: هل سمعتِ عن القاتل الاقتصادي؟

- تتحدث عن جون بيركينز؟!

- نعم! تحدث بيركينز كثيرًا عن صناعة المستهلك، لكن على نطاق أشمل، الدول المستهلكة.

- تقصد أنهم يرغمون الدول على الشراء؟

- ليس بتلك الصورة المباشرة، إنهم يرغمون الدول على أخذ قروض طائلة يعلمون أنها لن تصل إلى العامة، ثم يرغمونك أنت المواطن أن تسددها بطريقتهم، بعد أن تبددها العائلات المتحكمة في بلدك! لقد اعترفوا بذلك يا فداء! بل إنهم يغيرون الحكومات التي ترفض أخذ القروض بأخرى تقبل، يغتالون وينقلبون! فداء، هناك دول تُمنع من صناعة أشياء معينة، بل وزراعة محاصيل معينة فوق أراضيها! أنت صممت أن تكون مستهلكًا فقط! هل تظنين أن نوع الشامبو الذي تستخدمينه هو الأفضل؟ أو أن لك دورًا أصلًا في اختياره؟

قبضت أناملها في حركة دفاعية، ثم استعادت جأشها وتابعت:

- دعني أقل لك ما أفعل: أنا أشاهد التلفزيون، يأتي إعلان عن منتج يعجبني، أشتريه وآخر أرفضه، هذا كل ما في الأمر!

- أتفق معك تلك المرة! كلنا نترك جهاز التلفزيون مفتوحًا لنشعر أن شخصًا ما يحدثنا. نحتاج أن نشعر بأن شخصًا ما يرانا، يهتم بأمرنا وينصحنا. الحقيقة أن التلفزيون يتظاهر بذلك. نحن فقط مَن نراه، نخاطبه، نتفاعل معه، نلعنه! هو يتظاهر بأنه يتفهم ردود الأفعال، لأنه يعلمها سابقًا. هل يُظهر كلامي أي منطق؟ لا أعلم! لتفهمي لا بد لكِ أن تجلسي داخل رأسي، وتُوصَّل نهايات أعصابي بمرفقك بطريقة ما مثل أفلام الخيال العلمي.

- ماذا تريد أن تقول؟

- قلت كل شيء! لكنك لم تحاولي أن تفهمي كلماتي.

- ثمة أمر في التواصل بيننا إذن سيدي المجرم!

- ثمة تجاوز يحدث ضدنا جميعًا، هذا هو الأمر!

- لا بأس أن نشتري المنتجات التي نحتاجها، أو أن نثق بمنتج ما.

- تعتقدين أنه من الجيد أن تصبحي مستهلكة؟

- هذه هي الحياة أليس كذلك؟ بائع ذكي ومشترٍ مخلص!

صمتٌ طويلًا حتى بعد أن انتهت إيما من الترجمة، قلبت في الصور حتى وصلت إلى فيديو خاص بأطفال يحتفلون بعيد ميلاد، يبدو أنه حدث في أوائل التسعينيات، تابعت: - خطأ! تكرار الكلمات في الإعلانات لا يجعلنا مشترين مميزين فقط لأننا حفظنا الكلمات عن ظهر قلب، هذا ما يعتقده البعض، ولكنه خاطئ، خاطئ بشكل قبيح، نحن مستهلكون مخلصون رغمًا عنا. هل تعتقدين أن تنافس الشركات على رأسك ليس بالأمر المخيف؟ النغمات التي نحفظها لمنتجات لا نهتم بها! لا شيء مصادفة أو مجانيًّا!

- هل تفكر في شيء غير المؤامرة؟

ضحكت ساخرًا، شردت لوهلة ثم تغيرت معالم وجهي إلى وجه أكثر حدة وتابعت: - امرأة ثلاثينية تدخل سوبر ماركت كبيرًا، يضحك لها ابنها فوق عربة التسوق وهو يلهو، يمران على قسم حبوب «السيريال»، هناك بضع علب طُبعت عليها رسومات فاقعة الألوان، لشخصيات كارتونية تنظر إلى الأسفل، لماذا تنظر إلى الأسفل ولا تنظر إلى مستوى الأم؟

- مصادفة!

- هراء!

- معذرة!

- المستهلك المطلوب هو الطفل يا فداء! المنتج يريد إنشاء تواصل بصري وعاطفي مع الطفل، لا المرأة، إنهم يريدونه أن يختار الشخصية ويصرخ ويركل من أجلها، من أجل أن تلتقطها الأم لتُسكِته.

تغيرت معالم وجهها، بدت عليها معالم الامتعاض لكنها تابعت:

- لم أفكر في هذا الأمر قَطُّ!

- التفكير أمر شاق لا يريده المنتجون من جانبك! المروجون يستخدمون عدة أنواع مكررة من التسويق، مثل نوعهم المفضل: «الكونسيبشوال» أو التسويق المبدئي.

- تتحدث عن بناء المفهوم في العقل.

- أتحدث عن زراعته داخل العقل! هو النوع الأكثر ربحًا يا فداء! لكنه يحتاج إلى الكثير من الوقت، سنوات من العمل المتواصل، لكن بمجرد زراعته، ينتهي كل شيء، يصبح كل مستهلك إعلانًا في حد ذاته، لأنه يبشر بالفكرة من حوله.

- لا أتفق معك! لا أعتقد أن الناس بتلك السذاجة!

- الأمر لا يتعلق بالسذاجة، الأمر علمي بحت، لو قلت كلمة «إرهابي» من مائة عام لمواطن إنجليزي يعمل في منجم فحم في شمال إنجلترا، سيستغرق بضع دقائق للإجابة، الآن لو سئل حفيده سيتحدث بكل ثقة عن رجل له ذقن ويرتدي عقالًا عربيًّا، ما الفرق بين هذا وذلك؟ مئات الأفلام الهوليوودية.

حركت رأسها إيجابًا بتقطُّع على مرحلتين، ضامةً شفتيها. كأنها لا تريد أن تتفق معي، لكن عقلها فعلها. أردفَت: - ممم، نحن في سباق تسويقي، لا يمكن إنكار ذلك أستاذي!

- نحن في سباق العقل الباطن.

- دعني أختلف معك، لأن بعض الناس قد يمتلكون ذكاءً كافيًا، ليحصلوا على ما يحتاجون فقط، ربما لديهم فطرة طبيعية ضد التسويق المبدئي!

- مستحيل أن تحمي نفسك من هذا النوع التسويقي، العقل الباطن لا يستطيع رفض فكرة تُزرع.

- ماذا تقصد بعدم قدرتنا على الرفض؟

صمتُّ لبرهة، اقتربت من النافذة وتابعت:

- حسنًا! أمامي أربعة أولاد يركلون الكرة، يلعبون في الشارع المقابل لي، نصبوا مرميين رمزيين بالحجارة، أحد المرميين يبعد عن صندوق القمامة الحديدي العملاق ما يقارب الخمسة أمتار. الأرض غير مستوية، لذلك أحد الأربعة نصح زملاءه بألا يركلوا الكرة بعنف تجاه المرمى القريب من صندوق القمامة العملاق، تجنبًا لسقوط الكرة بداخله.

- أكمِل من فضلك!

تابعت:

- حدث هذا منذ أربعين دقيقة، بينما أقف هنا أراقب صرخاتهم وحماسهم الزائد، تبدو الكرة ثقيلة بالنسبة إلى أجسادهم. إليكِ النتيجة: حتى الآن سقطت الكرة ست مرات داخل الصندوق، كل مرة يطلبون مِمن ركلها أن يقفز إلى داخل الصندوق ويغلق أنفه - تجنبًا للرائحة المقززة - ليخرجها، أحدهم نجح في إخراجها بعصاه ولكنه استغرق أربع دقائق كاملة. النتيجة الأهم: كل واحد من الأربعة ركل الكرة داخل الصندوق مرة واحدة على الأقل، بمن فيهم الطفل الذي حذر الثلاثة، العقل الباطن لا يعرف النفي، لقد نبهوا عقولهم للصندوق الكريه رغمًا عنهم، وزُرعت الفكرة، فصوبوا الكرة تجاهه، لربما لو لم ينبههم الطفل لأصابت الكرة الصندوق مرة أو مرتين فقط! الآن أربعتهم تركوا ملعبهم المفضل، وحاولوا - يائسين - البحث عن مربع فارغ للعب مباراتهم المتوقفة لأسباب قهرية، ونفسية.

- سيدي المجرم! أحيانًا يصيبني كلامك بالدوار، والخوف أيضًا، وأحيانًا أخرى أشعر أنك ذهبت بعيدًا، أتمنى أن تقبل مني ذلك.

- لقد ذهبت بعيدًا بالفعل، ورأيت الأمر هناك، وهو قبيح إلى درجة يصعب شرحها، ما أفعله معكِ هو أنني أحاول أن أنقل الصورة لمن لم يذهبوا.

- وماذا ستستفيد من ذلك؟

- أريد أن يرى الجميع... كل شيء.

٧:٢٢ مساءً

لا يمكنني أن أحدثك كثيرًا عن «الثريشولد» الخاص بي، لكن الفضول هو ما يجعلني أطير بلا أجنحة، وأقتل بلا عقد ذنب.

لم أستطع الانتظار في البيت أكثر من ذلك، هناك شيء يأكل أمعائي، يريدني أن أذهب إلى محطة المترو، أريد تمرير هاتفي أسفل كرسي أصحاب الهمم، لأرى الضحية الجديدة، لكن سرجاني لن يعجبه هذا التطفل، وعقلي أيضًا يرفض تجاهل الأمر. العقل الباطن لا يعرف النفي.

فكرت في الذهاب إلى المقهى الذي قصدته في الشهر الأخير، لربما تغيير المكان قد يريح أعصابي ويطرد عني تلك الفكرة الحمقاء.

في المصعد وقفت أمام الأزرار شاردًا، ما إن حاولت أن أضغط على زر الدور الأرضي، حتى تحرك المصعد تجاه الدور الأسفل مني وتوقف، بدا أن أحدًا سبقني.

قاعدة المصعد: إن لم تحدد خلال ثلاث ثوانٍ أي دور تقصده، سيجذبك شخص آخر إلى دوره.

فُتح الباب ودلفت هي، جارتي الجديدة، فتاة عشرينية لم تبلغ عقدها الثالث بعد، عيناها واسعتان خضراوان سارحتان، شعرها أشقر مائل إلى الخضرة، بشرتها خمرية فاتحة - ليست بيضاء - وملامحها غير عربية، يحيط بأسنانها سوار تقويم أسنان معدني يعطيها بعض البراءة، تفوح من فمها رائحة التوت البري التي اخترقت رئتَي كالسم اللذيذ. كانت ملابسها رياضية، وعلى ظهرها شنطة بنية اللون رقيقة، برزت من جانبها زجاجة مياه شفافة.

لأول مرة - منذ سنوات - شعرت برغبة في أن أحدِّث شخصًا ما. استجمعت قواي وقلتها بإنجليزية صحيحة، بعدما ضغطت على زر الدور الأرضي مجددًا: - عطر جيد!

رمقتني بعينيها يمينًا ويسارًا، فوقًا وتحتًا. كاميرا مراقبة تبحث عن فأر مزعج لا تراه، ثم قالت بإنجليزية - غريبة اللكنة - حينما فُتح باب المصعد فور هبوطنا: - محاولة جيدة!

وأُغلق الباب خلفها، وأنا داخله.

«عطر جيد!»، رائع أيها الأحمق! أهذا أفضل شيء جاد به عقلك الخرب: «عطر جيد!». لماذا لم تقل لها: «أسانسير جيد!».

راودت الفولفو الخاصة بي لتوصلني إلى «Club 11»، جلست في أكثر ركن هادئ في المكان المزدحم، بعض العاملين هنا يحجزونه لي لأني أدفع لهم بسخاء، العقل البشري يحتاج إلى قدر قيمته ٣٠ ديسيبل من الإزعاج ليفكر بشكل سليم.

كانت تركيبة المكان واحدة، بُني على الطراز الأمريكي، ككافتيريات الطريق السريع في أمريكا، هناك مجموعة من الشباب في عقدهم الثالث، نشطون كألعاب العيد البلاستيكية ببطاريات جديدة، معهم فتيات في لفيف، كأنهم في حلقات ذِكر. لكنها للضحك والدخان، هناك بعض العاهرات قد أتين

مع رجال أعمال أو شباب أثرياء، وطاولة قريبة مني مخصصة لسيدة في نهاية عقدها السادس، لا تغادرها أبدًا، سمينة بعض الشيء، شعرها الأحمر لا يليق مع شكلها العام، دائمًا تغني حينما أجلس إلى طاولتي، تغني لفيروز. أحب فيروز أيضًا، لكني ألعنها بسببها، يمكنها أن تجرب إيهاب توفيق كبديل، لا أعلم!

الأمر يزداد صعوبة، خصوصًا بعد نظراتها إليَّ وابتساماتها، أتخيل إخراجي لسلاحي من ظهري في أثناء غنائها لأغنية «أنا وشادي» وترقيعها لصوتها في المد، وتفجيري لرأسها ليتناثر حولها، أتخيل أن أحدًا لن يبلغ عني.

فكرت في تغيير طاولتي بسببها، لكن هناك بعض الحمقى في الجانب الآخر، يدنسون تلك البقعة بكل الطرق الممكنة: «الحوافي»، ألقبهم بذلك لأن معظمهم ينتمي إلى أسرة تُدعى «الحوفي»، تركوا عمل العائلة في الجزارة وامتهنوا نوعًا آخر من اللحم، اتجهوا إلى صنع أفلام المقاولات الفاحشة، حاولوا تقليد موجة الأفلام التجارية التي تغزو السينما المصرية حاليًّا، لكن لسبب ما لم تنجح الوصفة، فخسروا كثيرًا من أموالهم.

لم أحاول أن أقترب منهم لكثرة سبابهم وعلو صوتهم، لعلي لن أستطيع السيطرة على أعصابي هناك، ورائحة عطور غانياتهم الرخيصة تؤلم جيوبي الأنفية وتمنعني من التنفس طبيعيًّا.

فاجأني النادل مبتسمًا بـ«المكياتو» وبجانبه قطعة شوكولاتة صغيرة، أنا أحب المكان هنا لسبب ما، لن أغيره لأي أسباب أمنية، لا يتبقى لي الكثير، الموت يسأل عن اسمي الثلاثي، يتقصى عن أمري كما يفعل ضباط هوليوود، لا بأس أن تترك حبل المرساة، وتترك للسفينة حرية الحركة في أي اتجاه تشتهيه، إن كان الأمر محتومًا.

أشعلت سيجارة جديدة، أخرجت مذكرتي البيضاء وقلم رصاص شحذت نصله، حصلت على نفَس عميق، تلك اللحظة أبحث عنها دومًا!

بوصفها ضربة استباقية للصداع تجرعت بعض الفودكا والمسكنات، وبدأت في رسمها؛ المرأة ذات العينين المفقودتين، صاحبة الظهور المتكرر في أحلامي. صور متداخلة في رأسي تتلألأ كفلاشات الكاميرا، أراها تحملني في صغري بيمناها، وأحتضنها خشية السقوط. شعرها ذهبي قصير، فتلته بين التموج والجفاف، بشرتها بيضاء، فوها دقيق. تشير إلى الزجاج الخاص بالغرفة، الغرفة تطل على البحر، هناك بضعة مراكب صيد قديمة، تهتز ذهابًا

وإيابًا مع تيار الماء، دراويش صوفية يحركون رؤوسهم بلا كلل، أعود بنظري إلى المرأة - القابعة بذاكرتي - يغطي شعرها عينيها، تلك الخصلة القصيرة، منعت عني كل شيء!

أعود إلى الواقع وأحاول الانتهاء من رسم وجهها، تظهر لي الصورة مكتملة إلا العينين. غافلت جبهتي نقطة تعرق، وسقطت على معصمي، محظوظ أنها لم تلطخ الرسمة، اعتصرت عينَي وعدت إلى ذاكرتي الهرئة، لعلي أجد عينيها في ذكرى نسيتها بين حطام عقلي، لكن ما رأيت هو صورتها وهي غارقة في دمائها في الجانب المظلم من الغرفة، الأرضية الباردة وخط الدماء المتحرك تجاه قدمي الصغيرة. أتذكر صوته حينما باغتني من خلفي: «حاولت أطلَّع الميكروب منها، ما تخافش، هتبقى كويسة، كل الستات فيها الميكروب ده! تعالَ! ما تخافش!».

كلماته ما زالت في رأسي، طريقة قوله ولعابه المتناثر فوق شفتيه، عيناه الخضراوان الصغيرتان المتسعتان عن آخرهما، صرختها الأخيرة! كانت تمتزج بين الرجاء والأمر، تطلب مني أن أركض! تجمدت في مكاني، إلى أن اقترب مني ثم انطلقت تجاه البحر، لا أعلم لماذا!

ما زلت أتذكر وقع أنفاسه وهو يركض خلفي، وانتهاء الأمر بي أمام البحر على اللسان الخشبي، حينها تجمدت مجددًا وهو خلفي، يخفي نصلًا خلف ظهره، المطر ينهمر كأسهم الإنجليز في معركة «أجينكور». وهو يحاصرني في مكان اللامهرب.

«خايف من إيه؟ إنتَ صُغيَّر هتخش الجنة! الميكروب في دمك عشان دمك نفس الفصيلة. إنتَ من دمها».

التفتُّ لأراه عينًا بعين.

وخطوة أخرى إلى الوراء، ظهري للماء. الخوف يملأ صدري، خوفي منه، خوفي عليها مما حدث، خوفي من البحر.

شعرت بانتهاء اللسان الخشبي تحت كعبي قدمَي. أتذكر كلمته الأخيرة: «الميكروب في دمك!».

انقض عليَّ ولكنه تعثر في طريقه وهو يسدد الطعنة فسقط في منتصف المسافة، لكنه جاهد أن يصل بالسكين إلى صدري، إلا أن شيئًا دفعني إلى الوراء. لا أعلم إن كان ملكًا ما، أو شيطانًا يريدني ألا أموت قبل أن أصبح عاصيًا، أو هي غريزة البقاء دفعتني لاإراديًّا، إلا أنني تركت نفسي للسقوط

الحر في ذلك البحر. طعنة سكينه وصلت بالكاد إلى قدمي اليسرى، وغاب السكين في الخشب المبتل ليقطع جزءًا صغيرًا من الإصبع الصغيرة لقدمي. أتذكر كل شيء، حتى طعم الماء المالح وبرودته التي ألهبت جلدي.

أتذكر شهقتي ذعرًا حينما أخرجت رأسي من الماء بعد الغطس. رأيته متأهبًا كالفهد، يجلس القرفصاء يراقبني بحسرة بعدما جرفني تيار الماء من دون أن يطعن عظمي ولحمي.

فتحت عينَي بعدما تعرقت كل جبهتي وزادت دقات قلبي إلى درجة لا توصف، توقفت عن اللهاث، لا بد ألا أترك تلك الذكرى تسيطر عليَّ مجددًا. رأيتهم، كلٌّ في ملكوته في «Club 11»، إلا السمينة لا تزال تراقبني، لكن ظهر على وجهها بعض الذعر.

رمقت السيجارة وإذ هي محترقة بالكامل، مرت أكثر من ثماني دقائق في ذكرى واحدة، يبدو لي أن فقداني حساسية الوقت يزداد يومًا بعد يوم.

مسحت عن عينَي العرق وتجرعت «المكياتو» وإذ به بارد للغاية، لاحظت شابًّا يتسلل واضعًا حقيبة على كتفه، بيده ماكينة حلاقة وأشياء أخرى، يبدو أنه غافل أصحاب المكان ودلف هنا ليبيع منتجه للأثرياء، بدا من ملبسه أنه فضائي في كوكب هبطت عليه مركبته مصادفة، لا تحتاج إلى أن تكون عبقريًّا لتعرف، فقط النظر إلى حذائه المقلد الذي يبدو - أكيدًا - أرخص من أي كوب عصير هنا.

كان شعره ناعمًا ولكنه خفيف، داكن وطويل، فرقَه إلى نصفين، أقسمت لنفسي إنه هو مَن قص شعره، لأن ثمة أخطاء واضحة.

كان نحيفًا، له أنف طويل، وسِنتان كبيرتان، أبيض البشرة، متوسط الطول دائم الابتسام، اقترب مني متسائلًا: - معايا مكن حلاقة ياباني، ومكنة مساج وجوانتي سحري، حاجة كده سنغالي برتغالي، بينضف الكمبيوتر والأجهزة في ثانية، ممكن آخد من وقت أستاذي الغالي دقيقة؟

رمقت السيجارة المحترقة وعدت إليه، حركت رأسي نفيًا، ثم أشرت إلى النادل القريب مني المشغول مع زبون آخر كنوع من التحذير، لكنه حرك رأسه إيجابًا، كأنه يعلم أنهم لو رأوه لأوسعوه إهانة.

تابع مبتسمًا وهو يخرج ماكينة الحلاقة ويضغط على الزر لتعمل، كان صوت أزيزها مزعجًا لعقلي، كأنه صوت موتور طائرة: - أظن إنك محتاج حاجة بالجودة دي!

أمسكت برأس الماكينة لتتوقف عن العمل إزاء أناملي القوية:

- أظن إني محتاج شوية هدوء!

رمقني طويلًا وتلاشت ضحكته. تابع:

- أنا خريج كلية علوم قسم كيميا على فكرة! بصلي بصة صح! قدرني! اتفرج على الشغل ومش مهم تشتري! إنتَ شُفت خامة المكنة بنفسك!

- بافكر أربي دقني!

- فكرة كويسة! طيب إيه رأيك في لمبة يو إس بي؟! افرض النور قطع وإنتَ قاعد بتخلص شغل على اللاب.

حركت رأسي إيجابًا وتابعت:

- هأجل الشغل ساعة.

هممت بإخراج ورقة فئة الجنيهات المائة لأعطيه إياها، لكنه تراجع فجأة وانطفأت ضحكته تمامًا: - مش قلتلك! بصلي بصة صح! أنا ما أقبلش الصدقة يا غالي!

شعرت بأني أحرجته بغبائي وتجمدت يدي في مكانها:

- طيب، أنا هاشتري مكنة الحلاقة.

عاود الابتسام مرة أخرى ملوحًا بيده وهو يبتعد:

- ولا شِرا الشفقة يا غالي!

هناك شيء في رأسي يلح على تفكيري، أكثر من مقدار غبائي، كيف يحافظ على ابتسامته على الرغم من خيبة الأمل؟! فالرجل كان يجب أن يكون عالمًا كيميائيًّا يركِّب مستحضرًا ما مفيدًا لبني جلدته، والآن يعرض أمامي ماكينة حلاقة ثمنها يقترب من ثمن فنجان القهوة التي تجرعتها!

لسبب ما تابعته عيناي وهو يغوص في عمق المقهى، حاول مع السيدة فصدته بشراسة فلجأ إلى الحوافي لسوء الحظ!

أتخيل أنهم قد يصفعونه أو يفعلون معه شيئًا من هذا القبيل، فكبيرهم يمر بأزمة نفسية بعد فشل ثلاثة أفلام متتالية من إنتاجه، والآخر أسوأ منه حظًّا، خصوصًا بعد قبول عقيد شرطة الشهادة ضده، في قضية قتل قد ارتكبها منذ عامين، تخيل أنه من دون كل الشهود يوافق عقيد شرطة على شهادة قد تلطخ بدلة السجن باللون الأحمر القاني!

لم تمر دقيقة حتى تعالت أصواتهم بعد قليل من القهقهة، كنت أعلم أن الكيميائي سيندم بعد أن وضع نفسه في دورق واحد مع الحوافي، لكنني لا

أستطيع وقف تطور تلك المعادلة، «الثريشولد الكيميائي»، هي اللحظة التي يتم فيها التفاعل مهما حاولت منعه!

طلبت الحساب وألقيت النقود في الصحيفة الجلدية وهممت بالرحيل، السمينة ما زالت تلمحني، لربما وجدت في نحافتي الزائدة شيئًا تفتقده، أنا لا أكرهها، لا أكره شخصًا يبحث عن شخص يشاركه وحشة الطريق، لا بد لنا أن نتكئ على كتف شخص ما أمام الطوفان المنتظَر، شخص يمكنك أن تطبق أصابعك الخائفة على أصابعه أمام المشهد الأخير. من المؤلم أن تصعقك النهاية وحيدًا.

أنا لا أكرهها، وأتمنى ألا يكرهني أحد بالمقدار الذي أكنه لنفسي، فقط أكره غناءها أكثر من أي شيء.

في طريقي إلى الخارج ضربت بكفَّي على جيبَي بنطالي باحثًا عن مفاتيح الفولفو فوجدتها، تجرعت بعض الفودكا وفتحت الباب، لم أدلف بداخلها إلا ولفت نظري صورة رفض عقلي أن تمر مرور الكرام؛ الحوافي يخرجون مع الكيميائي مسرعين، يمسك أحدهم بساعده، يشد عليه الحوفي الصغير في طريقهم إلى شارع جانبي، ويدفع شيئًا في ظهر الكيميائي كلما حاول أن يبطئ أو يلتفت، بالطبع لا يمكن القول إن الكيميائي قد عرض عليهم فكرة فيلمهم المقبل الذي سينتشلهم من الخسائر فأرادوا به خيرًا، أو رأوا فيه بطلًا ما فهمُّوا بخطفه قبيل أن يراه منتج منافس ويتلقفه، الأمر واضح، لقد قال الكيميائي الفخور شيئًا ضغط على عصب ملتهب، فقرروا تلقينه درسًا!

جال في خاطري ساعتها أنني للأسف، لن أستطيع مشاهدة المشهد الدامي، الموشك على الحدوث في الشارع الجانبي للمقهى، بل ولن أستطيع التدخل، لربما وجب عليَّ نصحه - لا أعلم - ما يحدث هو جزء من مخاطر المهنة الخاصة به في النهاية! ولا بد أنه قد تعرض له سابقًا.

ارتديت حزام الأمان وأشعلت سيجارة، أطلقت منها في هدوء نفسًا رماديًّا طويلًا وأسندتها إلى المطفأة، داعبت الراديو حتى استقرت الموجة على محطة تشدو بأغنية لبول آنكا. فكرت أنه لا بد أن يكون يوم حظي! نظرت إلى السيجارة، وإذ بربعها قد اشتعل بالفعل، كيف مرت دقيقتان؟ لماذا مرتا بتلك السرعة؟ هل هناك شيء يوترني؟!

قلت لنفسي ساعتها: «اللعنة على الكيميائي! ماذا سيضرني لو التهمه الحوافي حيًّا إذن؟! سأتوجه مباشرةً إلى البيت». كنت أشعر بتعب شديد، كأن

نوبة الصرع قد اقتربت، ولم أكن لأنتظر حتى تضربني وأنا خلف مقود السيارة!

حصلت على نفَس أخير من السيجارة وأطفأتها، تحركت تجاه طريقي المعتاد، تجاوبت معي الفولفو وسكنت أمام مفترق الطرق؛ يمينًا الطريق المؤدي إلى الشارع الجانبي، يسارًا طريق بيتي، دندنت لثانيتين مع آنكا ثم انتهت الأغنية، وقصدت شارع البيت.

لسبب ما عصتني الفولفو وتوقفت، صمتت لبضع ثوانٍ، هناك أغنية سريعة لا أحبها تعبث في عقلي، ضربت بعصا النواقل وإذ بالسيارة تتأهب بالعودة إلى الوراء، دعست بدال البنزين وانطلقت السيارة. وأمام مفترق الطرق استكنت، ثم اخترت الشارع الجانبي، اللعنة على الكيميائي مجددًا!

توقفت بسيارتي في منتصف الشارع، واخترقت إضاءة الفولفو الثنائية الظلمة كاشفةً إياهم.

ثلاثتهم يتناوبون الركل في جسد الكيميائي الزاحف أرضًا، ووجهه يمسح الطين، صوت خبطات مكتومة وصراخ مقطوع، يخرج بصعوبة مصحوبًا بدماء ملفوظة مختلطة بلعاب من فمه الضيق.

كان ممسكًا بأمعائه الممزقة داخليًّا، ومساعد الحوافي يصور بهاتفه ما يحدث، كانت في يسراه سيجارة، وعلى وجهه ابتسامة تلذذ.

انتبهوا للضوء ونظروا تجاهي، واضعين أياديهم على أعينهم، إلا أنني لاحظت الحوفي الكبير يقلب الكيميائي بكعب حذائه بقرف، كان كالمصارع المتقاعد من حيث الشكل، ذا بطن كبير وقميص ضيق، وسلسلة ذهبية كبيرة، أخرج شيئًا لامعًا من بنطاله، لم يعتقد أن عينَي بالسرعة الكافية لتلاحظا ما فعل!

صرخ مساعد الحوافي بعد أن أطفأ هاتفه:

- عميتنا يا ابن الـ...

لم أرد، عاجلني الحوفي الصغير:

- ده إنتَ أطرش كمان!

ترجلت من سيارتي واضعًا يدَي في جيبَي معطفي الجلدي، قائلًا بنبرة هادئة:

- بيتي في نهاية الشارع!

- اطفي النور!

- ده النور الوحيد اللي في عربيتي!

تابع المساعد:

- الشارع ده مشغول، فيه أعمال صيانة. لف من شارع تاني.

علق الحوفي الكبير مخفيًا السلاح خلف ظهره:

- لف وما تبقاش أطرش وأعمى!

صمتُّ لثانيتين وتابعت بالنبرة نفسها:

- قلت ده الطريق الوحيد!

رمق الحوفي أخاه الصغير، وابتسم الأخير، ثم أومأ برأسه إليه قائلًا:

- سلِّم عليه يا ميدو!

ميدو الحوفي! لا يبدو لي أن الاسم يتناسق مع الهيئة! فهو من فصيلة أخيه نفسها. لن أتحمل عراكًا مع رجل بنصف ذلك الجسد الآن.

تابع الحوفي الكبير صائحًا:

- ما تقرصش عليه عشان ما يتكسرش منك في السلام!

اقترب مني لتصبح المسافة مترين، لوح بقبضته في الهواء، تملكني الخوف، حتى الفولفو لم تكن لتصمد أمام قبضة كتلك!

شعرت بدقات قلبي تتسارع، تباطأ كل شيء! وتجمدت قطرات الدماء التي تسقط من فم الكيميائي، كأننا نتعارك تحت الماء، إلا أنني كنت الوحيد، داخل ذلك العراك، الذي يحيطني الهواء!

مال جذعي بحركة غريزية فصفع الهواء، شعرت بتضاغط الهواء وتخلخله بجانب وجهي، سحبت «البريتا ١٩» من ظهري، ولففت بسرعة صافعًا إياه بظهر المسدس فشعرت بجزء من جمجمته يتهشم، أخرجت من جيبي كاتم صوت صغيرًا، كفاءته لا تتعدى الـ٦٠٪ لكنه ينفع في تلك المواقف، بسهولة ويسر لففته حول الفوهة، كانوا لا يزالون لا يرون ما في يدي من قوة الضوء، ما إن اعتدل الحوفي الصغير ممسكًا برأسه الذي سال دمًا، إلا وعاجلته بطلقة في قدمه اليسرى فصرخ، وتبعتها بلكمة فسقط مغشيًّا عليه.

صرخ الحوفي الكبير:

- ميدو!

اقتربت منهما مشهرًا سلاحي في وجهيهما، استجاب المساعد رافعًا يده بعدما ألقى بسيجارته بعيدًا، أمرته أن يهوي أرضًا ففعل، ثم أمرته أن يضع

يديه خلف رأسه، كان يرتعش لكنه نفذ الأمر.

كان الحوفي الكبير في مكانه، لم يهتز، مستندًا بقدمه فوق جسد الكيميائي، وفي يده سكين لامع لم يعد يخفيه. يرمقني بنظرة غضب، على عكس الكيميائي الذي تقهقر بعدها ذعرًا إلى الوراء، واضعًا يده على عينيه مقاومًا الإضاءة كي يراني.

علق الحوفي بنبرة واثقة:

- عارف يا باشا كمية الرتب اللي هتتمنى تجيبلي رقبتك قد إيه؟

ثم بصق تجاهي، وأخرج هاتفه محاولًا طلب رقم ما، لسبب ما كان يظن الحوفي أني ضابط، تابع وهو يحاول أن يرى مصير أخيه على الرغم من ضوء الفولفو الساطع: - عملت إيه في ميدو؟!

عاجلته بنبرة هادئة:

- أخوك هيعيش.

وضع الهاتف على أذنه متابعًا:

- اللي ورايا لو عرف، إنتَ مش هتعيش يا باشا!

- بتحاول تهددني؟

- لو تعرف مين اللي واقف قدامك، مستحيل تسأل السؤال ده.

صوبت فوهة المسدس نحوه قائلًا:

- صلاح الحوفي! متهم بجريمة قتل من الدرجة الأولى! المجني عليه ممثل صاعد تمت تصفيته من سنتين في طريق مصر إسماعيلية الصحراوي، إضافةً إلى الشروع في قتل بائع أجهزة متجول، بتمُر بفترة عدم اتزان نفسي بسبب خساير السينما، وخساير قضية القتل! قدامك دقيقة تنفي التهم عن نفسك.

أنزل الهاتف، واتسعت عيناه وهو يحاول أن يرى وجهي على الرغم من الضوء. تساءل بنبرة بها بعض الذعر: - مين بعتك؟!

انتظرت قليلًا ثم أنزلت ذراعي، واقتربت حتى رأى وجهي:

- ملاك أسود! شافك بالصدفة.

قهقه، ثم قال بلهجة أكثر حدة:

- إنتَ مش ميري. كان لازم آخد بالي!

- هتفرق معاك الطلقة ميري ولا استيراد؟

- تمنك كام؟

- هتدفعلي فلوس؟

- أقدر أشتري أي ابن و...!

- هاعرض عليك منتج، لو اشتريته هتنتهي الأزمة.

- اعتبرني اشتريت، وخلي اللي بعتك يكلمني، واللي عملته ده هتتحاسب عليه!

اخترقت ثلاث رصاصات صدره.

جثا على ركبتيه ممسكًا بمكان الطلقات في جسده، خرجت الدماء من فمه، تعالت أصوات أنفاسه المتقطعة نتيجة اختراق الرئة، كان ينظر إليَّ غير مصدق، كأني سرقت منه شيئًا ما. تابعت: - كسبت المنتج بالمجان! خصم ١٠٠٪على أربع طلقات.

تابعت:

- نُفِّذ حكم الإعدام بواسطة المحكمة صفر!

عاجلته برصاصة أخيرة في رأسه، فسقط صريعًا.

اتجهت إلى صاحب الهاتف المستسلم أرضًا، فبدأ في البكاء رعبًا، فككت كاتم الصوت بصعوبة لحرارته، اللعنة عليَّ! أصبحت أضعف من أن ألمس مسدس «بريتا» إذ استخدمته.

انفجر النحيف - مساعد الحوفي - في الترجي المختلط بالبكاء، كانت كلماته غير مفهومة لكنني فهمت أنه يظن أني سأتخلص منه.

طلبت منه بطاقته والهاتف، ناولني إياهما، مسحت الفيديو واحتفظت بالبطاقة في جيبي.

رمقت الكيميائي الذي بدأ في الاعتدال رامقًا إياي بنظرة رعب مماثلة، سألته: - تعفو عنه؟!

حرك رأسه إيجابًا، فعدت إلى المساعد قائلًا:

- على الرغم من انطباق المادة رقم «٤٠» عليك، بوصفك شريكًا غير فاعل للجريمة، فإنه قد أُعفِيَ عنك! سيتم تتبعك في حالة التحدث عن واقعة اليوم أو إدلائك بأي معلومات!

ناولته الهاتف بعد أن نظفته من بصماتي، فزاد بكاؤه وهرب راكضًا.

نظرت إلى الكيميائي ثم إلى جسدَي الحوفيين، أشرت إليه ليعطيني بطاقته، ناولني إياها متأثرًا بإصابته، تظاهرت بحفظ بياناتها، ثم أعدتها إليه قائلًا: - نفس التعليمات! وابقى خد الفلوس اللي في محافظهم كتعويض بسيط، بعد ما تاخد الفلوس ولع في المحافظ بعيد عشان بصماتك، واطلع على المستشفى، غالبًا عندك نزيف داخلي.

ثم أطبقت على معطفي:

- انتهى!

رجعت إلى السيارة، تنهدت طويلًا، ثم أدرت المحرك وهممت بالرحيل، لكن الباب فُتح بغتة.

بحركة غريزية أشهرت سلاحي، لأجد الكيميائي مترنحًا، ممسكًا بأمعائه، سمح لنفسه بالدخول من دون إذن. حسنًا! بدأت أشعر بالندم، كان يجب عليَّ قتل الحوفيين بعد أن أعطيهما فرصة لإنهائه!

أغلق باب الفولفو ماسحًا الدماء عن فمه، ثم نظر إليَّ طويلًا، كان سلاحي لا يزال مصوبًا نحو رأسه. قال بصوت خافت: - شكرًا!

نظرت بعيدًا بعد أن سمحت لعضلات ذراعي بالارتخاء:

- البوليس هيوصل في أي لحظة!

تابع:

- أنا مش مصدق إنك قتلته!

لم أرد عليه، صمتُّ لبرهة ثم أشعلت سيجارة، علق مجددًا وبعينيه تلك اللمعة، لمعة معجب بموسيقى الروك يصافح «بون جوفي»: - بس بعد اللي إنتَ قلته عنه، يستاهل!

أخرجت نفسًا طويلًا وتساءلت بعد أن غلبني الفضول:

- استفزيتهم إزاي؟!

ابتسم ساخرًا، ثم تابع ببعض القلق متلفتًا حوله، كأنه يخشى أن يكتشف شخص ما ما حدث: - كنت بابيعلهم الجوانتي السحري بتاع التنضيف، واحد منهم بدأ يفرفش ويهرج، حطه في مناخيره وقالي ينفع أنضف بيه مناخيري!

حركت رأسي إيجابًا ورفعت حاجبَي، يبدو لي أني فهمت ما حدث بعد ذلك. عاجلته: - وقلتله!

حرك رأسه إيجابًا مقهقهًا:

- أيوه! قلتله ممكن تنضف بيه كل فتحات جسمك!

انفجر ضاحكًا وتأوه من شدة الألم، ثم توقف عن الضحك، لا بد أن ثمة ضلوعًا مكسورة فيه. تنهدت طويلًا قائلًا: - اتعلم من اللي حصل! دلوقتِ أنا محتاجك تخرج من عربيتي.

- أنا مش هاخرج غير لما أتكلم معاك يا غالي!

- إنتَ بتخترق مركبة خاصة بدون وجه حق! لو قتلتك مفيش تُهَم ضدي!

- إنتَ ظابط سابق؟!

- ما تحاولش تستجوبني!

- عايز أشتغل معاك.

حصلت على نفَس جديد وعاجلته:

- عندنا عمالة كفاية!

- أنا موافق أشتغل بالمجان، تحت التجربة! أنا ما أعرفش إنتَ مع مين، بس إنتَ ما بتقتلش بدون سبب! كلامك كأنك قاضي أو وكيل نيابة، مش عارف!

ضغطت على بدال البنزين لتخترق الفولفو الهواء، وتنغلق الأبواب أوتوماتيكيًّا، كان يجب الابتعاد قبيل وصول الشرطة.

استقر المطاف بي في شارع على بُعد سبع دقائق من المكان، لم أتفوه فيها بكلمة واحدة، أبطلت المحرك وأشعلت سيجارة أخرى، تلقفت أمعائي كبسولتين من المسكن لمقاومة الصداع المشتد. قلت وأنا أنظر أمامي: - المكان هنا أمان أكتر، قدامك ستين ثانية تخرج، يا إما هاعتبر إني ما عديتش من الشارع اللي كنت هتموت فيه، والأحداث هتبقى بأثر رجعي، فاهم قصدي؟!

- أنا باصصلك بصة صح! مش إنتَ الراجل اللي تقتل بدون سبب! إنتَ ما تعتمدش الكلام ده!

أدرت رأسي ناحيته مقطبًا حاجبَي، لا أعلم لماذا شعرت بالانزعاج من كلمات تبدو مديحًا، شددت أجزاء سلاحي قائلًا: - ما تراهنش بكل فلوسك على رد فعل شخص قابلته من دقايق!

ثم أشرت بإبهامي تجاه المنطقة التي كاد يلقنه فيها الحوفي أقسى درس في حياته.

حرك رأسه تفهمًا، وأومأت برأسي بدوري، لكنني بدأت في مقاومة شعور بالتوتر لا أعلم مصدره، قضمت أجزاءً من شفتي السفلى كعادتي - حين أفكر - حتى إني بدأت أدميها، منتظرًا أن يرحل من سيارتي، نظر إلى باب السيارة، وعاد إليَّ قائلًا: - أنا كل اللي باطلبه منك إنك تدلني على الطريق! افتحلي الباب اللي يعرفني طريق الناس اللي شغال معاهم! الباب مش أكتر!

رمقته طويلًا، حتى ظن أني أفكر في الأمر، ثم ضغطت على زر فتح القفل المركزي لترتفع أزرار قفل بابه وتصدر صوتًا أوتوماتيكيًّا، أشعلت المحرك ثم أشرت بوجهي إلى الباب المجاور له، فابتسم ابتسامة قصيرة تقطر خيبة أمل، قال وهو يفتح الباب، محاولًا محاولته الأخيرة: - أنا مش عديم المنفعة!

ألصقت المسدس في رأسه قائلًا:

- بعد عشر ثواني هتبقى!

غادر السيارة، لكني شعرت أن شيئًا ليس على ما يرام، كأن دقات قلبي تتسارع فجأة، سال أنفي دمًا، وارتعشت يداي وخارت قواي تمامًا. شعرت بأن السيارة تتحرك بي، بالفعل وجدت قدمي تدهس بدال الوقود من دون إذني، وأن شخصًا ما يتسحب خلسة في الكرسي الخلفي، استدرت برأسي لأراه ليظهر لي أن لا أحد معي في السيارة، لقد كانت النوبة!

سقط «البريتا» من يدي، حاولت باستخدام ذراعي اليسرى أن أرفع ذراع الفرامل اليدوية كي أوقف حركة الفولفو، لكن بلا فائدة. صدم رأسي المقود ليصدر نفيرًا، وبدأ كل شيء في الاختفاء.

هناك قاعدة مهمة في فيزياء أفلام الكارتون لا أنساها: حينما تهبط شخصية فوق شيء مدبب، شوكة أو سيف مثلًا، فإنها ترتفع في الهواء ألمًا بمقدار المسافة نفسها التي سقطتها، وتعيش بعد ذلك، لا أحد يموت في تلك الأفلام. أعلم أنني لو سقطت فوق سيف ما سيخترق لحمي، لو فقدت الوعي في سيارة متسارعة ستنفجر بي وتتهشم، لن توجد مخارج سريالية لي تلك الليلة، ستتحطم الفولفو بي وتحترق.

بدت ليلة جيدة للموت.

سقف آمالي يقترب من الصفر دائمًا، يساعدني ذلك على الاستمرار. لا ضرر في كوني متشائمًا، لأن المتشائم لا يفكر عادةً في حصد روحه، لكن هذا لا يكفي في بعض الأوقات.

هناك جملة قرأتها في مجلة كوميكس أمريكية، كان شخص ينسبها إلى الملاك الأسود، أو ملاك الموت: «نهايتك قد تكون دائمًا أكثر إبداعًا مما تتخيل!».

الطريقة التي مات بها هتلر، القذافي، هذان يمكنك أن تتخيلهما ماتا في معركة ما. ما حدث كان غير ذلك.

سمعت عن مغتصب أطفال في الولايات المتحدة كان سكيرًا، سقط في حوض من الأسمنت في محيط بيته. مات متجمدًا ولم يلاحظ أحد ذلك، الغريب أنه لم يكن يعمل أصلًا في البناء!

كنت أعلم أن نهايتي كانت لتبدو غير منطقية! يبدو لي أن القدر يعمل عكس المتوقع دائمًا.

الأمر الآن...

انتبهت!

أنا في سيارتي الفولفو يسيل لعابي على المقود، أشعر بمزيج معتاد من الإجهاد والألم، يلي كل نوبة، بدا لي أن محرك السيارة لا يعمل، على الرغم من أني أتذكر أن آخر شيء حاولت فعله هو محاولة يائسة لمنعها من الاصطدام و... هناك شخص ما بجانبي.

لقد كان الكيميائي، يرمقني بتلك النظرة الغريبة، ممسكًا بسلاحي في يده.

قلت لنفسي: «رائع! ماذا الآن! هل سيفجر رأسي أم يطعمني برصاصة في أمعائي؟!».

مد يده بالمسدس، فأصدر صوتًا معدنيًّا، رجفت للحظة لاإراديًّا ظنًّا مني أنه ضغط الزناد، لكن الحقيقة أنه كان يناولني إياه.

أمسكت بـ«البريتا» وعدلت أجزاءه ودفنته في ظهري قائلًا: - أنا طلبت منك تمشي!

- كنت هتعمل حادثة موت. العربية كانت بتتحرك وأنا جريت و...

قاطعته:

- اسمع! أنا مش مديونلك عشان طفيت مفتاح الكونتاك أو عشان ما قتلتنيش! بالعكس، لو عملتها هاكون مديونلك!

- مفيش ديون يا غالي، بس إنت محتاج حد يساعدك في الشغل!

أشعلت سيجارة أخرى بيد مرتعشة، أحتاج بضع دقائق للملمة أعصابي بعد النوبة، حصلت على نفَس قائلًا: - أنا ما باشتغلش.

- دي نوبة صرع؟

رمقته طويلًا وحصلت على نفَس جديد، أومأت إيجابًا ليتابع: - أنا شُفتك بتدوَّر على حد. زي ما يكون جوه العربية، بس مش موجود.

- كان المفروض تمشي من غير ما تراقبني. خلي عندك كرامة!

أشاح بوجهه بعيدًا، شعرت أنني تماديت في لهجتي معه. تابعت بعدما هدأت: - مفيش حد، دي بداية النوبة.

- مش فاهم!

تنهدت طويلًا واسترسلت:

- الناس اللي بتجيلهم النوبة الصرعية، بيحسوا بيها قبل ما تبدأ؛ فيه ناس بتشوف الدنيا بتلف بيهم، ناس تانية بتشم ريحة أو تحس بطعم غريب، ناس بتشوف خيالات، أو أشباح. الجهاز العصبي بيمر بمرحلة من عدم الاتزان قبل صرع الفص الصدغي.

- أول مرة أسمع الكلام الكبير ده.

تنفست مجددًا من سيجارتي وأردفت:

- نوع نادر من الصرع بيأثر على تكوين الذكريات والإبداع والإحساس بالزمن والإدراك.

- بتحصلك كتير؟

- هتفرق معاك الإجابة؟!

- أقصد إنها ممكن تحصل في موقف أخطر من ده! مش شرط شغل!

لملمت قبضتي مقاومًا بعض ألم العضلات وتابعت:

- مفيش مواقف أخطر من الشغل!

- آمين، إنتَ لسه قاتل راجل كان هيقتل...

- انسَ الموقف! عايزك تعتبر نفسك محظوظ! اعتبر إنك... كسبت عرض الجمعة السودا، تصفية آخر السنة، أوفر استثنائي ما بيتكررش ومش هيتكرر. قتل الحوفي ما كانش أكتر من مصادفة!

- إنتَ متأكد إنك هتبطل شغل؟

ألقيت السيجارة وحصلت بعدها على بعض الفودكا - حرقت معظم خلايا بلعومي - ونظرت تجاهه بوجه ممتعض قائلًا: - هابطل حاجات كتير خلال

شهور!
حرك رأسه إيجابًا، كأنه فهم ما أريد قوله، ثم ناولني كارتًا شخصيًّا له رديء الصنع، قال قبيل أن يغادر السيارة: - اسمي «سمير»، بس على الكارت «سميروفيتش» زي ما صحابي بيقولولي، كيميائي غضبان من المجتمع، ومرفوع عليَّ قضية طلاق ومتفرغ للمساعدة، لو بصيتلي بصة تمام اتصل بيَّ!
حركت رأسي إيجابًا مرتين واستوقفته قبيل أن يختفي: - استنى!
ترددت قليلًا وتابعت:

- شكرًا.

ابتسم مجاملًا محركًا رأسه، ورحل.
انطلقت بالسيارة ثم قلبت الكارت يمينًا ويسارًا، بالطبع لن أسمح لشخص مثله أن يتجرع من الكأس التي تجرعت منها، لا يوجد ثمة ملائكة وشياطين في مهنة المستشار التي امتهنتها، سيكره كل شيء حينما يحصل على المستهلك الأول، سيتمنى أن يعود شخصًا ما في الزحام! هذا لو لم تمزقه رصاصة طائشة.
نزل زجاج السيارة فصفعتني أمواج الهواء بينما تتحرك سيارتي على سرعة المائة كيلومتر، رميت الكارت من الزجاج ولم أتأكد إن كان قد سقط خارجها أم لا.
دلفت إلى الكومباوند، وقصدت شقتي، فتشت عن الخووخ، لعله يجلس واضعًا قدمًا فوق الأخرى، ينتظر أن أغفو لينقض على عنقي بآبنيا الاختناق! ألقيت بجسدي على أريكة بدت قريبة. لن أذهب إلى المترو الليلة، ولن أذهب أبدًا. لا حاجة لي أن أعرف مَن المستهلك الجديد، أنا متعب أيها الخووخ! من كل شيء. يمكنك أن تُجهز عليَّ الآن، جسدي يؤلمني، كذلك روحي. الدوار يلف بي في دوائر سريالية، كما قلت لك، أنا متعب!
اللعنة عليَّ!

٩:١٩ صباحًا، اليوم التالي

عدلت من وضع السماعة التي تلتف حول أذني اليسرى، وتابعت - مخاطبًا فداء - بينما أرمق فيلمًا وثائقيًّا قديمًا على الشاشة: - الوقت نسبي، تصعد إلى صاروخ ما يحاكي سرعة الضوء، تودع توأمك وداعًا حارًّا، وتبدأ رحلتك بين المجرات، لكن عندما تعود تجده وقد تغيرت ملامحه، أصبح شعره أشيب وتأثر

وجهه بالزمن، على العكس تبدو أنت، بوجه لا يزال ينضح بنضارة الشباب في المرآة، لأن الوقت تباطأ معك، وظل كما هو معه. «تمدد الوقت»، هكذا وصفها أينشتاين.

تنهدت طويلًا وتابعت:

- لكن أينشتاين أخطأ في نظري، ليست سرعة الضوء فقط هي ما تبطئ الوقت، نسي أن يذكر الخوف، وضحايا منطقة الـ«SMG».

انتهى الفيلم الوثائقي الذي يناقش النظرية النسبية، حولت المشهد إلى قناة الراديو الخاصة بفداء، بدأتْ تضم الكوب بين كفيها متسائلة: - تتحدث عن منطقة في المخ أليس كذلك؟!

- تبهرينني كالعادة!

- لكن ما علاقتها بالوقت؟

ترددت أن أشرح الأمر، لكنني أردفت:

- الأمر بدأ بتجربة حدثت في العام ٢٠٠٧، أحضر العلماء متطوعًا، المتطوع يقف فوق بناية، يشير إلى العلماء بعلامة مغزاها «كل شيء على ما يرام»، يطبق شيئًا فوق عينيه، شيئًا كنظارة الغوص لكنها سوداء، بداخلها شاشة، الشاشة تعرض أكثر من أربعين صورة في الثانية، العين البشرية ترى نحو ثلاثين صورة فقط في المتوسط، إلا في بعض الحالات الخاصة قد تصل إلى أعلى من ذلك. تبدأ التجربة، ويسقط المتطوع سقوطًا حرًّا، لكنه لا يموت بالطبع، قبل أن يصطدم بالأرض تنقذه شبكة ما صُممت خصوصًا لتحميه. النتيجة: يرى المتطوع ٣٩ صورة. السبب: الخوف، جعل من ثانية السقوط شيئًا مختلفًا، لتصل إلى تأثير عدة ثوانٍ، انظري إلى الأمر بمنظور آخر! - أعني - يمكنك أن تقيسي الأمر في حياتك الطبيعية، الأوقات الجيدة تمر سريعًا، والصعبة تمر كالدهر، يبدو أن الجسد يستجيب لذلك، ويبدو لي أن إصابتي النادرة، أنا وغيري من غير المحظوظين - في منطقة بين «الهيبوكامبوس» والـ«SMG» - قد أثرت في عدة أشياء، أهمها إحساسنا بالوقت، واستجابة أجسادنا له.

- هل الأمر مؤلم بالنسبة إليك؟

- الأمر صادم أكثر منه مؤلمًا! بالنسبة إلى رجل فقد إحساسه بالوقت أصلًا، أعترف أن الأمر يصبح مسليًا في بعض الأحيان، فرجل مثلي لا يمتلك ساعة بيولوجية نتيجة الورم، سيصبح الوقت بالنسبة إليه أمرًا سرياليًّا بحتًا، دقيقة الخوف كالساعة، أو أكثر. رجل مثلي سيلتهمه الوقت، على الرغم من استفادتي منه!

- وهل تفسر الأمر بوصفه ميزة أو عيبًا؟!

- لا أعلم فداء! من الناحية الطبية هو بالتأكيد مأساة، أن تشعر بأن ثمة مجموعة من الخلايا الدخيلة تنمو في رأسك، ومن الناحية العملية، لقد أنقذتني كثيرًا استجابة جسدي للوقت! هل تؤمنين أن الوقت يمكنه الاحتيال؟

- لا أفهم السؤال!

- أعني أن الوقت لديه القدرة على الاختيار، «يزاور»، كما وصف القرآن أشعة الشمس حينما اخترقت الكهف ولم تصب النائمين.

- ماذا تحاول أن تقول أستاذ «X»؟

- الآن أطلقتِ عليَّ اسمًا جديدًا، لا بأس! يمكنني تقبل ذلك، أحسدك على بداهتك!

- وأنا أحسدك على لغتك العربية، لكنني لا أفهم ماذا تحاول قوله عن الزمن.

- لا أعلم، يبدو لي أن الزمن يختار، ليس «نسبي» فقط كما وصفه أينشتاين، هناك مناطق في الفضاء مثلًا يمر فيها الزمن بأضعاف سرعته الحالية، أو أقل منها، حتى داخل الإنسان، يمر الوقت بتقويم مختلف، النائمون مثلًا يفقدون إحساسهم بالوقت، لكن أجسادهم تتأثر بالوقت، هذا زور أيضًا.

- ماذا عن الأحلام؟ سمعت أنها أقصر مما نتخيل!

- أطول حلم يراه النائم لا يتعدى في معظم الأحوال إحدى عشرة ثانية! لكنه يراه يومًا. وآخر يظن نفسه نام ساعة، لكنه نام يومين، هذا نوع آخر من الزور، ما حدث لي من ورم - بطريقة ما - ضغط على السلك الصحيح، صنع من تقويم الوقت لديَّ شيئًا مختلفًا، أؤمن أن هناك أشخاصًا لديهم الهبة نفسها، لاعبو كرة، فنانون، عداءون مثلًا.

ظهر أمامي على الشاشة فيديو للاعب قصير يراوغ عدة لاعبين بيسر وسهولة، كأنهم يتحركون تحت الماء، وهو ليس كذلك. ردت فداء بعد صمت طويل: - هل تظنهم جميعًا يمتلكون الورم نفسه؟ في المكان نفسه؟!

- لا، لربما فقط استجابتهم للخوف مختلفة، أو كما قلت هناك شيء يضغط على الزر الصحيح في أدمغتهم، لا أتمنى لشخص أن يتعذب نوع العذاب نفسه الذي أتجرعه.

- آسفة لسماع الأمر! لكن - اسمح لي - الأمر يبدو كشيء خيالي.

- وماذا لو لم يكن الأمر محض خيال؟

تراجعَت إلى الخلف وتنهدت طويلًا محاوِلةً تصديقي، ثم تابعت: - لو كان ما تقوله حقيقيًّا، سيتمنى الكثير من الأشخاص أن يحصلوا على القوة نفسها التي تملكها!

- على أي حال، لا أعتقد أن رجلًا مثلي يستحقها.

- ولماذا لا تستحقها؟

صمتُّ طويلًا ثم أردفت:

- لديَّ صديق يقول لي دائمًا إن الله خلق رجلين، رجلًا للجنة، والآخر لجهنم.

- وأي نوع من الرجال أنت؟

كنيسة «سان جوزيف» للآباء الفرنسيسكان

شتاء ٢٠١٤

أمام صورة كبيرة، لقديس يرتدي زيًّا بنيًّا فاردًا كفيه، وهو «مار فرنسيس»، مؤسس الرهبنة الفرنسيسكانية، وقفت شاردًا، أمامي شمعة مستقرة على نتوء رخامي بارز من الإطار المحيط بصورة القديس، لملمت شعري الأشقر الطويل برباط مطاطي، رائحة العبق الفائح من الشمعة البيضاء تشبه نسيم الربيع.

كانت الكنيسة من الداخل أشبه بمتحف فني كبير، بها رخام إيطالي أبيض لامع بدرجاته، لامع إلى درجة يمكنك أن ترى انعكاس وجهك فيه، نقشت صلبان من الأعمدة الرخامية نفسها فوق كل عمود، فيما نُقش رأس العمود بلون زيتي مميز.

كل شيء هنا صُنع من الرخام والخشب، ولسبب ما كان المزيج مميزًا. لقد كانت كنيسة أثرية، بُنيت في نهايات القرن الثامن عشر على يد مهندس إيطالي.

هناك صوت كورال فتيات يتدربن على ترنيمة ما في غرفة مجاورة، رمقت

غرفة الاعتراف على مدى بصري، ورأيته يدلف بداخلها، وقفت امرأة سبعينية بجانبي، ورسمت صليبًا على كتفيها وهي تنظر إلى صورة القديس. ابتسمت لها وقررت المضي تجاه الغرفة نفسها.

كنت أنا الأول، دلفت إلى الجانب الأيسر منها، هناك حاجز خشبي نُقشت عليه صلبان صغيرة جعلت من رؤية الشخص لمن يحاوره مهمة شاقة. همس لي بصوت هادئ: - سلام المسيح! الاعتراف في المكتب، أنا داخل هنا عشان أقعد لوحدي!

اعتذرت بنبرة الصوت نفسها:

- آسف قداستك! أنا أول مرة آجي هنا!

- اعتذارك مقبول!

صمت طويلًا ثم تابع همسه بينما يحاول رؤية وجهي:

- وشك غريب على الكنيسة! كنت عايش بره مصر؟

- باين عليَّ يا أبونا؟

- مجرد توقع.

- لا مش توقع، قداستك عرفت بطريقة ما. كتير بيتكلموا عن بركتك!

- كتير مخدوعين فيَّ!

- تواضعك ليه معنى كبير! كنت طمعان في كرمك أعترفلك هنا، حلني يا أبونا!

تنهد ثم بدأ يتمتم ببعض الكلمات قائلًا:

- تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين وأنا أريحكم!

همست معلقًا:

- كرم قداستك مش هانساه!

- هاحتاج منك تخش في الموضوع، عشان ما أتأخرش.

- أنا خالفت تعاليم المسيح، حتى تعاليم العهد القديم خالفتها.

- إحنا بشر يا ابني! المسيح عارف إنك هتغلط.

- حتى لو بشر، فيه حاجات غصب عني مش قادر أغفرها لنفسي، ما بانامش الليل، مهما عدى عليَّ وقت.

رأيته من الفراغات يُخرِج مشطًا خشبيًّا صغيرًا، يمشط به شعره القصير الناعم، لقد كان يعاني زيادة بسيطة في الوزن، عيناه ضيقتان تحيط بهما نظارة نظر صغيرة، وبشرته بيضاء. بدا لي خمسينيًّا.

- إيه التعاليم اللي إنتَ خالفتها بالظبط؟!

- الوصية السادسة!

توقف عن تصفيف شعره، تحول إلى تمثال ثابت من هول الصدمة، ثم أشاح بوجهه تجاهي بنبرة أكثر حدة: - عملت ده إمتى؟!

- هتبلغ عني؟

- مفيش أب يخون سر المسيح!

- بس أنا أستحق الموت!

- ربنا اللي يدين ويقرر مين يموت ومين يعيش، مش إنتَ!

- أنا باموت في اليوم ألف مرة! ما هو ده قراره.

- اسمك إيه؟!

- يهمك اسمي ولا خطيئتي؟ أنا نفسي أرتاح!

- بعد الاعتراف هترتاح.

- ولو ما ارتحتش؟!

صمت وتنهد طويلًا وحاول أن يرى وجهي من خلال الحاجز، تابعت بعدها: - أنا قتلت أخويا! ضربته على راسه مات، كنا لسه مراهقين، كنت ساعتها عشرين سنة.

سقط المشط من يده، أحدث بعض الضجيج، رسم صليبًا على كتفيه ونظر إلى سقف الغرفة، ارتسمت على وجهه علامات ضيق، كأنه يفكر في شيء ما، ثم نظر تجاهي كأنه أيقن الأمر، ابتسم بعدها ابتسامة هادئة قائلًا: - مين باعتك؟ وليه يبعتوك هنا لما هم عارفين خط سيري؟! لا حل ولا بركة لو ما قلتش!

أخرجت من ظهري مسدسًا بلاستيكيًّا، وأوصلت بفوهته كاتم صوت بلاستيكيًّا، عاجلته بينما أصوب المسدس نحو رأسه خلال الحاجز الخشبي: - خلي الحل والبركة على جنب يا أبونا! السلاح اللي في إيدي ملحد!

- مش هاسمحلك تتكلم معايا بالأسلوب ده!

- أغضبتك؟

- الغضب ما بيعرفش طريق لقلبي بسهولة!

- بس بيعرف أكتر من طريق لقلبي!

حرك رأسه إيجابًا وأردف بعدها:

- قاومه! بأمر الرب.

- حتى الرب بيغضب!

صمت طويلًا وداعب صليبه قائلًا:

- إنتَ مش مسيحي!

- هيفرق معاك ديني؟

تنهد قائلًا:

- ليه ما تنهيش الأمر؟!

تراجعت عن تصويب مسدسي تجاهه وعدلت من شعري قائلًا: - سألتني عن اسمي، أنا رامي عبد الملاك، ده اسمي العلماني، هنا في الكنيسة اسمي «الأب ماكسيموس»، اتخرجت من طب ودرست في كلية اللاهوت، لحد ما بقيت زي ما أنا!

- محفظينك المعلومات كويس؟!

- ليه قتلته؟! وإزاي قادر تعيش بعد اللي حصل؟!

داعب لحيته القصيرة قائلًا:

- لو يهمك تعرف، أنا عشت أيام طويلة وصعبة.

- «ولو لم يقصر الرب تلك الأيام، لم يخلص جسد!».

حرك رأسه إيجابًا، وتابع بصوت هادئ مداعبًا الصليب الذي في يده: - أنا اعترفت للرب واتغفرلي، لو أنا شاكك للحظة ما كانش يتسمحلي أكون في مكاني هنا! ولو قلقان أوي على موضوع إزاي قادر أعيش، فأنا عايش عشان منتظر أقابله. أنا محتاج أعتذرله!

- وأنا أقدر أرتب المقابلة دي!

- لو جاي هنا عشان تودّيني السما، صدقني، هاصليلك، مش هازعل منك!

نظف نظارته بمنديل وتابع:

- المهم تكتم صوت الطلقة، عشان شعب الكنيسة ما يتخضش.

- لو أقنعتني إنك بريء، أنا أقدر أسيبك تعيش.

- الكذب خطيئة كبيرة، عايزني أرتكبها عشان أعيش؟

تنهدت طويلًا، وصمت قبيل أن أتابع:

- في شغلانتي، باشوف حاجات غريبة في اللحظات اللي زي دي: قسم، رجاء، دموع!

تغيرت نبرة صوته إلى نبرة رجل يقاوم دموعه:

- لو هابكي بالدموع على شيء هابـ... هابكي عليه هو! مش هابكي عشان أعيش يوم زيادة.

نظر إليَّ ومسح دموعه قائلًا:

- أنا قلتلك كل حاجة يا ابني! مفيش داعي لتأجيل الأمر لو نويت.

- ليه بتحسسني إنك مش ندمان؟! إنتَ بشر في النهاية.

- لو فيه راجل واحد ندمان في الدنيا هيبقى أنا.

- ليه قتلته؟

- هتحتاج تلبس صليب لو عايزني أعترفلك!

ابتسمت ولوحت بسلاحي قائلًا:

- ده مش مصنوع من الخشب، بس هو اللي أنا محتاجه دلوقتِ!

- ومع ذلك حاسك متردد!

- الموت شيء صعب لما بيكون قرار!

- أنا مش خايف من الموت.

- خايف من إيه؟

صمت وطأطأ رأسه لثانيتين، قاوم تحشرُج صوته بشجاعة بالغة قائلًا: - خايف لما أسلم عليه ألاقيه لسه زعلان مني.

- لو بتحبه للدرجادي أذيته ليه؟

- مش هيفيد بشيء تعرف!

- كل واحد فينا أدرى بقوانين اعترافه يا أبونا!

- مش هاجاوب على سؤالك.

صوبت السلاح نحو رأسه قائلًا:

- أنا كده معنديش أي اختيارات.

أغمض عينيه قائلًا:

- أشكرك! ولو إني كنت أتمنى أتنيح زي رأفت بالظبط، كان نفسي أحس بنفس عذابه!

- أنا راجل رحيم في النهاية، عمري ما ضربت راجل على دماغه بحديدة!

انتبه واتسعت عيناه. عاجلني:

- مين قال إن رأفت مات بالطريقة دي؟!

- اللي دفعوا!

- بس أنا عمري ما أنكرت عشان يكذبوا! رأفت لما دفعته في الخناقة الملعونة، وقع على الأرض، راسه خبطت في حديدة، مات في الحال! لكن تتقطع إيدي لو رفعت عليه شيء! كانت مجرد خناقة بسيطة لأن صوته علي على المقدسة: أمي!

صمت مجددًا وتمتم:

- يا ريتني كنت مت قبل اليوم ده يا رأفت!

لكنه اعتدل وقال بنبرة قوية:

- اسمع يا ابني! مش هيفيد رأفت راح السما إزاي. أنا متحمل مسؤولية كل شيء! نفِّذ اللي جاي عشانه!

- أنا ما باخدش أوامر!

- لا أأمرك! نفِّذ مهمتك! ما تضيعش وقتك ووقتي! خليك قد المسؤولية!

- مش هتقدر تستفزني!

- إنتَ خايف يا ابني؟

- الخوف إني أقتلك أبطأ!

- كل واحد بيشيل آلامه! إنتَ جيت هنا تدوَّر على القاتل، القاتل قدامك! اضغط ع الزناد! خليك شجاع في الحق!

- إنتَ عديت الخط!

شددت أجزاء سلاحي وأردفت:

- وأنا قررت أنهي عذابك يا أبونا!

بارك نفسه برسم الصليب مجددًا وابتسم، ثم نظر إلى السماء مستبشرًا، تمتم ببعض الآيات.

بعدها بعدة ثوانٍ صدح صوت لثلاث خبطات مكتومة من داخل غرفة الاعتراف الخشبية. ساد بعدها صمت تام!

خرجتُ بعدها من غرفة الاعتراف أخبئ سلاحي خلف ظهري مسرعًا في خطواتي. مررت أصابعي بين خصال شعري وابتعدت ذائبًا بين المصلين.

ما إن اقتربت من باب الخروج حتى أعاد عقلي ما حدث.

رأيت انعكاس صورته على زجاج الباب في طريقي للهرب، يبحث عني بين الجميع.

ثلاث خبطات مكتومة حدثت داخل غرفة الاعتراف!

كان مصدرها قبضة يدي التي صفعت الخشب مرارًا من غضبي، قبل أن أعترف له أنه بريء!

وقد نما لعقيدة المحكمة أن المتهم قد اضطر إلى القتل الخطأ دفاعًا عن أمه، وأنه بريء براءة النبي موسى الذي انتصر لبني جلدته، فإن كانت براءة الثاني منطقية عند وكزه الرجل، فإن براءة الأب ماكسيموس واجبة حينما دفع أخاه انتصارًا لأمه. انتهى.

العودة إلى الحاضر

١٠:٤٢ مساءً

اخترق صوت أنثوي شرودي الذي بدا قصيرًا، هناك مزيج ضوضائي حولي، لا بد أنني في سوق ما، رائحة أطعمة وأصوات ماكينات الحساب، صوت احتكاك

عجلات عربات التسوق المعدنية مع موسيقى رتيبة في الخلفية. أضواء بيضاء متداخلة. يبدو لي أنني هنا لأشتري شيئًا! ويبدو أيضًا أنني منعت عن إحداهن فرص الوصول إلى منتج ما.

أعادت الجملة:

- محتار للدرجادي في نوع الشيبس؟!

- آسف!

- إنتَ بقالك بالضبط أربع دقايق!

نظرت ناحيتها، امرأة ثلاثينية، أمامها عربة ممتلئة بشيء من كل شيء، جذابة، ذات شعر أسود قصير، ترتدي بنطالًا جينز من النوع الواسع.

- أربع دقايق؟!

- ما حسيتش بيهم؟

حركت رأسي نفيًا. لتضيف:

- جرب النوع اللي بالملح، بنص التمن. نوع كويس كنت باشتريه من لندن، هاستأذنك هاجيب لنفسي أنا كمان.

تنحيت جانبًا فحصلت لنفسها على كيس كبير، لكنها لم تكن طويلة، فأسقطت برطمانًا زجاجيًّا كان في الصف المجاور لأكياس الشيبس، التقفته في طريقه إلى السقوط، رمقتني بتلك النظرة. انتظرت ثانيتين وتساءلت مبتسمة: - رد فعل سريع!

حركتُ رأسي إيجابًا ببعض التردد، ثم ابتسمت نصف ابتسامة، عاجلتني: - هو إنتَ بتشتغل إيه؟

رددت بصوت هادئ:

- أكيد استنتجتِ إني باشتغل في سيرك!

قهقهت وداعبت شعرها مردفة:

- لو السيرك قريب هاجي أتفرج!

مددت يدي مصافحًا إياها، فترددت وفعلت المثل:

- شهاب، رجل أعمال.

تابعت بدورها:

- دينا إسماعيل، صيدلانية، بس باصرف من فلوس بابا!

ابتسمت مجاملًا، ثم تابعت:

- وبتنقذي الرجالة السرحانة قبل ما يموتوا قدام الرفوف!

ضحكت مجددًا، حصلت لنفسها على عدة أكياس من رقائق الشيبس، هممتُ بالرحيل لكنها تساءلت وهي تدفع عربتها - الممتلئة بالأكياس - في اتجاه حركتي نفسه: - وإيه بقى نوع البيزنس بتاعك يا شهاب؟

تذكرت الغول وأنا أدفع رأسه في الحوض والحوفي والدماء تخرج من فمه، في عالم موازٍ، كنت لن أفوت تلك الفرصة، فتاة جميلة ومتعلمة مثل تلك، كنا لنستقر معًا، نبني أسرة ما، نخبر أحفادنا عن البرطمان الزجاجي الذي صنع منا عاشقين. لكن للأسف، لا تجري الحياة بتلك الطريقة في عالمي.

- بابيع منتج.

- باسأل كتير أنا. صح؟

- ده حقيقي، بس حاجة كويسة إني باتكلم معاكِ.

- عاجباني صراحتك!

ابتسمتُ لتتابع هي:

- مش عايز تكلمني عن المنتج؟

- لأ! بس أقدر أكلمك عن المستهلك.

- ماله المستهلك؟

- بيشتري المنتج مرة واحدة.

- للدرجادي منتج سيئ؟

حركت رأسي إيجابًا وابتسمت، ما لبثت أن تحولت ابتسامتي إلى ضحكة، لم تتمالك نفسها وضحكت أيضًا وفي رأسها بضعة أسئلة، لكنها تابعت حينما اقتربنا من منطقة الحساب: - مش غريبة إنك مش متحمس للمنتج اللي بتبيعه؟

- مش كل المنتجين بيكونوا بنفس صراحتي.

- بالطريقة دي صعب أثق في أي حاجة باشتريها.

- فكري كمستهلك عادي وهترتاحي!

صمتت لثانيتين بينما نحن ننتظر دورينا في الحساب وأردفت: - وإنتَ مش عايز ترتاح من التفكير؟

رمقتها طويلًا قبل أن أجيب:

- عقلي بيرتاح بالحقيقة.

ضحكت نصف ضحكة تقطر بكثير من السخرية:

- أنا حاسة إنك بتكبر الأمور!

نظرت إليها بجمود، شعرَت بالحرج وعاجلتني:

- أنا آسفة إني اتكلمـ..

قطعت حديثها:

- الشيبس اللي اشتريتيه عليه عرض عشان بخمس أضعاف سعر المنتج العادي، وفترة صلاحيته باقي فيها أيام، غالبًا هترمي نص الأكياس اللي دفعتِ تمنها!

بدأت تقلب في الأكياس لتظهر أمام عينيها الحقيقة، التي لاحظتها في أثناء التقاطي الكيس من يدها، استطردتُ: - مفاتيح العربية اللي في إيدك عليها علامة «فورد»، في سنة ١٩٧١ الشركة صنعت عربية عائلية، فيها عيب قاتل في خزان البنزين، ممكن يحولها - حرفيًّا - لقنبلة، تصليح العيب احتاج حداشر دولار لكل عربية تم إنتاجها. الشركة عملت إحصائية لتكلفة إضافة القطعة مضروبة في الـ٣٢٨ ألف عربية اللي أنتجوها، وقارنوها بالتعويضات المحتملة في حالة الوفيات، ورفضوا إضافتها، تُسعميت شخص ماتوا محروقين أو في حوادث مختلفة، من ضمنهم أطفال. التقرير اللي عملته فورد اتسرب للإعلام سنة ١٩٧٣!

فغرت فاها قائلة:

- إزاي عرفت كل ده؟!

تابعت متجاهلًا وفي ذهني صورة لي بينما أقلب في بضع صور تسويقية على الإنترنت بها طفلتان ترتديان زيًّا قيمًا: - الشنطة اللي في إيدك نوعها «بلانسياجا»، الشركة بتروج للتحرش الجنسي بالأطفال من سنين، في صور كتير نازلة على المواقع الترويجية للشركة، مستخبي في التفاصيل أخبار وتلميحات عن حوادث تحرش واغتصاب حصلت بالفعل، لسه السبق ما وصلش للإعلام، خلال شهور هتسمعي عن الموضوع.

رمقت شنطتها مقطبة حاجبيها هامسة لنفسها:

- هو إنتَ مين بالظبط؟!

بعد بضع ثوانٍ أجبتها:

- مجرد حد عنده وقت يدوَّر!

حاولت قول شيء لكنها تراجعت، تغيرت معالم وجهها لتصطنع ابتسامة، كأني قلت لها قصة فيلم مخيف، بدأت في التخلص من نصف كمية الأكياس

وعلقت: - خوفتني! برافو عليك!
ابتسمت مجاملًا، لم أحاول أن أقنعها بأنني أقول شيئًا حقيقيًّا.
أعجبني إصرارها على متابعة الحديث على الرغم مما قلت، تابعت هي رافعة حاجبها: - إنتَ مش سهل خالص!
انتهينا من دفع الحساب، سلمت عليَّ مودعة، وهي ترمقني بالنظرة نفسها: - شوف، رغم فيلم الرعب ده، بس أنا باجي هنا كل أسبوع في نفس اليوم، باحب أعمل شوبينج بنفسي، لو احترت هتلاقيني!
كان من الجلي أني أعجبتها على الرغم من صراحتي ونحافتي الزائدة، لكنني لم أكن أحمق إلى درجة أن أكسر قلب فتاة جميلة كتلك، لربما جرح صغير الآن سينقذها من كسر لا يمكن إصلاحه.

- أنا مسافر للأسف خلال أسابيع!

- بره القاهرة؟ ولا بره البلد؟!

فتحت فمي، أردت أن أقول الحقيقة، لكنني تراجعت، قلبت عينَي حولي في المكان، لم يأتِ عقلي برد أفضل من هذا: - بره الكوكب!
تلاشت ضحكتها تدريجيًّا، ظنت أني أسخر منها، حركت رأسها إيجابًا، ودفعت عربتها مبتعدة.
لو تعلمين يا دينا أني لست بكاذب!
اللعنة عليَّ!
في طريقي إلى المنزل، الذي يبعد ثلاثة كيلومترات عن المتجر الكبير داخل «بيفرلي»، لاحظت مطاردة بين سيارتين إحداهما البورش الحمراء اللعينة، كنت أمشي بسرعتي المعهودة مرتديًا معطفي الأسود الطويل، تبرز من تحته الحمالة الحمراء التي طالما أنقذت بنطالي كلما فقدت كيلوجرامًا آخر، آكل رقائق الشيبس التي اختارتها لي، أتخيل كم السباب الذي تكيله لي الآن.
ما إن اقتربت من بنايتي حتى لاحظت عمود الإنارة العطب، الذي يطلق فلاشات متسارعة، أعتبره علامة لشقتي معظم الأوقات. على الجانب الآخر من الشارع كانت هي، الفتاة الأجنبية ذات الشعر الأشقر المائل إلى الاخضرار، أتذكر كيف صنعت من نفسي أحمق أمامها في المصعد، كانت تتريض بلباسها القطني واضعةً سماعتين في أذنيها، تركض تجاه البناية، لكن البورش الحمراء كانت قد عادت، بمفردها تلك المرة، بسرعة تقارب الـ١٤٠ كيلومترًا، ولسبب ما كانت على وشك دهس الفتاة!

كانت تترنح يمينًا ويسارًا مصدرةً صريرًا مخيفًا، تجمدت الشقراء في منتصف الشارع، تنتظر مصيرها، لقد كان الأمر جليًّا؛ السائق مخمور، والفتاة تحولت إلى تمثال من هول الصدمة.

وعليَّ أن أشاهدها تموت.

تسارعت دقات قلبي.

وتباطأت فلاشات العمود العطب.

لا أعلم كيف، لكنني أخرجت مسدسي البلاستيكي من ظهري، وتركت لكيس الرقائق حرية السقوط، وتابعت البورش الحمراء تقترب رويدًا منها.

وأطلقت النار مرتين على إطارها الأمامي، قبيل عشرة أمتار فقط من دهس الفتاة.

انفجر الإطار، وأصدر صريرًا أعلى من سابقه، انحرفت البورش وأخطأت الفتاة، التي التفتت إلى صوت الطلقة فرأتني واقفًا هناك، أصوب سلاحي تجاهها. ارتطمت البورش بعمود إنارة، وانطلقت الوسادة الهوائية وصوت نفير متصل من داخلها.

نظرت إليَّ الشقراء مجددًا فلم تجدني.

فلتحيَ الفتاة.

ولتذهب احتياطات الأمن إلى الجحيم!

إمضاء رجل ميت.

٤
أتذكر غضبي، لا الوغد!

يقولون إن على المنتقم أن يحفر قبرين قبل أن يبدأ رحلته، أفكر دائمًا في مساحة الأرض التي أحتاجها، لتحوي مساحة المدفن الذي يتخيله رأسي.

٦:٥٢ صباحًا

انتبهت!

لا اختناق! لا شبح يمسك برقبتي. العرق يغمرني، عقرب الثواني يتحرك بمنطقية أمامي.

داعبت رياح باردة وجهي، وحرقت أشعة الصباح قرنيتَي، لقد نسيت النافذة مجددًا، مهلًا!

اعتدلت بغتة، وبحثت عن سلاحي البلاستيكي، وجدته بجانب السرير فأخرجت خزنة الرصاص، هناك أكثر من رصاصة مفقودة!

قلت لنفسي: «حسنًا، لقد فعلتها! هذا ليس بحلم».

حاولت اعتصار ذاكرتي كثيرًا، كأن هناك عضلة ما يجب أن أضغط عليها بقوة لأتذكر، وبطريقة ما، يقع الورم بين راحتَي العضلة، فبدأ أنفي بالنزيف.

هرعت إلى النافذة. هناك ضرر في عمود النور القريب من بنايتي، وزجاج مكسور!

الأمر الآن...

لقد أيقنت أني أطلقت النار على إطار سيارة، وقبلها بأيام قتلت الحوفي «الكبير» من أجل بائع ماكينات حلاقة زائفة! فكرت أنه لم يعد لدى المحكمة مبرر لعدم وضعي على قائمة المستهلكين، لا بأس في ذلك، أنا ملعون على أي حال.

وقفت طويلًا أشاهد رسومات المرأة التي تراقصها الرياح فوق حوائطي، هناك بضع صور تهاجم عقلي؛ صور لذلك المجنون الذي طاردني بسكين، صورتها وهي غارقة في دمها، قفزي في الماء البارد، صور لشاب ذي ملامح شامية، رأسه مهشم إثر عيار ناري. قاومت كل شيء، حاولت أن أشغل نفسي بتفكيك سلاحي حينما رن هاتفي بصوت تنبيهي، صوت أعلمه جيدًا، لقد لاحظت حساسات الحركة شيئًا ما، أمسكت بسلاحي واقتربت من الباب رويدًا، وضعت إصبعي على العين السحرية للباب، لم يفجر أحد إصبعي، كانت

بداية مبشرة. بترقب حاولت النظر خلال العين نفسها، لم تظهر أمامي أي حياة!

فتحت الباب على مرحلتين، رائحة التوت البري، لقد كانت هنا!

كان هناك شيء على الأرض، سلة بها بضع لفافات من السوشي!

لماذا قد ترسل إليَّ فتاة أجنبية لفافات من السوشي وورقة؟! هناك كلمة «شكرًا» بالإيطالية!

حسنًا هي إيطالية، تحب السوشي، هذا ليس سيئًا كبداية.

أمرت الماكينة الخاصة بي فجادت عليَّ ببعض القهوة، تجرعتها وأنا أراقب السلة، ثم اقتربت منها والتقفت لفافة بحذر، حاولت مضغها فلم أستسغها، لكني ابتلعتها على أي حال.

٩:٥٨ صباحًا، اليوم نفسه

مرتديًا قفازي الإلكتروني وسماعتي، وقفت أمام الشاشة أداعب بضعة ملفات وصورًا خاصة باغتيال جون كينيدي، ومقالًا عن معاداة كينيدي للسامية، ثم مقالًا أبله يتساءل: «مَن قتل كينيدي؟!».

كان التلفزيون مفتوحًا على قناة «ألفا» التجارية، إعلانات مستهلكة لا أشتهيها، لكن إعلانًا لفت نظري من بينها: «هل مللتِ من الحشرات المزعجة؟!...».

خبر وفاة استباقي، يحسبه الغافل إعلانًا عن مصيدة حشرات، لسبب ما أذاعت المحكمة الإعلان مرتين متتاليتين في أقل من أربعة أيام، فكرت ساعتها أن هذا شيء لا يحدث كثيرًا، هل تواجه المحكمة أزمة بسبب زيادة عدد الطلبات؟!

اخترت قناة الراديو على الإنترنت في التلفزيون، لتظهر أمامي فداء، منهمكة في حوار، نظارتها السوداء القاتمة، وبقع النمش على وجهها اللامع، اقتربت من الشاشة ولامست وجهها برفق، ثم طلبت رقم الراديو من هاتفي، فاجأتها: - مرت فترة طويلة!

باغتها شهيق طويل فضحها، كانت تحاول إغراق شعور ما أراد أن يطفو من فيها بتلك الشهقة، ظهرت على وجهها بوادر ابتسامة منعتها بصرامة مصطنعة: - أفترض أنك المجرم!

- أفترض أنكِ لم تنسي نبرة صوتي!

ترجمت ذات الصوت المعدني كلماتي إلى الألمانية، ردت هي:

- يقولون إن العقل البشري يمكنه تخزين ذكريات العالم كله بداخله.

- لا بأس بذلك، لكن المشكلة تكمن في الحفاظ عليها سليمة.

- الحفاظ عليها سليمة؟! ولماذا قد تتغير الذكريات؟

- ولماذا لا تتغير؟!

مطت شفتيها وتابعت:

- لأننا نتحدث عن أشياء حدثت بالفعل، لا يمكن تزييفها، أليس كذلك؟

- وجهة نظر جيدة! لكنْ للأسف هناك أسباب كثيرة يمكنها العبث بالذكريات، مثل التلاعب بالعقل الباطن، عن طريق مؤثر خارجي مثلًا، أو آخر داخلي.

- مؤثر داخلي؟!

- «تأثير مانديلا» كمثال.

- لا تحاول إقناعي بأن الأمر أيضًا مؤامرة.

- لا مؤامرة! مجرد خلل بسيط، لكنه مشترك.

- مشترك؟! ماذا تقصد؟!

- هناك الملايين أقسموا إنهم شاهدوا جنازة مهيبة له في الثمانينيات، مع أنه خرج من السجن وتولى رئاسة جنوب أفريقيا ومات ٢٠١٣، وغيره كثير! البقرة الضاحكة في إعلان الجبن المطبوخ مثلًا. يعتقد الكثيرون أنها ترتدي قرطًا في أنفها، إلا أن القرط غير موجود.

- مهلًا! هناك قرط في أنف البقرة الضاحكة!

- غير صحيح، لقد أكمل عقلك الأحجية، شيء يُدعى «تأثير زيجارنيك»، يُستخدم كثيرًا في الإعلانات بالمناسبة - على أي حال - لو تخيلنا أن الذكريات هي أشرطة فيديو، فإنه لحسن الحظ وللأسف معًا، يمكن للعقل البشري تعديل تلك الأشرطة، بالطريقة المريحة بالنسبة إليه.

- لكنها حالات فردية، أليس كذلك سيدي المجرم؟

تجاهلت وصفها المتكرر لي بـ«المجرم» وتابعت بعد الترجمة إلى الألمانية:

- قلت لك للتو إنه مشترك! يونج، تلميذ فرويد - وعلى عكس أستاذه - تحدَّث عن شيء يُسمى «اللاوعي الجمعي».

- تقصد أن أشخاصًا عديدين، قد يطورون الخلل نفسه في استرجاع الذكريات؟

- بكل تأكيد! لو طبقنا «تأثير مانديلا» على ضحايا الهولوكوست مثلًا، أو الصراع العرقي في رواندا، أو مذابح البوسنة والهرسك، يعاني جميعهم أشياء مماثلة من جراء الصدمات التي مروا بها، لذلك حاول بعضهم إنشاء متاحف، أو نصب تذكارية لتخليد بضع ذكريات خشية تحريفها، هناك نصب تذكاري أقامه مسلمو البوسنة لعلبة طعام تحمل شعار الأمم المتحدة، سخريةً منهم من المساعدات التي كانت تلقيها عليهم الأمم المتحدة في أثناء القتل - الذي شاركت فيه الأمم المتحدة نفسها بطريقة غير مباشرة - وللسخرية، كانت العلب تحوي لحم خنزير، في الوقت نفسه الذي يظن جيل كامل من المدنيين الصرب أن المجزرة لم تحدث، وأن ما حدث هو دعاية أمريكية تستهدف أمن بلادهم وسمعتها. هذه الحرب صُورت، تخيلي ما لم يُصوَّر!

صمتت طويلًا حتى بعد ترجمة إيما لحديثي، ثم تنهدت قائلة:

- صدقني، لا أعلم ما يجب أن أثق به في هذا العالم!

- ثقي بأن شيئًا لا يحدث مصادفة! العائلات تحاول تغيير كل شيء، كل الذكريات، بما يناسب مخططها! هناك شركة رسوم متحركة، تحقق خسائر قياسية بسبب وضعها محتوى جنسيًّا منحلًّا للأطفال في إنتاجاتها الجديدة، وعلى الرغم من ذلك تستمر في تنفيذ خطتها، مَن برأيك يدفع ثمن تلك المليارات الضائعة؟!

- العائلات مرة أخرى!

- وللمرة الألف!

- لا أعلم إن كان ما تقوله هو الحقيقة.

- تبدو لي الحقيقة كالنهر، وأن ثمة أشخاصًا يقفون على جانبيه، وكلاهما يشعر أن الجانب المقابل غير منطقي.

- وعلى أي جانب تقف أنت؟

- الإجابة واحدة في الحالتين! أليس كذلك؟

- أو أن عليك العبور للجانبين.

- سأفعل ذلك!

- ماذا تقصد؟

انتظرت لثانيتين، ثم أغلقت الخط ورمقت سلاحي وملابسي، لقد قررت الأمر: لا بد أن أعلم لمن تقرع الأجراس مرتين!

سأذهب إلى محطة المترو.

وسأعلم مَن هو المستهلك الجديد.

٥:٢٢ مساءً

التحفت جاكيت جلديًّا قديمًا لي، وقصدت مترو محطة المعادي. كانت الشمس المخضبة في مرحلة الاحتضار حينما سقطت خلف بنايات المعادي. الرياح الباردة تتسلل من خلال نافذة الفولفو، تصفف خصيلات شعري الفضية ثم تنثرها. لسبب ما قتلني الفضول لمعرفة المستهلك الجديد، لماذا قد يقتلونه وما سعره؟ هل يمكنني إنقاذه ودفع غرامته؟ هل يمكنني تحذيره قبل أن يحصد الملاك الأسود روحي؟

دلفت إلى عربة المترو الأخيرة، ولحسن حظي كانت فارغة على غير عادتها، قصدت الكرسي الخاص بأصحاب الهمم، وجدت رجلًا سمينًا يجلس عليه، يقلب في هاتفه الرخيص منكبًّا عليه، بدا الهاتف صغيرًا للغاية بين أصابعه حتى إنني أشفقت عليه.

رمقني بهدوء بعدما حرك رأسه صعودًا ليراني، كانت عيناه حمراوين، عاجلته: - الكرسي ده للمعاقين!

نظر حوله قائلًا بصوت أجش:

- ما تقعد في أي كرسي! المترو فاضي!

- الكرسي محتاج صيانة!

ابتسم ساخرًا:

- سهل أقول من شكلك، إنك مش مهندس صيانة!

صمتُّ طويلًا وتابعت بنبرة هادئة:

- وأنا سهل أخلي قعادك ع الكرسي ده قانوني!

نظر إليَّ طويلًا، ثم ضحك نصف ضحكة مكتومة، وقام بعيدًا ملقيًا بعض السباب، تجاهلته، كنت أستحق السباب نوعًا ما.

جلست بالكرسي المجاور للكرسي المطلوب، أخرجت هاتفي وفتحت تطبيق سوق «ألفا» - نسخة المستشارين - ومررت الهاتف تحت الكرسي ليصدر صوتًا قصيرًا كإشعار، احتاج الهاتف بضع ثوانٍ ليكتب اسمي التجاري «إنجيلز مان» أو «رجل الملائكة» كما لقبني دانيال. كان يبدو أن أحدًا لم يصل إلى المستهلك قبلي، لأن اسمي كان نشطًا وكُتب قبيل فيردو ووغد يسمي نفسه «فلاد» وباقي قائمة المستشارين الآخرين، بعد وهلة ظهرت الصور والملف الخاص بالمستهلك؛ كان خمسينيًّا سمينًا، سمينًا إلى درجة تجعل الرجل الذي عفا عني للتو موديل ملابس سباحة بالنسبة إليه، هناك تكتلات على رقبته من الشحم، عيناه خضراوان جاحظتان خارج محجريهما، ويعاني الصلع، ملامحه قوقازية ولكنها غير مريحة، خرتيت بشري لم أجهله، يعكس وجهه بعض الخسة. سألت نفسي: «مَن هو؟!».

كانت هناك صورة أخرى له وهو يدخن سيجارًا وعلى حِجره فتاة غربية الملامح، وأمامه طاولة كبيرة بها بعض الأشخاص، لا راحة حينما تنظر إليهم. زجاجات الخمر في كل مكان، وبقايا الطعام الفخم المتناثر، يذكرني بتجار المخدرات الروس فاحشي الثراء.

لسبب ما شعرت بغضب فج، ورغبة مُلحة في التقيؤ، لا شيء يمكن شرحه سوى هذين الإحساسين المتداخلين، هناك شيء يعلمه عقلي عن هذا الوجه السيئ، يعلمه جيدًا لكن يأبى أن يطلعني عليه.

غضب يعتصرني كلما قلبت الصور تباعًا، أقسمت إني أعرف ذلك الوغد جيدًا! لا أتذكر اسمه، لا أتذكر متى قابلته، لكنني شعرت أنني أتذكر شيئًا أقرب إلى الإحساس منه إلى اليقين... أتذكر غضبي، لا الوغد!

وشخص ما تسلل عن يساري، كأنه يغافلني، انتبهت والتففت لأواجهه، لكنه اختفى!

بعد التأني وجدت السمين غارقًا في هاتفه، هناك سيدة وابنتها غارقتان في حديث حاد.

باغتني الصداع.

إنه الخووخ!

بسرعة جاهدت عضلاتي المتيبسة وحاولت الاقتراب من الكرسي، لكنني فشلت قبيل خطوة، إنه وقت الرقصة المؤلمة! قلت لنفسي: «مرتين في الأسبوع نفسه! اللعنة!».

جلست بصعوبة أرضًا، وبدأت يمناي في الارتعاش تدريجيًّا، حتى أصبحت أرجوحة لا تهدأ، تشنجت عضلات وجهي وخرج الزبد من فمي. لا يفترض بي أن أفقد الوعي في الصرع الجزئي، لكنني شعرت برغبة جمة في الانهيار.

وقد فعلت!

انتبهت!

أنا ملقى على الأرض. يبدو لي أن النوبة كانت أقوى من مثيلتها، السيدة وابنتها تحدثانني، حركت رأسي إيجابًا وجاهدت لأعتدل على مرحلتين! هناك عجوز لم أره، حينما دلفت إلى تلك العربة، يرمقني بحدة واضحة.

شكرت السيدة ولملمت شتاتي، سألت نفسي: «ماذا يحدث؟ هل وصل الورم إلى نهايته؟ هل أنا على وشك دفع ذلك الباب الذي أخشاه؟ ماذا يوجد خلف الباب؟ عذاب بلا نهاية؟ ما نوع العذاب الذي قد يفوق ما أشعر به؟!».

حاولت تنظيف هندامي من العفرة والطين، لقد كان الألم يعتصر عضلاتي، كنت أشعر أني قد أتيت من قتال شوارع للتو، قتال لم أكن فيه من الفائزين.

فكرت بعدها في معاينة الأضرار:

ما زلت حيًّا.

لا توجد كسور واضحة، لربما كدمة أو اثنتان. لم أبلل سروالي إثر النوبة.

لم أُسرق، توقعت أن يُسرق مالي أو حتى ملابسي، أو حتى حذائي المسلح الذي ارتديته للمرة الأولى منذ عدة أشهر.

لم أعض لساني.

كنت محظوظًا نوعًا ما، وأن ذلك العملاق لم يستغل النوبة ليهشم عظامي، لم يفكر حتى في البصق عليَّ!

لا أعلم لماذا قفز إلى بصري مشهد رأيته على ناشيونال جيوغرافيك، لفيل يمر متجاهلًا تمساحًا أحمق، كان يطبق فكيه على جذع شجرة ظنًّا منه أنه فريسة، والتف به وتلوى ثم تركه وعاد إلى النهر حينما أدرك أن الجذع غير حي.

لقد أيقنت لحظتها أن النوبة تباغتني أسرع مما يجب، وبدا لي أن عقلي يريد أن يخبرني بشيء ما، شيء ما غير جيد، لكنه غير موهوب في إفشاء الأخبار السيئة، كان يجب أن أعيِّن الكيميائي، قلت لنفسي ساعتها: «اللعنة عليَّ! لقد رميت بطاقته التعريفية من النافذة!».

ترنحت يمينًا ويسارًا، ثم زحزحت جسدي حتى وصلت إلى الكرسي الذي سقطت من فوقه حينما رأيت العجوز المتلصص، تناولت حبتين من مثبطات الألم، أغلقت البرطمان بمعجزة، ثم أخرجت زجاجة الفودكا الصغيرة، وصوبت جرعتين إلى بلعومي لتنزلق الحبتان إلى مستقر لهما، وتنفست حتى هدأ قلبي.

مسحت عن جبهتي بضع قطيرات من العرق بكُم معطفي، ثم أخرجت الهاتف وفتحت الشاشة، ظهر أمامي وجه الوغد الذي تريد المحكمة تصفيته.

الآن تذكرته!

تذكرت كل شيء.

منذ أربع سنوات ونصف

مترو دبي، محطة مدينة دبي للإنترنت

تلك الرائحة، شيء مثل رائحة تعقيم غير زكية، تفوح في محطات المترو الذكية للغاية، اخترت اتجاه الراشدية ودلفت إلى عربة غير مميزة كنت قد عددت ما قبلها بعناية، كانت العربة المنشودة، كان معظم الحضور آسيويًّا، ما عدا أنا وشابًّا ذا ملامح شامية وآخر من شمال أفريقيا، وأخرى بدت كسائحة في عقدها الرابع.

انطلق القطار كالطلقة، تسارُعه القوي أعاق توازني، حتى التقفت يدي ذراع منعتني من السقوط، لمحت كرسي «ذوي الهمم»، على غير الحالة في دول كثيرة، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، فالكاميرات في دبي لا تنام.

لفت نظري أن ذلك الشامي قد جلس بالقرب من الكرسي المنشود، كان أنيقًا للغاية، شعره ذهبي وعيناه خضراوان غائرتان في محجريهما، يرتدي بدلة رمادية وقميصًا أبيض علق في ياقته نظارة «بوليس» غالية الثمن، كان قصيرًا بالنسبة إليَّ، لربما بوصة أو اثنتين، يصغرني بعقد أو أكثر قليلًا.

تركت مكان وقوفي واقتربت منه متظاهرًا بهروبي من الزحام، انحنيت لربط حذائي الذي فككته عن عمد، وضعت هاتفي أسفل الكرسي حتى أيقنت أن شاشته التقطت شيئًا ما، كل شيء كان على ما يرام، لكنني شعرت أن

شيئًا ما على وشك الحدوث، لا يمكنني تجاهل هذا الإحساس في أمعائي، مهما حاولت.

ما إن هممت بالرحيل حتى صدقت أمعائي؛ حادث عرضي، يحدث مرة كل ألف مرة، وكانت تلك المرة الواحدة بعد الألف. قدم طائشة من أهوج ركض ناحية الباب حينما تباطأ القطار عند المحطة التالية، طار الهاتف، وبدا لي من الصوت أن شاشته هُشمت، تتابعت الأقدام فوقه، لاحظت الهاتف بصعوبة يستقر بجانب قدمَي الشامي، قصدته طالبًا إياه، التقفه، ثم مد يده بهاتفي مبتسمًا، لكنه رمقني بنظرة حادة: - إذا بِدَّك تحكي الواد الفلبيني احكيه! لأنه كسرلك الشاشة.

تناولت الهاتف منه، شكرته، ثم عاجلته بينما أضع الهاتف في جيبي حتى لا يرى الملف الخاص بالمستهلك: - مجرد حادث!

استوقفني حينما هممت بالرحيل:

- ليك! ما حتى اطلعت في الهاتف! شوف الشاشة يا إكسلانص!

لا أعلم لماذا ينطقها بـ«الصاد»، لكني تيقنت أنه مغرم بالأفلام المصرية القديمة. عاجلته: - غير مهم!

تجاهلته وهممت بالرحيل، لفت نظري إصراره، فكرت في ذلك من دون أن ألتفت إليه، راقبت الباب ينفتح، ثم استدرت برقبتي لرؤية تعبيرات وجهه، وتلك كانت الغلطة!

لقد رسم تلك الابتسامة المخيفة على وجهه، ساعتها فهمت ما يحدث، كم كنت غبيًّا!

ترجلت من العربة قاصدًا الهروب بأقصى سرعة، فالأمر أصبح أكثر وضوحًا؛ إنه هنا من أجل ما قدمت من أجله!

في عالم المحكمة تعيش كذئب وحيد، تتكلم لغة لا يعرفها الكثير، وتحدث الأزمة حينما تجد شخصًا ما يجيدها!

كنت قد أيقنت الأمر ساعتها من دون أدنى شك، لقد كنت أحادث مستشارًا ما! وهو الآن خلفي مباشرةً!

تابعت هرولتي. لم يكن ينبغي أن أعطي ظهري له في تلك اللحظة، لكنها دبي في النهاية، هو أجبن مِن أن يفعل شيئًا هنا، فالسؤال في دبي حينما يتعلق بالأمن لن يكون: في أي ساعة وصل الأمن، بل، في أي ثانية؟

صاح الشامي من خلفي وأنا أذوب بين الزحام:

- المعلومات أهم من الشاشة مو هيك؟

تجاهلته وتابعت، لكنه كان يذوب مثلي كلما غافلت جمعًا ما، يصل إليَّ في كل مرة أسرع فيها، فكرت ساعتها أن ذلك الأحمق، سيتسبب في قتلنا جميعًا، أردت أن أعود إليه وأخبره بأنني هنا من أجل الفضول أكثر من فكرة الحصول على مستهلك بدلًا منه، بأنه لن يتحمل السجن هنا، حتى أنا، لن أتحمل لكمتين متتاليتين بجسد نحيف مثل ذلك، والأكيد أن المحكمة لن تتركنا على قيد الحياة في السجن أكثر من ثلاثة أيام، لديهم رجال في كل مكان.

تابع صائحًا وهو يشق طريقه بين الأكتاف:

- بتعرف شو بيقولوا لو اتقابل اثنين مستشارين مصادفة؟

رددت بصوت مسموع:

- المستهلك إلك! ما بِدِّي إياه!

أعادها مرة أخرى بصوت أعلى:

- شو بيقولوا لو اتقابل اثنين مستشارين مصادفة؟!

وتبعها بأغبى قرار قد يفعله قاتل هاوٍ في مترو دبي، شد أجزاء سلاحه البلاستيكي الذي لا تكشفه أجهزة المسح.

للأسف! تحركت عدسة كاميرا المراقبة تجاه السلاح المدلى من يده، تابعناها أنا وهو بلحاظ مرتعدة... توقفت عن الهرولة، بدأت الناس تمر عن يميني وعن شمالي، تصفع كتفَي أكتافُ أشخاص في عجلة من أمرهم. تخيلت أنه توقف هو أيضًا، وبلع ريقه بصعوبة بعدما أيقن أن ما فعله سينتهي نهاية مؤلمة.

كنا في محطة المركز المالي، أجريت الحسابات في عقلي، رمقت الكاميرات حولي في ممر الخروج، بدا الأمر مستحيلًا للحظات، سيحتاج الأمر إلى أربع دقائق على أقصى تقدير لتتحرك الشرطة تجاهنا، ونصف هذا الوقت لتغلق المخارج الخاصة بالمحطة، حتى لو ركضنا لن نخرج قبل وصول الشرطة، حتى لو قفزنا فوق كل الحواجز ودفعنا كل مَن في طريقهم إلى الخروج؛ بدت لعبة خاسرة!

تجمدت في مكاني. تمر الثواني وأنا في تفكير عميق، شعرت بخطوات المارة تتباطأ، هناك طفل يقذف طائرة ورقية صنعها من ورق مقوى، تباطأت

الطائرة أمامي في الهواء، شيء واحد صرخ به عقلي: «افعل شيئًا!».
ثم... رأيت الحل.
أشرت بإصبعي بعلامة «رقم واحد»، وصحت من دون أن ألتفت ردًّا على سؤاله:

- بيرجعوا واحد.

تابعت:

- لو اثنين مستشارين اتقابلوا بيرجع واحد فقط، بس هلَّا ما حدا راح يعود! قدامنا حوالي مائتي ثانية!

خاطبته بلهجته لعله يفهمني أسرع، ثم رمقت السلم الذي يصل إلى سطح المترو، لحسن الحظ كان الباب مفتوحًا، أتذكر أني رأيته مغلقًا في معظم الأوقات، لعلهم يقومون ببعض الصيانة تلك الأيام.
تحولت من الحالة الثابتة إلى الركض في ثانيتين وفعل مثلي الشامي، تسلقنا السلم القصير للسطح، وفوق السطح أمسكت به قبل أن يخطو للأمام ويدهسه قطار مسرع، رمقني بتلك النظرة وهز رأسه شاكرًا، رأيت في عينيه رعبًا، لم أره في أطفال كانت تبلل أسِرَّتها بعد قصص الصيف المخيفة، لقد تبدلت الحال، لكن للأسف، فرص نجاتنا لم تكن كبيرة.
كان هناك خطان، متعاكسان، وقفنا على الخط الذي مر منه القطار المسرع للتو، لشراء بعض الثواني قبيل أن يمر قرينه.
صرخت ممسكًا بذراعه:

- بين كل قطر والتاني أقل من تلات دقايق. أنا محتاجك تثق فيَّ قبل ما الأمن يوصل!

حرك رأسه إيجابًا، وعلى وجهه مزيد من الذعر، ظهر في تعرق التفَّ حول شفتيه، كانت الرطوبة حادة كالخنجر تلك الليلة، والحرارة ملتهبة كالجحيم، شعرت أن جسدي سيحترق لو ظللت في هذا المكان أكثر من ذلك، لربما زادت حرارة القضبان الأمر ضراوة، كانت هناك موجة كهربية واضحة في الأرض أسفلنا، بمعنى آخر، كنا نُطهى بهدوء.
أخرجت هاتفي وأرسلت رسالة بها إحداثيات المكان بدقة وأرفقت الكلمات التالية لدييجو: دبي، مترو المركز المالي، فوق المحطة، مخرج الآن.
جاءني الرد بعد عشرين ثانية:
ممكن، ١٠٠٠٠ دولار، أحتاج ٣٠٠ ثانية.
رددت:

أمتلك ٢٠٠ ثانية في أفضل الظروف، موافق على الـ١٠٠٠٠.

دييجو، الملك المتوج في عالمنا، لم يكن الرجل الذي يعلم من أين تؤكل الكتف فقط، الحقيقة أنه يصنعها.

يقال إن اسمه الحقيقي «دلجموني»، شاب ذو شعر طويل، سمعت أن أصله غير مصري لكني قابلته في القاهرة، له جنود في كل بلد، يتاجر في كل شيء، مرورًا بالسلاح والآثار والمخدرات، لكنه يضع كتابه المقدس الخاص به: لا مخدرات للنساء والأطفال، لا قتل غير ضروري، لا تجارة أعضاء إلا بشروط مجحفة - على الرغم من احترافه للويب العميق - لا ضرر لأي شخص على القدر المستطاع!

دييجو كان مرآتي المعاكسة في عالم لم أكن لأتخيل وجوده أصلًا. قلت له إنني أمتلك مائتَي ثانية فقط، وكنت مخطئًا، لقد ظهرت الشرطة!

كانا اثنين، أحدهما في الأسفل يناجي الشخص الذي صوب سلاحه الآلي نحو رأسي تارة، ونحو رأس الشامي تارة أخرى: - إيش تكونوا! وكيف توصلون للسطح؟ غير مسموح! راح تموتون من الجطر! الجطر بيمر كل دجيجتين!

صرخ بنا مقلبًا فوهة سلاحه بين رأسينا في توتر، رفعنا سواعدنا وصرخت شرحًا له: - جاتلي حالة نفسية! هو حاول ينقذني!

هناك قانون جيد رأيته في عراك، بين شخصيتين في عائلة «لوني تيونز» الكارتونية سابقًا، يطلق الأول طلقة بندقية، فيرد عليه الثاني بصاروخ، وهكذا، ردود فعل انتقامية سريعة، كنت أتمنى لو كان الأمر كذلك في الواقع. كنت أتمنى لو أخرجت من ظهري رشاشًا متعدد الطلقات ليتوازن الأمر. فكرت ساعتها أنه لربما عليَّ أن أقلل من كمية الكارتون التي أستهلكها!

بالعودة إلى الضابط، بدا لي أنه لم يصدقني حينما صاح بوجه غاضب تجاهي:

- عرِّف نفسك!

- اسمي رفعت النادري، من الأمن الوطني المصري.

أنزل فوهة الـ«M16» المعدل، لقد حاولت أن أشتري بضع ثوانٍ من رجل لا يتاجر بالوقت.

- أنت كذاب! الأمن الوطني يعرفون حدودهم زين! أنت مو مريض ولا أمن وطني!

لاح قطار آخر في الأفق، فصل بيننا لدقيقة، نظرت خلفي، كانت السيارات على بُعد عشرين مترًا مني، أي محاولة مني أو من الشامي للقفز ستنتهي

في قسم العظام في أقرب مستشفى، أو في مقبرة في شرق دبي بجانب المنطقة الصناعية.

بعد عودة المشهد إلى سابقه سمعت نداءً من صديقه على السلم:

- ما تمهلهم يا أبو صجر!

استجاب أبو صقر لقرينه وشد الأجزاء صارخًا:

- واحد واحد تضعون أياديكم فوق الراس، تنزلون من على السلم، أي تغيير لوضع اليد هاضغط ع الزناد، إنزين؟! أي حركة مفاجأة هينتهي كل شيء! يلا!

وضعت يدَي على رأسي ونظرت إلى قريني فتبعني، حاولت أخذ خطوة تجاهه لكنني لمحت سيارة نقل كبيرة الحجم بدا لي أنها تنقل شيئًا مغطى، شيئًا يمكن القفز فوقه من دون كسور مميتة.

- محتاج عشرين ثانية!

تمتمت بها للشامي من دون أن أحرك فمي، ليصرخ بدوره:

- أنا اسمي جواد. باشتغل في «داماك»، لك مجرد حاولت أنقذه!

أشار إليه بسلاحه ثم هزه بعصبية مفرطة:

- ما سألتك. ما تتحدث!

ثم أشار إليَّ:

- أنت! تحرك الحين!

لم أستطع أن أراهن على ثبات جأش أبو صقر أكثر من ذلك، الرجل كان مقبلًا على سكتة قلبية من فرط غضبه، أعلم أن إصبعه التي تحتضن الزناد لن تصمد طويلًا، رمقت الشامي وإذ هو على وشك أن يثبت لي هوايته في إثارة المشكلات، فقد كان يحرك يده رويدًا ناحية جيب بدلته، بغية الوصول إلى السلاح البلاستيكي، الغبي، أراد أن يفتح علينا جحيمًا! مع واحد من أقوى أجهزة الشرطة على وجه البسيطة.

كان يجب عليَّ التصرف، رمقت الشارع تحتي، وإذ بالسيارة اقتربت من مكان الالتقاء، وأبطأت من سرعتها بشكل ملحوظ، ثم أطلقت نفيرًا مميزًا ثلاث مرات متتالية، قلت لنفسي: «لقد فعلها دييجو الملعون!».

حاولت أن أنظر في عينَي الشامي، لأحرك رأسي نفيًا قبيل أن يصل إلى سلاحه، لكنه تجاهلني، كان عليَّ الارتجال! وفعلت ما هو أسرع.

في الثانية التي دخلت يده في جيب البدلة وأدرك السلاح، حرك الضابط فوهة سلاحه تجاهه بعدما شعر بأن ثمة حركة مفاجئة، تباطأت الحياة مجددًا، تحركت السيارات بشيء من الرعونة، وبدا القطار الجديد المقبل تجاهنا أشبه بسيارة قديمة متهالكة في عينَي، راقبت ذقن الضابط يتحرك ويفغر فاه، كان يصرخ منفجرًا، وإصبعه على وشك اعتصار الزناد بكل قوة.

تركت لجسدي حرية السقوط، تسارعت ضربات قلبي، بينما أنا أسقط جذبته، ليسقط الشامي بعدي، مطلِقًا سلاحه البلاستيكي في الهواء بحركة غريزية، سمعت صوت طلقات متتالية، بدا لي أنه صوت الـ«M16».

فكرت ساعتها أنه لو نجح الهبوط على ظهر المقطورة سنبدأ في حصر الخسائر و...

أغلقت عينَي.

بار وكازينو «48ers»

منذ ثلاث سنوات، بعد حادثة المترو بنحو عام

توقفت سيارتي المستأجرة أمام الملهى الليلي قبيل منتصف الليل، كانت درجة الحرارة قد قاربت درجة الاشتعال، إلا أن ذلك لم يمنع بضع فاتنات ذوات أصول أفريقية من التسكع أمام البوابة، كانت البوابة بسيطة لكن مميزة، خشبية، مستلهمة من تلك التي تظهر في أفلام الغرب الأمريكي. كُتب اسم الملهى باللون الأحمر القاني في أعلى اليسار.

داعبت يدي شاشة هاتفي، قلبت في صور التقارير، كان ذلك التقرير هو الثاني من نوعه، لقد تقلصت حظوظي في البقاء إلى بضع سنوات، أو أقل قليلًا، ترجلت وتركت السيارة لشاب هندي نحيف، خلعت معطف بدلتي الرمادية وشمرت القميص الأبيض، ودلفت إلى الملهى.

- مِن أين أنت؟

قالتها سيدة بيضاء جميلة بإنجليزية مشوهة، كانت ممشوقة القوام، يمكنني أن أتخيل أن أصولها من شرق أوروبا، ومن طريقة الماسكارا التقليدية يمكنني أن أراهن على أنها رومانية، كانت تمشي بجواري إلى باب الملهى مرتدية كعبًا عاليًا إلى درجة تكفي لغرسه في قلب أحدهم.

- من مكان بعيد.

- تعيش بمفردك؟

- وأنتوي الموت بمفردي.

رحلت وهي لا تزال ترمقني خلسة، حتى وإن لعنتني، لا أملك الوقت للشرح، ولا الرغبة. أنا رجل قريب من خط النهاية. ولديَّ بضعة أهداف لأحققها قبيل تسليم مفاتيح الحجرة، والمغادرة غير مأسوف عليَّ من فندق لم أختر أن أدخله، أو أخرج منه.

في غرفة القمار الخلفية وجدته، يجلس بائس الوجه عبوسًا، كان يتجرع بعض الويسكي الرخيص ويراقب الديلر وهو يوزع كروت الكوتشينة بسرعة يُحسد عليها، ساعتها علمت أنه قد خسر كثيرًا، كانت هناك حسناء عربية تجلس بجانبه، واضعة يدها على كتفه في مواساة واضحة، رأيته يحرك رأسه لها إيجابًا، لكنه كان في عالم آخر!

كانت لعبة قذرة أعلمها جيدًا، تُدعى «باكارات»، عليك أن تختار أن تكون البنك أو اللاعب، شيء سهل أن تفعله، لكن الصعب أن الأمر مثل قلب العملة في الهواء، يسحب الموظف ورقتين للاعب، وورقتين للبنك، ويقلبها ويجمع الأرقام، صاحب الرقم الأكبر يفوز.

لسبب ما لاحظت أن أوراق التوزيع قد قاربت على النفاد، فرأيت الموظف يجمع الكروت لإعادة وضعها في مكانها الطبيعي، تلك العلبة البلاستيكية التي يسحب منها. تمنيت أن يوزعها بنوع من المصداقية، على الرغم من أن معظمهم لا يفعل ذلك. راقبت يده، وبالفعل قسم الكروت إلى قسمين. قلت لنفسي: «سيفعلها!».

تزايدت دقات قلبي سرعة، تركت لهاتفي حرية السقوط على الموكيت الأحمر المميز، مِلتُ وراقبت عيناي الكروت وهي تتباطأ بعضها فوق بعض. في عالمي، هناك أشياء يمكنني فعلها في ثانية واحدة، قد تُحدِث فارقًا يحتاج إلى سنوات.

اقتربت من الطاولة وراقبت مراد - أو «الشامي» كما كنت أطلق عليه - وهو يحرك الفيش بيد مرتعشة على القسم الخاص بالبنك، حاولت إجراء بضعة حسابات في رأسي، لم أعلم نسبة نجاحها، لكنني تخيلت أني رأيت رقم تسعة مرتين في أول الورق.

أمسكت بقطعتين من رقائق الفيش وحولتهما إلى ناحية خانة اللاعب، رمقني مراد بعينين غاضبتين، لكن لم يلبث أن ارتسمت على وجهه علامات الارتياح، حاول القيام من مجلسه لكنني ضغطت على كتفه ليبقى. أخرجت من حافظتي كل أموالي تقريبًا وسلمتها للموظف مبتسمًا بإنجليزية متماسكة:

- دائمًا ما أفوز على اللاعب! هو لا يعلم ذلك!

بادلني الموظف الابتسامة ونظر إلى مراد، الذي حرك رأسه إيجابًا، ناولني الأول رقائق الفيش ووضعتها جميعًا في مكانها الجديد.

فرش الموظف الكروت فوق خانة البنك، ثم خانة اللاعب الخاصة بنا، وقلب ورقتَي البنك، للأسف كانتا ثلاثة وخمسة، وهذان رقمان جيدان في تلك اللعبة.

حينما بدأ في تقليب أرقامنا تعالت دقات قلبي، لأنني شاهدت الكارت ينقلب على صورة فتاة! اللعنة! لأن فتاة تساوي صفرًا في تلك اللعبة، حتى وإن كانت تساوي في الحياة كثيرًا!

لاحظت مراد يصفع الطاولة بيده أسفًا، لكنه تجمد حينما قلب الكارت الثاني.

كان رقم تسعة، وكان أحب رقم لي وله في تلك اللحظة!

قام مراد من فوق كرسيه صائحًا مثل المراهقين، يقبل يد الفتاة مرة ثم يمسك برأسه ويمشي خطوتين ثم يعود ليعانقني بحرارة: - يا الله عليك! وينك من زمن يا إكسلانص!

ابتسمت قائلًا:

- بادوَّر على واحد شُفته في مترو دبي!

قهقه طويلًا، ثم استأذن الفتاة ممسكًا بذراعي، عاجله الموظف بإنجليزية لها لكنة هندية: - حظك رائع سيدي! لقد فزت بنحو ستة آلاف دولار!

أمسك مراد بقبضة من رقائق الفيش، ثم أشار إليه في طريقنا للخروج بإنجليزية صلبة: - أعطِ لنفسك مائة دولار ولحبيبتي هنا خمسمائة لتلعب مكاني. سأعود في الحال.

جلسنا بعدها إلى البار، بدأ مراد في عد الرقائق، وضعها أمامي، شكرني، ثم أمر النادلة العربية فصبت لنا كوبين مثلجين من البيرة، تابع هو: - اشتقتلك والله! يا خي كنت حتى تلفنلي!

ثم صاح بعد أن تذكر شيئًا بلكنة مصرية قوية:

- روبانا، شوفي الباشا البغاشا ده يطلب إيه! ممكن ما يكونش عايز بيرة! سكوتش يا بيه؟!

- أنا تمام.

رن هاتفه، استأذن وذهب بعيدًا ليكمل مكالمته، كان يضحك مستبشرًا بعدما عوض خسارة اليوم بمكسب! يا للمال، بضع وريقات يمكنها أن تصنع منك

طفلًا حالمًا، أو عجوزًا في سن صغيرة.

استغلالًا للوقت أشعلت سيجارة وتركتها، أمسكت بمنديل كبير الحجم، قلبته على ظهره وأخرجت قلمًا من جيب معطفي، وبدأت أرسم وجه المرأة. مرت بضع دقائق حتى وصلت إلى عينيها، سمعت صوته من خلفي: - فان جوخ باع واحدة مثل هيك بمليون دولار! بقلم حبر.

قالها مشيرًا إلى رسمتي لها.

- أنا لسه ما قطعتش وداني، محدش هيشتريها.

- إيييه! نقطعها ونبيع يا زلمة!

تابعت رسمي لقسمات وجهها مازحًا:

- باحب روح الإخلاص اللي فيك!

ارتشفت بعض البيرة وأزلت عن شفتَي الرغوة وأردفت:

- هو ما باعهاش بالمناسبة، مات فقير.

- لك مين باعها؟!

- الورثة، أو أصحاب الصورة حتى لو مش ورثة.

- فلوس سهلة مو هيك؟

اقتبست من لهجته:

- مو هيك، تبان سهلة يا صاحبي، صدقني، مو هيك!

- كيف يعني؟! رسمة مثل هيك راح تاخد منه إشي نص ساعة مثلًا!

تنهدت طويلًا، ثم رمقته بعينين ثاقبتين مردفًا:

- أنا مش باتكلم عن الرسمة!

- لك شو بتقصد؟ راح تحكيني بالألغاز؟

- إنتَ عارف قصدي، وعارف أنا هنا ليه!

- أكيد عشان تقفز من فوق المترو! كيف كتفك يا اللي اتخلع؟

قهقه طويلًا ظنًّا منه أنني جئت تلك المسافة لأمازحه، لكنني احتفظت بوجه «بوكر» لا يقول أي شيء، مما دفع ضحكته إلى التلاشي، أردفت: - أنا هنا عشان أمنعك تكررها. المرة دي مفيش شاحنة هتنقذك!

صمت طويلًا ثم داعب بضع شعيرات من رأسه حتى كاد يقصفها، ثم رمقني بتلك النظرة هامسًا: - كيف عرفت؟

- إزاي حال دراعك بعد الطلقة؟

- كيف عرفت؟!

- لسه بتعاني من أثر الـ«M16»؟

- لك! كيف... عرفت؟!

صاح بها، ثم نظر حوله بترقب، لم أشعر أن أحدًا قد لاحظ، رمقت السيجارة نصف المشتعلة. تابعت: - مش مهم إزاي عرفت، المهم إنه غلط!

- كل دوامنا غلط في غلط!

- أبو سامر مش هيدفعلك، ولو المحكمة عرفت هتحاكمك؛ خطورة مزدوجة!

شرد بعيدًا ورمق الكازينو من حوله، طارقًا برتابة على الطاولة قبل أن يضيف: - عطاني مقدم.

أغمضت عينَي أسفًا وتنهدت طويلًا بعدما سمعت ما تمنيت ألا أسمعه:

- هياخده تاني. هادِّيك الفلوس!

- لك فاكرني صبي!

- تحت التعذيب كلنا بنبقى أطفال رضع، ودي تاني مرة أحاول أحميك فيها. أبو سامر هياخد المقدم تاني، وبعدين...

- وبعدين شو؟!

صمت لثانيتين ونظرت حولي لأتأكد أن أحدًا لا يسمع. رجع مراد بظهره ورمق السقف شاردًا، بدا أنه قد فهم لغتي أخيرًا، تردد قليلًا ثم أردف بنبرة مختلفة يشوبها الحرج: - شهاب! أنت مشكور يا أخي الله يوفقك، أنقذتني في المترو وأنا اتسرعت ما راح أنكر، ووقفت جنبي وخليتني أدبر راسي، لكن الخطوة هاي أنا دارسها مية بالمية! ولازم أسويها منشان أبدأ المشروع تبعي، مشروع حلال.

- تفتكر المحكمة رفضت تنفذ طلب أبو سامر ليه؟ عشان أخلاقها؟

أخفض من نبرة صوته وقال لي هامسًا بعدما اقترب من أذني:

- الأخلاق للبيع يا شهاب! لكن السياسة تمنها دم، المحكمة ما بتنفذ محاكمات لشخصيات سياسية معظم الوقت!

- طاب ما إنتَ فاهم كويس أهو! دي بداية مبشرة!

- شو قصدك؟!

- إنتَ لسه قايل: سكة السياسة آخرها دم! ما أعتقدش إنك عايز تبدأ مشوارك مع المحكمة وتنهيه بدم، في نفس اللحظة؟

تنهد طويلًا، رامقًا إياي في عينَي مباشرةً هامسًا بنبرة تقطر تحديًا:

- وأنت ما بدأته بدم يا سيادة المستشار؟

في تلك اللحظة، أغضبني مراد!

تابعت:

- الدم اللي أنا بدأت بيه بيطلع من الهدوم، لكن الطريق اللي إنتَ اخترته فيه نوع دم ثابت ومختلف، هيفضل على قميصك وين ما تروح ومحدش هيرحمك، تفتكر المستهلك إياه، هيسيبك تمشي في الشارع بعد ما تبيعله المنتج؟

تحفز بعينين متسعتين، ثم عاجلني بنبرة ساخرة:

- لك! مش هيكون صاحي عشان يوافق أو يرفض، ودمه ما راح يوسخ بوطي حتى، ولا حدا راح يعرف، إلا إذا أنت بلغت!

- المستهلك ده دولة، الدول ما بتموتش ولا بتسكت، هيدوروا عليك! ده لو فرضًا أبو سامر سابك تعيش!

- ما راح يعرفوا.

- وأنا عرفت إزاي؟! فكر! اللي عرَّفني مش هيعرَّف غيري؟

- اسمعني! هي عملية واحدة، هتبقى أول وآخر عملية، بعدها هاختفي وهاغير اسمي وهاهاجر، فص ملح وداب، كيف ما بيقولوا.

قلت بصوت غاضب ووجه تشنجت عضلاته:

- لا الملح هيدوب! ولا هتلحق تهاجر! يا ابني إنتَ مش هتتحرك من هنا أكتر من كيلومتر واحد! بعد ما تنفذ!

- والله؟ بتعلم الغيب ولا شو؟! اسمع يا صاحبي! أنا سمعت كلامك سنين، وتركت العمل، وقبلت مصاري منك، لكن أنا مش هاعيش على المعونة، أنا راح أسوي القضية.

شردت عيناي في الكوب الذي فرغت منه، صمتُّ طويلًا، ثم بلعت ريقي وأردفت بنبرة أكثر طمأنينة: - مراد! أنا مريض. أقدر بسهولة أسيبلك مبلغ كويس، أنا مش الراجل اللي ممكن يترجى حد، ومع ذلك، أرجوك بلاش! ده غير إن المستهلك المطلوب ما يستحقش مصيره، مجرد راجل مسؤول، إيده نضيفة، القدر حطه في طريق أبو سامر، ما تنساش إنه يقرب للحريري.

- والله لو يقرب لملك المغرب ما بتفرق معي، أنا أصلًا باكره كل السياسة بكل اللي فيها على صرمايتي.

انتبه بعدها للجملة الأولى متسائلًا:

- شو يعني مريض؟! بتكذب عليَّ منشان ما أسويها صح؟ أنت ما شا الله عليك، صحتك أحسن مني!

- فيه مشكلة صغيرة في دماغي.

- إي عارفها، إنك بتقلق زيادة.

- لا، مشكلة وزنها كذا جرام، بتضغط على أماكن كتير في دماغي.

قلتها ورمقت السيجارة لتبدو لي مجرد رماد.

تغيرت نبرته، وتجرع البيرة بعدما جف حلقه، حرك رأسه نفيًا وتابع:

- أخي ما تقول هيك! أنت منيح قدامي، ما تقول هيك!

تجاهلته وتابعت:

- دي الحقيقة، أنا بتجيلي نوبات صرع على فترات متباعدة، بافقد الإحساس بالوقت يوم بعد يوم، ذاكرتي بدأ يظهر فيها نقاط عامية، حتى وزني بيقل. الدكاترة بيقولوا قدامي سنين، بس أنا حاسس إن الوقت اللي قدامي مش كتير. مراد! محتاجك تفكر تاني!

- ما تقلق حبيبي، بعد ما أسويها راح أحجزلك في أكبر مشفى في كليفلاند، خلي عندك ثقة في كلامي! مستحيل أخذلك!

رمقته طويلًا وانتظرت حتى ملأت له النادلة كوبه ورحلت. أردفت:

- هاعطيك نفس الرقم، اللي عرضه عليك!

حرك رأسه نفيًا:

- والله لو عطيتني ألف مرة ضعفه، ما راح آخد منك مليم زيادة، العكس صحيح، راح سويها، وراح أعطيك اللي دفعتهولي، وراح سافر أنا وأنت أمريكا وراح تتعالج، هنتزوج أنا وأنت في نفس اليوم، بنتين حلوين سمان، هيدا ذوقي. ما باعرف ذوقك هههه - سامحني - وهنكون في نفس الولاية، راح أفكرك! لك اضحك شوي، بالله!

وضع يده على كتفي وهزني مرتين، مترجيًا إياي.

سرحت عيناي في صورتها غير المكتملة فوق المنديل، المرأة ذات العينين المفقودتين التي لم أمنع قدرها.

القدر مصفوفة عبقرية، إلى درجة أن أي شيء نفعله لمنع ما يحدث، هو في الحقيقة بداية تحفيزية لما يجب ألا يحدث، الأمر أشبه بقطع دومينو متراصة، وعليك أن تمنع أول قطعة من السقوط، لكنك تسأل نفسك: ممَّ يجب أن أمنع القطعة الأولى؟! لا يوجد مسبب لإسقاطها! ثم تجد أن حذاءك قد لمسها سهوًا، أنت المسبب الأول! أنت من أوصلت الأمر إلى مرحلة البداية، أو كما تلقبها المحكمة: «الثريشولد».

دمت في شرودي، ثم أمسكت منديلًا آخر، وطبعت عليه رقمًا بسرعة، مررته إليه وهممت بالرحيل: - البس قميص رصاص، حتى لو المستهلك مش هيشوفك، اتصل بدييجو هيجيبهولك، اطلب منه يقابلك بعد المحاكمة مباشرةً ويخرَّجك من دبي، ما تقابلش أبو سامر، خلي وسيط يقابله وياخد باقي الأتعاب.

- قلتلك ما راح أخذلك!

ما راح تخذلني يا صديقي، لكن الأيام تعرف كيف تفعلها جيدًا.

تلك كانت آخر محادثاتي مع «ظل» كما يلقب نفسه على تطبيق سوق «ألفا» أو «مراد باسل».

أتذكر أني هممت بالرحيل بوجه غاضب، أنظر أمامي من دون أن يرتد إليَّ طرفي، كأنني أعلم ما سوف أقرأ في صحف الأيام التالية: «العثور على جثة قاتل مؤمن الحريري في دبي منتحرًا، شاب يُدعى «مراد باسل»، وُجد غارقًا في دمائه بعدما كتب رسالة وداع متهمًا فيها الحكومة اللبنانية بإهانة اللاجئين السوريين، وفجر رأسه!».

وقد كان.
للأسف.

العودة إلى الحاضر

مترو المعادي الآن. لملمت شتاتي وجاهدت لأقف على قدمَي، رمقت عربة القطار حولي، كنت أنا الوحيد، يبدو لي أنني يونس في بطن الحوت، إلا أنني لم أكن نبيًّا صالحًا، ولم أدعُ قومي لشيء قد يمنع عنهم العذاب، لعل الحقيقة أنني العذاب.

أخرجت هاتفي وفتحت برنامج سوق «ألفا»، اخترت مصيدة الحشرات، وضغطت على العرض وأدخلت «البروموكود» الذي لم أُدخِله منذ سنوات، «Counselor» أو مستشار.

هاتفت رقم خدمة العملاء، ردت عليَّ فتاة متحمسة:

- اشتريت مصيدة الحشرات، لكن لما دخلت الكود ما أخدتش خصم!

- حالًا هاساعدك! تحب تدفع كاش ولا عن طريق المحفظة الإلكترونية؟

- هادفع عن طريق فيزا كارد، الخصم صفر!

- إيه اسم البنك؟

- إنجيلز مان.

- آسفة ممكن تعيد الاسم!

لم أرد عليها، وساد الصمت لثانيتين، تابعت هي بعدها:

- خليك معايا لو سمحت!

وشدت نغمة رتيبة لعدة ثوانٍ، ثم عادت قائلة:

- فُعِّل الطلب، حضرتك متأكد إن الخصم صفر جنيه؟!

أخذت شهيقًا عميقًا وأطلقته قائلًا:

- متأكد!

وأغلقت الهاتف.
أهلًا بكم في خصم الجمعة السوداء.
لقد عاد شهاب المستشار! من أجل مهمة أخيرة مجانية.
من أجل مراد.

أراها جيدًا.

تحملني وأنا طفل على جانبها، تشير إلى البحر أمامي، اللسان المقابل لبيتنا الصغير قرب البحر، يدي الصغيرة على كتفها، شعرها الذهبي الجاف يغطي وجهها فأفشل في رؤية عينيها مجددًا.

يصفعني تيار هوائي بارد يوقظني من شرودي، ثم القهوة الداكنة المُرة التي ترغمني نفسي على تجرعها، والأمواج المتصارعة التي تبتلعنا بعدها، ومراد، يظهر أمامي بغتة، يرمقني بوجه بائس على وشك البكاء، تتساقط أشلاء مخه من جانب رأسه.

طلقة تركت حفرة بعمق الكون في رأس ماضيك، كلما هربت منها ابتلعتك.

في عالم الأحلام يفقد عقلك القدرة على تحليل المشهد، حتى لو تعرف عليه، حتى لو أيقن أنه مكرر، يتفاعل معه كأنها المرة الأولى.

انتبهت!

بعينين مفتوحتين على اتساعهما، وشهقة ألم طويلة إثر نقص الهواء؛ آبنيا الاختناق في أثناء النوم مجددًا!

أعلم أنه في يوم ما لن ينقذني قلبي منها، القلب البشري يتعرض إلى إجهاد دامٍ عند حدوث الاختناق في أثناء النوم، يرسل إليه المخ إشارة بالانتفاض وإيقاظ الجسد من السبات حتى لا يموت الشخص، المشكلة تحدث عندما يختنق المخ نفسه، فيفشل في الحصول على الأكسجين الكافي لتنبيه القلب لاستخدام قوته القصوى، أشبه بجندي إشارة يفشل في إرسال طلب بسحق القوات المعادية بالطيران، لأن بطارية الراديو الخاص به قد نفدت، متى ستنفد البطارية التي ترسل الاستغاثة من دماغي أو تعطب؟ وإلى متى سيظل عقلي يكرر الحلم نفسه أمامي؟! ولماذا هي في كل شيء؟!

صببت شلال مياه باردًا طويلًا فوق رأسي في حوض الاستحمام، جففت حالي واستقرت قدماي أمام التلفزيون، أحكمت السماعة على أذني، وبعد صمت طويل تابعت مخاطبًا فداء: - فأر يهرب من متاهة، المتاهة مصممة على شكل معقد، الفأر يحاول بكل الطرق، ثم - بعد معاناة - يصل إلى المخرج، هناك قطعة طعام كمكافأة للفأر، صُممت خصوصًا لتحتوي على قدر من السعرات الحرارية أقل مما يبذله الفأر لينجو من المتاهة.

قلتها محركًا أصابعي محاولًا فتح فيديو آخر لتجربة مختلفة على الشاشة أمامي، ترجمت الإنسانة الآلية إيما، ذات الصوت الأنثوي، كلماتي، تابعت: - النتيجة، بعد عدة مرات يفطن الفأر للفكرة، ويقرر المكوث داخل المتاهة بدلًا من الهروب منها، يتعرض الفأر لاكتئاب.

علقت فداء:

- غير منطقي! كيف يقيس العلماء وجوده من عدمه؟!

- تتحدثين عن الاكتئاب؟

- بالتأكيد.

- عن طريق فحص الدم، أو مراقبة فترات نوم الفأر وسلوكه، لكن الأمر يختلف عند تطبيق تلك التجربة على البشر.

- لا تحاول أن تقنعني أن البشر يحبون أن يتعذبوا بلا طائل!

صمتُّ لبضع ثوانٍ، ثم أردفت:

- العذاب الجسدي والنفسي يمكن التعود عليه بشريًّا، بل وإدمانه.

- لا أعتقد أنك تقول الحقيقة!

- لأنها لا تتوافق مع التي تريدين سماعها؟ أليس كذلك؟

- لا، لأنها لا تبدو مقنعة. على أي حال أكمِل من فضلك!

صمتُّ طويلًا حتى ظنت أنني سأنهي المكالمة:

- من فضلك لا تغلق الخط!

استجبت لها وأردفت متجاهلًا مزاجها السيئ اليوم:

- هناك تجربة أخرى طُبقت على فأر مختلف، للتأكد من استجابته للألم. المثير للاهتمام أن معظم الحيوانات تفقد صفة توجد في الجهاز العصبي البشري، قرب المسافة بين مراكز الألم والمتعة، تحديدًا منطقتَي الفص الجبهي والحُوفِي في المخ، اللتين تتأثران بإفراز «الإندورفينات» بعد الشعور بالألم أو السعادة، مما يفسر بعض الممارسات المازوخية والسادية.

- لربما تمتلكها الحيوانات أيضًا.

- هذا ما أجابت عنه التجربة بالنفي، وضعوا الفأر المذكور سابقًا في لعبة ملاهٍ مخيفة، مثل التي ننفق الأموال ونصرخ من أجلها.

- هل رفض تكرارها؟

- مبهر! توقعكِ صحيح!

- مبهر لأنني قلت ما تريد سماعه سيدي!

ابتسمت وانتظرت حتى انتهت الترجمة، تابعت بنبرة هادئة: - هل سألتِ نفسكِ لماذا نحب لعبة الملاهي كلما زادت جرعة الرعب والخوف؟ أي كلما زاد الخطر، زاد ثمنها، وازداد الطابور طولًا.

- أنت تلمح أن الأشخاص العاديين يستمتعون بالألم أيضًا!

- أنا لا ألمح! أنا أقول ما يقوله العلماء، كلنا نمارس السادية بدرجات أقل، لكن الفأر رفض أن يكرر لعبة الملاهي بعد المرة الأولى لأنه - علميًّا - يُعد الخوف جزءًا من الألم.

- لكن حلقة اليوم تتحدث عن الفرق بين ساعات العمل في ألمانيا والوطن العربي، معذرة! ما علاقة هذا بتلك؟

- لقد نجحوا في زراعة الفكرة في عقل المستهلكين، هل ما زالت الصورة مبهمة أمامك؟ فداء، الأمر واضح للغاية، إنهم يستغلون ذلك في فرض ساعات عمل طويلة شاقة ومؤلمة على المستهلك، ومكافأته بقليل من الطعام، مسكن لا يطاق، خدمات شبه منعدمة، إلا أن المستهلك يكمل المتاهة، حتى لو كانت السعرات غير كافية، ويلعب «الرولر كوستر»، حتى لو شعر أنها مملة، لقد عجزنا عن مجاراة الفئران.

- سيدي المجرم! تتحدث عن مؤامرة دائمة. شيء مؤسف أن تسيطر عليك الفكرة إلى هذه الدرجة!

- شيء مؤسف ألا تري الحقيقة العارية أمامكِ.

تراجعت إلى الوراء، وخلعت نظارتها القاتمة. حاولت جاهدة رؤية المشهد الضبابي أمام عينيها: - لا يوجد أمامي سوى مبنى، عُلقت عليه بضعة ملصقات، بالكاد أراه وأنا أترجل من سيارتي كل يوم، أنت تعلم ما تعانيه عيناي!

- ومَن الذي أعطى للمنتج الحق في لصق الإعلان؟

- بالتأكيد صاحب البناية.

- وماذا عن عقلك؟ مَن له الحق في لصق الإعلان على جدرانه؟ ألا تشعرين بالرهبة من كونهم يغدقون الأموال ليحصلوا على لوحة إعلانات داخل أدمغتنا؟ نراها كلما أطفأنا النور واسترخينا، هناك ملصقات فوق الملصقات بداخلنا، وماذا تبقَّى لنا؟ لا مكان للراحة! حتى لو أغلقنا أعيننا، سنراها.

- هناك مقولة شهيرة تقول: إننا نشاهد الإعلان لأننا لا ندفع مقابل خدمة التلفزيون.

- إن لم تدفع مقابل المنتج، فأنت غالبًا المنتج.

داعبت هي نظارتها في خيبة أمل بينما تفكر فيما أقول، اقتربت من وجهها حتى أصبح يفصل بيني وبين الشاشة بضعة سنتيمترات. تابعت حديثي: - الحقيقة أنهم هم مَن يجب أن يدفعوا لك يا فداء، هم يعتقدون أن من حقهم فعل ذلك، الأغنياء فقط لا يشاهدون الإعلانات في أثناء تصفحهم للفيديو، لأنه ليس من حق المنتجين الولوج إلى أدمغتهم، لكنك شخص عادي من ضمن الملايين، لذلك لا حماية لك.

- مَن هم؟!

- هم الأشخاص الذين لا تصدقين وجودهم! إعلاناتهم سهلة التذكر وموسيقاهم تصاحبك أينما ذهبت، وألوانهم جذابة، جملهم التسويقية قصيرة وتتصل مباشرةً بعاطفتك، «كولا: افتح تفرح» بمعنى أننا الوكيل الوحيد للفرحة، هل تذكر أعياد ميلادك؟ لقد كنا معك! «ماك: أنا أحبه» أنا أحب طعمه بغض النظر عن مكوناته وتأثيرها، «وايلد: دير تو وبير»، إن لم ترتدِ وايلد فأنت جبان كالأرنب، وهكذا.

- ولماذا هم؟

- السؤال الصحيح: أين هم؟ والإجابة دائمًا: «بيلدربيرج».

- اجتماع «بيلدربيرج»!

- بكل تأكيد! اجتماع للعائلات والمرشحين، غير مذاع، غير مسجل، لا أحد يتحدث عما يحدث داخله، الكل يترك هواتفه في الخارج، الكل يُفتَّش بدقة، وبعده يتغير العالم، تنقلب بعض الجيوش على رؤسائها، تفوز بعض الأسماء المغمورة بمناصب عُليا، تنحسر قوى كبريات الشركات وتصعد أخريات.

- كيف يمكنك إثبات ما لا تملك؟!

- وضحي أكثر!

- أنت تقول إنهم يشكلون العالم، لكن الاجتماع غير مسجل!

- في العام ١٩٩١ حضر الاجتماع رجل غير مشهور يحكم ولاية غير مؤثرة سياسيًّا وهي «أركانساس»، كان يُدعى «بيل كلينتون»، في العام ١٩٩٣ أصبح رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. والأمر نفسه لتوني بلير عام ١٩٩٣ ليتوج بعدها برئاسة وزراء بريطانيا. وهنري كيسنجر ١٩٧٣، لينقذ ما يمكن إنقاذه، في حرب كادت تكلف فتاة أمريكا المدللة كل شيء، أنجيلا ميركل ٢٠٠٥، ثم الفوز بعدها بأرفع منصب في ألمانيا، وغيرهم، ألا ترين يا فداء أنها شبكة.

- وما موقعنا داخل الشبكة؟

- نحن؟ مجرد مستهلكين، نحن المستهدَفين، حينما تقودين سيارتك فأنتِ مستهدفة، حينما تشاهدين التلفزيون فأنتِ مستهدفة، نحن عبيد لآلة معقدة صُنعت للتو، حتى وإن أنكرنا الأمر من داخلنا، فئران في متاهة لم نختر أن ندخلها، استبدلنا بأطواق العبودية المعدنية الصدئة رابطات عنق حريرية، تؤدي الغرض نفسه، نشتري سيارات تمتلك أنظمة تحمي من الموت، مقابل ساعات طويلة من العمل الشاق الذي يقربنا منه، نحارب الاكتئاب بمضادات تسبب الاكتئاب نفسه على المدى البعيد - كأثر جانبي - والإدمان أيضًا، يتركنا أقراننا لأننا فشلنا في شراء أشياء لهم باهظة الثمن (منتجات) لو لم يُعلمنا شخص بوجودها لما امتعضنا، نحن مستهلكون من لحظة الولادة إلى لحظة إعلان الوفاة، وحتى بعدها يُطلب منا شراء مستلزمات الدفن من أموالنا الخاصة، ألا ترين يا فداء! نحن في متلازمة لا يمكن العلاج منها، أي فأر سيفكر في التمرد سيُسحَق فورًا.

ظهر أمامي فيديو إخباري لبضعة أطفال - بعضهم يعاني السمنة - يأكلون أطعمة سريعة في ولاية ألمانية بجانبهم مهرج مخيف بوصفه علامة تجارية لتلك السلسلة، وفي يسراهم أعلام صغيرة بألوان قوس قزح، يبدو أنهم وسط مظاهرة ما، وصور متلاحقة لأفلام كارتون بها امرأتان تتعانقان برومانسية بالغة، تتبعها صور أخرى لشخصيات كارتونية من الجنس نفسه تقبِّل بعضها بعضًا.

تابعت الإنسانة الآلية إيما ترجمة ما أقول، إلا أن صوتها المرح بدأ في الأفول، والتوتر. تابعت قائلًا كلمتي الأخيرة، لكنني قلت لها باللغة الألمانية هذه المرة: «إس إيست آين توليس نيتزفيرك!» (إنها شبكة عظيمة)، وأغلقت الهاتف.

جلستُ أرضًا بعدما قلتها، وشاهدت فداء متجمدة أمام الميكروفون، ظللت أشاهدها لبضع ثوانٍ، حتى تغلبتْ على شرودها وذهبت إلى فاصل غنائي، وانهالت عليها المكالمات.

مهلًا، كيف تحدثتُ الألمانية؟!

* * *

هرعت إلى صندوق قديم أحتفظ بداخله ببضع صور وأشياء من الماضي، فتشت بين الصور وأفلام الكاميرات العفرة وساعات يد قديمة الشكل حتى وجدتها.

صورة قديمة، هرئة، لونها مائل إلى الاصفرار، كُتب على ظهرها: «شتاء عام ٢٠٠١، مدرسة المعادي التجريبية».

أظهر في الصورة أتوسط مجموعة من الطلبة، يبدو لي في الصورة أنني أكثر نضارة، يسيل الشباب من وجهي وأزفر الحياة مع أنفاسي، الطلبة يبدون في الصف الإعدادي أو ما شابه، لا أذكر أي شيء عن تلك الفترة، هل احترقت شرائط تلك المرحلة في مكتبة عقلي؟ هل يمكن للسرطان أن يمحو سنوات؟

وصفعات متتالية، كأنها فلاش كاميرا يتتابع في رأسي، صور لي وأنا أمسك الكتاب وأشرح بألمانية صلبة، وصور متتالية لي وأنا أشير إلى بعض الطلبة بالالتزام، أصرخ فيهم تارة وأمزح معهم تارة أخرى، هناك أطفال يمرحون في فترة الغداء في فضاء المدرسة، يركضون بعضهم خلف بعض، كادوا يسكبون زجاجة الشعير من يدي، أتذكر أنني ابتسمت.

وصورة أخيرة لي، أفتح عينَي بصعوبة، الرؤية مهزوزة كأنني أنظر من خلف لوح ثلجي، هناك طالب، نضر الوجه، يقترب مني، وخلفه باقي الطلبة في ترقب.

- هر شهاب!

تابع:

- حضرتك كويس؟

أتذكر بعدها أنني سمحت لجفون عينَي أن تنطبق وتمنحني بعض الراحة، خدي يلتصق بأرضية الفصل الدراسي الباردة، بعدما طاح جسدي أرضًا بعد نوبتي الأولى. تذكرت كل شيء: لقد كنت مدرسًا للألمانية، لا عجب أنني آثرت راديو ألمانيًّا عربيًّا، اللعنة عليَّ مجددًا.

اثنتان وثلاثون دقيقة بعد الثامنة مساءً

تجمدتُ شبه عارٍ أمام الشاشة في بيتي، أشاهد بعض الكارتون مجددًا.

ما لفت نظري، أن هناك قانونًا لم ألحظه في فيزياء الكارتون: أي جسد يمر من حاجز صلب يترك ثقبًا مطابقًا لحدود حجمه، تخيل مثلًا ذئبًا كارتونيًّا يصطدم بحائط في أثناء ركضه، فيخترق الحائط، ويترك كسرًا فيه تمامًا على شكل الذئب، مثل بصمة الإصبع، لقد اتخذت قرارًا لم أشعر بالندم عليه للحظة، سأترك بصمة تُعبر عن حجمي قبيل رحيلي، سأجعلهم يقولون إن شهاب المستشار مر من هنا!

التحفت جاكيت جلديًّا بدا رخيصًا، أحكمت خوذة سوداء على رأسي، قصدت

دراجة نارية قديمة الطراز، صرخت إطاراتها بينما اخترقت بها هواء كومباوند «بيفرلي»، واتجهت ناحية العنوان المطلوب.

بعدها بأقل من أربعين دقيقة، استقرت الدراجة أمام كازينو وبار «بريستيج» في المهندسين، استبدلت بالخوذة طاقية برتقالية اللون، ثم قصدت الكازينو، أخرجت من صندوق الدراجة الذي حمل شعار شركة توصيل الأطعمة، خمسة أدوار من البيتزا الساخنة.

استوقفني رجلان، أحدهما ضخم يعاني بعض السمنة، والآخر يميل تكوين جسده إلى الكتلة العضلية، ارتديا بدلتين قاتمتين.

صاح السمين مادًّا يده:

- ممنوع!

رفعت البيتزا التي أحملها ساخرًا:

- أكيد مش داخل أسويهم!

ضحك زميله، ثم أردف:

- إنتَ عارف النظام!

حركت كتفي أسفًا قائلًا:

- عملت اللي عليَّ!

هممت بالرحيل لكنه استوقفني:

- لمين دول يا صاحبي؟!

تظاهرت بأنني أقرأ شيئًا في الورقة الملصقة على العلب الكارتونية: - تبع أبو سامر!

تشاورا لدقيقة، بدا لي أن أحدهما أراد أن يرافقني للداخل ولكن الثاني أقنعه أن يبقى لأسباب وظيفية، ثم أشار إليَّ السمين بالدخول: - مش أكتر من دقيقتين!

حركت رأسي تفهمًا. كنت أعلم أن دقيقتين كافيتان في عالمي.

داخل البار بدا الأمر كلاسيكيًّا، بضع فتيات ليل معظمهن ذوات ملامح مصرية، هناك شقراوات أيضًا، وطاولات متناثرة بطريقة فوضوية، هناك موسيقى غير متناسقة نتاج فرقة موسيقية غير محترفة، ومغنٍّ شعبي ضخم الجثة يصرخ في ميكروفون ضعيف، غير مكترث لفرق الحجم بينهما، وجدت

طريقي بين عَرق العاهرات وعطور النزلاء ورائحة السجائر المحناة بالتوابل، غافلت رجلًا ستينيًّا يراقص فتاة سكيرة وقصدت غرفة المدير، استوقفني حارس آخر، ما إن همَّ بالحديث معي حتى حدث شيء على المسرح، يبدو أن سكيرًا آخر حاول العراك مع شخص ما، أشار إليَّ بالانتظار ثم هرول تجاهه، بعد ثانيتين كنت قد اختفيت ودلفت إلى الغرفة المنشودة.

كانت الإضاءة قوية في الداخل، وكانت واسعة المساحة، لكنها غير نظيفة، أشبه بمطبخ مجدَّد أكثر منه غرفة، كان هناك حوض كبير يغسل فيه شخص ما رأس شخص آخر ضاحكًا، تتدلى سيجارة من جانب فم الأول، ورجلان طفقا يعدان بضع رزم ورقية مالية، وخرتيت بشري خمسيني، أبيض اللون، له قرنيتان خضراوان، ورأس أصلع، سمين، هناك تكتلات دهنية بارزة في منطقة الرقبة، يرتدي سلسلة ذهبية سميكة حول رقبته، وخواتم ذهبية فاقعة اللون حول أنامله القصيرة، على فخذه اليمنى جلست حسناء ذات شعر أشقر يميل إلى اللون الفضي، كانت تمرر أناملها فوق وجهه برفق، لم يختلف كثيرًا عن الصور. تجمدت الحياة بمجرد دخولي، وبدا أنني مدين ببعض الأجوبة.

صاح الرجل الذي كان ينقع رأس أحدهم في الماء البارد: - هي طابونة يا كوكو؟!

- أنا جايب طلبية البيتزا!

رفع حاجبه ثم صاح فيهم:

- مين اللي طلب أكل؟!

جاوبه الصمت، ليتساءل مجددًا:

- مين اللي طلب منك يا كوكو؟!

رمقته طويلًا، ثم ابتلعت ريقي مبتسمًا، كان يمتزج ببعض الغضب من أسلوبه لكنني تظاهرت بالقراءة من فوق العلب: - كازينو وبار «بريستيج»، خاص برجالة سامر بيه!

توجه بسؤاله إلى أحد العادِّين، الذي كان يبلل إبهامه كل ثانيتين تقريبًا: - ممكن يكون الفنان باعتلنا أكل زي المرة اللي فاتت؟ ما تشوفله نمرة يا كوتش!

ضحك الخرتيت قائلًا:

- لو هو فعلًا، هشوفله كلبة!

عاجله الرجل الآخر ضاحكًا بعدما انتهى من عد رزمته: - أو نشوفله تربة!
ضحك الخرتيت بصورة أعمق، وتظاهرت الحسناء بالضحك أيضًا، علقت أنا: - فيه أربع بيتزات مدفوع تمنهم، تحب أسلمهم لحضرتك؟!
ضحك ذو السيجارة، ونشف رأس الرجل السكير، صاح بعدما أطلق شهيقًا نابيًّا من أنفه: - ماشي حضرتك!
أشار إليَّ سامر، بأن أتركهم، فعلت ذلك، وأخذت العلبة الخامسة وهممت بالرحيل، ليستوقفني: - كده فيه واحدة ناقصة!

- لا هم أربعة بس.

- بس إحنا خمسة.

استدرت لأواجهه قائلًا:

- ممكن تطلب واحدة كمان من أبليكيشن الموبايل.

تابعت الخروج ليستوقفني صوته:

- أنا راجل قديم، بافهم في الكاش بس.

ثم صاح في الرجل ذي السيجارة المدلاة:

- يا قرشي!

نفض قرشي عن يديه الماء، مُخرِجًا بضع عملات ورقية من جيبه، ليظهر من تحت معطفه حزام به سلاح لم يقصد أن يريني إياه، اعترضت بدوري: - للأسف دي طلبية زبون! هاخد جِزا لو ما سلمتهاش.
شعرت بيد غليظة تضغط على كتفي لأجلس، جلست في مقابل الخرتيت، كان سيناريو مخالفًا لما في رأسي، لكنني أحببته، القدر مؤلف بارع.
داعب شعر الشقراء، ثم رمقني مبتسمًا، قال بصعوبة تنم عن شحم كثير يمنع رئتيه من أداء وظيفتهما: - تِعرف أنا مين؟
نظرت حولي متفحصًا المكان معلقًا:

- الشخص الوحيد اللي أعرفه في المكان ده هو أنا.

- بلاش السؤال ده، تعرف آخر واحد قال «لأ» لأبو سامر حصله إيه؟!

- أتخيل الحد ده زعل.

- ما زعلش كتير، دقيقتين بس.

أخرجت علبة سجائري وأشعلت واحدة، تنفست منها ووضعتها جانبًا، في مطفأة قديمة ممتلئة. تساءلت: - صالحته بعدها؟

- لا يا بوص! ما فضلش منه حاجة بعدها عشان أصالحه، زومبا وجيمي عنيفين أوي.

حركت رأسي إيجابًا مشيرًا بالسيجارة:

- أتوقع إنهم مش بشر.

- جدع!

حصل على رشفة من علبة بيرة أمامه مردفًا:

- وأنا أتوقع إنك مش بتاع بيتزا.

قالها لتتجمد قطع البيتزا في فم السمين الآخر، وتحسس قرشي سلاحه، تابعت بهدوء: - غريب الاستنتاج ده يا أبو سامر!
حاول قرشي صفعي لقولي اسمه من دون ألقاب، لكنه منعه بنظرة حادة من عينيه الخضراوين الجاحظتين، ثم تابع بعدها تمخُّض فيه وبصق بعيدًا عني: - الغريب هو رد فعلك يا بوص!

- رد فعلي طبيعي، باوصَّل شغلي وباطير!

- طيرة عن طيرة تفرق يا بوص!

- يا ريت تكلمني عربي!

ضحك طويلًا وتابع بعدما ارتشف مجددًا من بيرته مشيرًا إليَّ بسبابته السمينة: - كده أبدأ أحبك!
وتابع:

- مفيش طيار ديليفري عاقل يطير وينزل في حضن زومبا وجيمي، قلتلك طيرة عن طيرة تفرق!

تنفست من سيجارتي مجددًا وأردفت بينما أنفخ سحبًا كثيفة: - شوَّقتني أعرف أكتر عن رجالتك!
أشار إلى مَن معنا في الغرفة متسائلًا:

- دول؟

- لأ، زومبا وجيمي.

- آاه، هههه، دول حيوانات لطيفة.

- كلاب؟

- ضباع! تسمع عنها؟!

- أسمع إنها بتاكل الميتة.

قلتها وأطفأت السيجارة، عاجلني:

- أو المتكتف. بتمضغ العضم زي اللبان بالظبط، الجمجمة ما بتاخدش أكتر من دقيقتين.

حركت رأسي إيجابًا، لكنه رمقني بتلك النظرة وزالت ابتسامته: - مين باعتك بالأكل يا كوكو؟

تجاهلت اقتباسه للاسم المهين من قرشي وابتسمت، ثم شعرت بغتة بيد تجذب فروة رأسي وتصفعه بالطاولة التي أمامي، كان قرشي ذا السيجارة، وضع بعدها البيتزا بجانبي، وأخرج شريحة عشوائية وحشرها في فمي، حاولت مقاومته ولهثت كثيرًا وأنا أقاومه صارخًا، لكن رأسي بدأ في النزيف وسقطت طاقيتي، مضغتها وابتلعتها عنوة، ارتخت يداه بعدها. مرت بضع ثوانٍ، لملمت جأشي ومسحت الدماء عن جبهتي مستخدمًا بضعة مناديل ألقاها لي قرشي نفسه، حدثني الأخير بعدما اطمأن أن ليس بها شيء. وفتش جيوبي وقدمَي: - إجراء روتيني يا كوكو ما تزعلش!

تابعت مسح الدماء حتى هدأ الجرح، وابتلعت ما تبقى من البيتزا وارتديت غطاء رأسي مجددًا، شرعوا في الضحك بهستيريا، ثم تابعوا التهام البيتزا. حاول مساعدتي في هندمة ملابسي بعد فِعلته كاعتذار منه. تساءلت: - هي دي الطريقة اللي بتعامل بيها بتوع الديليفري يا باشا؟ تئذيه أو تعرفه على حيواناتك؟

ابتسم أبو سامر وعلق بوجه لا يخلو من التعجب:

- لا! الرجالة اللي بترفزني بس، أنا حاسس إنك طيب، ومش هترفزني. وأنا لما باجوع باترفز.

صمتٌ لبرهتين، أشعلت سيجارة جديدة ومسحت بضع قطرات من الدماء ممزوجة بالعرق، رمقته ببعض الهدوء المبالغ فيه: - أنا ما أقدرش أديك البيتزا دي.

دفع الشقراء قليلًا وتجهم وجهه، اقترب بجسده من الطاولة التي تفصل بيننا وقال بنبرة مخيفة: - كنت متأكد! أنا عرفتك من أول ما دخلت! تسمع عن الناس اللي انكشف عنها الحجاب؟

صمتوا جميعًا، وتأهب مساعده وفرك يديه من كثرة حماسته.

مرت ثانيتان قبل أن أجيب بوجه حاد:

- تسمع عن «ظل»؟

تغيرت معالم وجهه لتظهر عليه علامات غضب مكبوت، أردف: - مش غريب على ودني!

بخفة يد أخرجتُ صورة لجثته قطعتها من جريدة وألقيت بها أمامه، التقفها

وفتحها بأصابعه الغليظة، أردفت: - ولّا غريب على عنيك.
ابتسم قائلًا بصوت أكثر هدوءًا:

- مش قلتلك إنك مش بتاع بيتزا!

- إنتَ صح!

وقفوا جميعًا متأهبين، ليتابع السمين بعدما ساد الصمت: - اللي باعتينك عايزين إيه؟!
نظرت إليه طويلًا في عينيه، وحركت رأسي إيجابًا، ثم فتحت علبة البيتزا ليظهر بداخلها مسدسا «بريتا» من عيار ٩ مللي مثبتين بإسفنج في المنتصف، فوقهما أربع قطع بيتزا للتمويه، أردفت بنبرة واثقة بينما أدير العلبة تجاهه: - عايزين يبيعولك منتج!
ضربت بقبضتي على جانبَي العلبة ليطير السلاحان في الهواء، تسارعت ضربات قلبي، وتباطأت حركاتهم وهم يهمون بإخراج أسلحتهم، كأننا نتعارك تحت سطح الماء، وأنا الوحيد الذي خارجه.
قذفت بقدمي الطاولة لأدفع نفسي إلى الخلف محاولًا الإمساك بالسلاحين، كانت أشبه بلحظات انعدام الجاذبية في الفضاء؛ كل شيء يعوم في الهواء، مسدسا «بريتا»، قطع من البيتزا، ورفرفة أجنحة ملائكة الموت، تحوم قبيل لحظات من خروج نفحات مقدسة، من أجساد بالية.
ما إن لامست أناملي مقبضَي المسدسين حتى تركت لها حرية التسلل للزناد وطارت تسع رصاصات، تلاها صوت ارتطام ثم سكون، ثم صوت غناء صاخب ارتفع في الخلفية، خُضبت جبهة الحسناء برشاش دماء خرج من مساعده، صرخت صرخة قصيرة ثم سدت فاها بكف يدها، بدا أبو سامر غاضبًا، على الرغم من أنني لم أُعرِّف طلقات مسدسي على خلايا مخه بعد، لقد سقطوا جميعًا سواه.
صرخ فيَّ بوجه متعرق ونبرة يملأها الذعر:

- مين اللي وراك؟ مخابرات؟ حد من الناس الكبار؟ المحكمة؟

- مجرد راجل!

- اديني فرصة أكلمه، مكالمة واحدة! هادفعلك أي رقم!

صمتُّ طويلًا، استندت شفتاي إلى ظهر «البريتا» الملتهب كأني أفكر في الأمر، ثم صوبته نحو كتفه وفجرتها، صرخ كالعاهرة، قذف الحسناء بعيدًا

لتسقط أرضًا، وأمسك بكتفه المنفجرة بالدماء، بالكاد وصلت يده السمينة إلى مكان الإصابة، تابعتُ: - هتقابله ببلاش!

اتسعت عيناه الخضراوان، ظهرت عليه علامات الغضب، ثم تبدلت إلى ابتسامة متشفية قائلًا بضحك هستيري، جعل كلماته تخرج بصعوبة: - دلوقتِ افتكرت يا بوص! «ظل»! إنتَ هنا عشان صاحبك السوري الأهبل، اللي فضل يعيط زي المَرَة الـ... عشان أرحمه، ما تقدرش تقتلني! إنتَ عارف كويس لو طلعت من هنا بالـ...

عاجلته بطلقة سريعة في منتصف جبهته أجبرته على النوم مبكرًا، لديَّ مبدأ بسيط: اثبت خطأ النظرية أولًا، ودعنا نتناقش لاحقًا!

كانت الحسناء ملقاة أرضًا في حالة صدمة، تستند بظهرها إلى الحائط، يميل رأسها الملطخ برشاش من الدماء لم يخصها، تشرد عيناها - من دون أن يرتد طرفها - في اتجاه واحد من دون انقطاع، وحولها لوحة دموية سريالية تكونت من جثث ممزقة.

سمحت لنفسي بالاستلقاء بجانبها، همستُ بينما أراقب الفراغ معها، كنا كطفلَي كشافة يراقبان النجوم في ليلة صافية: - بتفهمي عربي؟

أومأت برأسها لأتابع معلقًا على النجف القديم المعلق: - الجيبسون بورد كان هيبقى أفضل بكتير من المنظر ده!

حركت رأسها إيجابًا مجددًا لأتابع:

- اللي عندك حاليًّا اسمه «اضطراب ما بعد الصدمة»، بياخد شوية وقت، لو طوِّل معاكِ أنصحك تاخدي «سيرترالين»، بيساعد!

نظرت إليَّ بعينيها المتسعتين رعبًا من دون أن تنطق، تابعت همسي: - أنا عارف شكلك وإنتِ عارفة شكلي، بس خلينا ننسى الموضوع ده لمصلحتنا إحنا الاتنين، لو موافقة حركي راسك!

صمتت لثانيتين ثم أومأت، يبدو لي أنني عبثت بتخيلاتها، لربما كانت تنتظر أن أنهي الأمر معها بطريقة أخرى. تابعتُ: - تسريحة شعرك جميلة! زي رسم فان جوخ.

لم تحرك رأسها تلك المرة، بل ظلت تحدق إليَّ، والموسيقى الصاخبة الرديئة في الخلفية تزداد صخبًا.

في طريقي خارج البار أطبقت الطاقية على وجهي، ناظرًا تجاه الأرض كلما اقتربت من الكاميرا، ما إن بعدت عنها حتى قصدت شارعًا جانبيًّا، لكن كتفي

احتكت بشخص فارع الجثة، يفوح جسده برائحة مقززة.

كنت لأعتذر له لولا أني شعرت أنه يقصدها، مهلًا! لمَ قد يقصدها؟!

تابعت طريقي - وتجاهلت الأمر - قاصدًا الدراجة النارية حتى بدأت الموسيقى تتلاشى في أذنَي لكنني سمعته يقولها: - مش الأصول، تشوف الدوبل تسلم عليه؟

تجمدت عن المشي، هناك شيء ما يريد عقلي البوح به، شيء في نبرة الصوت، شيء في رائحة عرقه النفاذة التي تشبه رائحة البول النتن، والأكثر من ذلك: الاسم.

هناك شيء في الاسم!

في قوانين أفلام الكارتون: تفلت الفريسة من الذئب لو لديها علبة طلاء وحائط، لأنه يمكنها ببساطة رسم باب ما على ذلك الحائط، ومن ثَمَّ الهروب منه ومسحه بعد ذلك، ماذا لو لديك كل شيء: الطلاء، الحائط، لكنَّ ذراعيك معطلتان؟

قبلها بعدة أسابيع

كنت أراقبها - جارتي ذات رائحة التوت البري - في طريقها إلى الجامعة، من خلف شباكي العاكس، هناك ضوضاء خفيفة تخرج من التلفزيون وألوان تنعكس فوق وجهي، كارتون «رود رانر» يعمل في الخلفية، يهرب الطائر من الذئب فيحاصَر، ثم يرسم على الجبل صورة نفق فيمر منه.

شعرت أن البرد قارس ذلك اليوم، تراقصت بضع ورقات جافة مع كيس بلاستيكي أمامها، كانت تشير إلى والدتها في الطابق المقابل لي، هل ستتذكرني هي بعدما أغادر هذا القطار؟ هل ستحزن عليَّ؟ لِكم يوم؟ لِكم ساعة؟

تحسست جسدي، أشعر أنني سأظل أفقد الوزن حتى أتلاشى، بالضبط كالأبطال الخارقين في أفلام الخيال العلمي، ما زالت عضلاتي تمتلك اليد العليا في بناء جسدي على الرغم من ذلك، أعني أنني لم أصل إلى مستوى جسد مايكل جاكسون، أو كريستيان بيل في فيلم «ذا ميكانيك»! لكن نحافتي أضحت مخيفة.

قلبت قناة الكارتون حتى وصلت إلى راديو «أونس»، تحسست وجه فداء على الشاشة، كانت مرهقة، أو خُيل لي ذلك.

«مقطوعة رائعة بالفعل لهانز زيمر، الآن نعود إلى السؤال: برأيكم، ما سبب انتشار الجريمة في الوطن العربي وأوروبا على الجانب الآخر؟».

عاجلتها بدوري:

- تبدين مرهقة اليوم، هل ما زلتِ تفكرين في حديثنا الأخير؟

شهقت تلك المرة أيضًا، على الرغم من أنها لم تُظهِر ذلك، يبدو لي أنني رأيت ابتسامة على وجهها الناعم تلك المرة، هل ظنت أنني لن أتحدث مجددًا؟

عاجلتني:

- لا يمكنني إنكار أن حديثك له تأثير! هل تود الحديث بالعربية اليوم؟

- هي أقرب إلى قلبي من الألمانية.

- لم أكن أعلم أنك تتقن الألمانية إلى تلك الدرجة!

- عرفتِ ذلك من جملة واحدة؟

- يمكنني أن أعرف ذلك من كلمتين متصلتين.

- الأهم من اللغة، المعلومات التي توصلها الكلمات، أليس كذلك؟

- لا يمكنني الجزم بها، على الرغم من بريقها، أقصد المعلومات.

تابعت الإنسانة الآلية إيما الترجمة لأعاجلها:

- هناك أنواع كثيرة من الجرائم: جرائم نفس، وجرائم وقتية، جرائم سياسية، كراهية. أريدك أن تقولي لي: لماذا تزدهر جرائم النفس والكراهية في العالم؟

- على الرغم من أنه مخوَّل لي السؤال، فإن الإجابة سهلة: الطبيعة البشرية.

- ولماذا لم تشتهر جرائم الكراهية في الأربعينيات إذن؟

- كان العالم أكثر تسامحًا، ربما.

- لكنه الإنسان نفسه، أليس كذلك؟ ساعتها لم تأخذ «الميديا» أمرًا بتأجيج الموقف، هوليوود لم تنتج فيلمًا مثل «القناص الأمريكي» مثلًا، اليمين في أوروبا لم يُبرمَج للهجوم على اللاجئين، مثل اليمين في ألمانيا قبيل الحرب العالمية الأولى، لم يأمر باستهداف اليهود حينذاك، الذين بدورهم يستهدفون العرب الآن بالكيفية نفسها لكن على نطاق أكثر دموية. الأمر متعلق برسالة بسيطة.

- رسالة ممن؟ هل تتحدث عن العائلات مجددًا؟ هل ما زلت تفكر في مجلس إدارة العالم؟

- مجلس إدارة العالم، الماسونية، كل هذا الهراء هو هراء جيد للكتب والأفلام، أنا أتحدث عن مجموعة من الأشخاص يمتلكون المال، يمتلكون الإعلام، مناصب في أقوى جيوش العالم، يغيرون الدستور العالمي وقتما يرون ذلك، يلعبون دور الإله من دون أن يستحقوا الأمر، يقررون مَن يستمر بينهم، يقررون متى يصبح الانقلاب العسكري بطولة، ومتى يصبح ضد الديمقراطية، حتى إنهم يقررون متى يصبح المخطئ ضحية، والضحية جانيًا!

قلبت في الصور حتى ظهرت أمامي صورة لمحاكمة حدثت في الولايات المتحدة في بداية الألفية الجديدة، أردفت: - هناك رجل أُدين بدهس طفل تحت تأثير الكحول، في الولايات المتحدة، وحصل على عقوبة مخففة مستغلًّا بحثًا قدمه للمحكمة يتحدث عن عامل وراثي يُدعى «KLB». كيف تتقبلين ذلك الأمر؟

صمتت طويلًا وأضافت بنبرة مترددة:

- لربما الأمر صحيح، لربما نحن ضحايا.

- هكذا تكلم مغتصبو الأطفال أيضًا!

- كيف تجرؤ أن تقول لي شيئًا كهذا؟!

- الأمر لا يتعلق بالجرأة، يتعلق أكثر بحقيقة تحدث الآن في الغرب، بعض الجماعات المؤيدة لذلك النوع القبيح من الأفعال يلقون اللوم على أبحاث هشة، تشير إلى تورط نوع من مستقبِلات الأندروجين في الأمر، هل ترين الصورة كاملة يا فداء؟ العالم لن يصبح كما عهدناه بعد عقدين من الزمان من اليوم، لربما بعض القتلة الدمويين أيضًا يحبون الدماء لأنهم يمتلكون جينات أكثر شراسة، تخيلي! الكل سيجد عذرًا لما يفعل، هتلر وجد عذرًا لقتل اليهود، تمامًا كما وجد اليهود عذرًا لما يفعلونه في الفلسطينيين!

- لديَّ سؤال لا يمكنني إخراجه من رأسي.

- لربما ساعدتك في ذلك الأمر.

- هل قابلت أحدًا من هؤلاء من قبل، أعني في نطاق عملك؟

صمتُّ ثانيتين ورددت:

- تتحدثين عن الدمويين؟!

بجانب بار «بريستيج» الآن

«الدوبل»، هناك شيء في الاسم!

شيء يجعلني أريد التقيؤ، لكن لا أعلم السبب، كل شيء يدفعني إلى التذكر؛ رائحة العرق، نبرة الصوت، صور متتالية، صرخات طفلة، وهيكل عظمي، يعاينه ضابط شرطة سمين الجسد، ملقى في أرض صحراوية، وغرفة بها الكثير من الدماء والثلاجات.

ومهلًا! صورة لي وأنا أفجِّر صدره بعدة طلقات، بعد أن فصلت ساقيه. ما مصدر تلك الذكريات السادية؟!

بطريقة غريزية أخرجت مسدسي وطرحت علبة البيتزا جانبًا مشيرًا إلى رأسه.

عاجلني ساخرًا:

- هي دي الطريقة اللي تحيِّي بيها الدوبل؟ ده إنتَ آخر مرة شُفتني قطعت جسمي وحرقت قلبي، كده توجع قلبي يا سيادة المستشار؟

آثرت الصمت بضع ثوانٍ، ثم تابعت متجاهلًا إحساس الذعر بداخلي:

- قلبك كبير!

قهقه قليلًا، قاومت رغبة في إعادة حشو قلبه ببضع طلقات، أعلم أني لا أطلق النار على الأشخاص كنوع من أنواع الرياضة، لكن لو أنني أتذكر لمَ قتلته من قبل؟! هل قتل طفلة ما؟ وما تلك الصور التي يعرضها عقلي وتلطخها الدماء؟ هل قتلته فعلًا؟! وكيف يقف أمامي؟! هل يمازحني عقلي؟! تساءلت ساعتها لو أن الورم تطور لما تنبأ به الدكتور أبيض، أو أنها مجرد هلوسة حية!

حفنة أسئلة متصارعة لم يكن ليسكتها سوى طلقة جديدة في جسده، ما إن قررت أن أعتصر الزناد حتى لاحظت شخصًا معه يتسلل عن يميني ليغافلني، وجهت سلاحي نحوه بطريقة غريزية، ليختفي!

أتذكر أني رأيت شيئًا بلحاظ عينَي، عدت بذراعي إلى الدوبل، شعرت

بشيء فيها، مثل الكهرباء. أيقنت بعدها كل شيء؛ إنه الخووخ، إنها النوبة، اللعنة على كل خلية في جسدي.

حاولت التماسك، كملاكم مهشَّم وجهه، ينظر نظرة تحدٍّ بعدما شعر بخدر في كل جسده، ترنحت ذراعي بعدما ارتعشت، سقط المسدس من يدي، ابتسم لي، أذكر أنني لم يتملكني الذعر في كثير من المواقف التي ابتسم لي الموت فيها، لقد شعرت برهبة لم أعلم مصدرها.

وجدت شيئًا استندت إليه، ثم جلست، بدأت النوبة في الازدهار، اقترب مني واضعًا يديه الضخمتين في جيبيه، تابع الابتسام، ثم أطعمني لكمة واحدة، ذهبتُ بعدها إلى نوم عميق.

«الدوبل»، هناك شيء في الاسم.

شيء به لعنة.

محافظة المنيا، منطقة المحاجر

شتاء ٢٠١٢

تصارعت تيارات الهواء البارد المطلية بالغبار الأبيض الثلجي، كان المكان يشبه أرض أحلام بيضاء، أو سهلًا ثلجيًّا في ألاسكا، تحرك في الخلفية بضعة رجال ملثمين، يدفع أحدهم آلة بها منشار كهربائي مرعب الشكل، يشبه دراجة الشاطئ ذات العجلات الأربع، إلا أن العجلتين الأماميتين استُبدل بهما هنا منشار مزدوج الشفرة، يمر المنشار الضخم فوق قضيب خُصص له، كان جحيمًا بيضاء يعلمها مَن ألقى به قدره هنا، فإما أن تموت بسرطان الرئة، وإما تُبتر أطرافك وتصاب بعجز كلي، والأصعب، أنهم مثل غيرهم، لا تلقي لهم الحكومة بالًا، لمجرد أنهم منسيون.

ترجلت من باب السيارة النقل طراز «سكانيا»، كانت ملابسي رثة، ووجهي ملثمًا بشال عربي منهك، تختبئ قدماي داخل بوت عملاق بلاستيكي رديء الصنع.

صحت:

- الحمولة هتتأجل ساعتين!

توقف الجميع تدريجيًّا، ثم سمعت صوتًا يعرفه عقلي، جاء من رجل يجلس القرفصاء، منهمكًا في تثبيت جزء من قضيب ما فوق الأرض البيضاء الناصعة، وفوق القضيب استقر منشار ساكن: - تبع الحاج يسري؟

كان صوت سعد الدوبل.

تابعت صائحًا:

- أيوه، الريس عزيز هيصلح حاجة في الموتور، وبعدين هنحمِّل ونمشي.

رمقني طويلًا، ثم عاد إلى ما يفعله متسائلًا:

- والصخر هيتحمل لوحده؟!

رمقت الصخر المتناثر حولي:

- الرجالة جاية ورانا. قول لرجالتك تتغدى، قدامنا وقت كتير.

أحكمت الشال على رقبتي وأضفت:

- وشغل كتير.

حرك رأسه إيجابًا وكشف الشال عن وجهه، تلك الابتسامة، ذلك الحور في عينيه الحادتين، جسده النحيف غير المتناسق مع ذراعيه الضخمتين، وصدغه الكبير، رائحة العرق النفاذة التي تشبه البول؛ كان هو!

أخرج سيجارة، حرق طرفها ثم جلس مستندًا إلى ظهر المنشار يدخنها، أشحت بوجهي تجاه العمال، كانوا منهمكين في إعداد وجباتهم المتواضعة، المختلط طعمها بدرن المحاجر، سألت الدوبل مشيرًا إلى الطعام: - ملكش في الطيب نصيب؟

شرد بنظره بعيدًا، ثم عاد ضاحكًا:

- الطيب عندي في التلاجة!

- هتتحمل السفر وإنتَ جعان؟ القاهرة بعيدة.

- طالما الجايزة تستاهل، يبقى نستنى يا صاحبي!

مال برأسه مضيقًا عينيه وتساءل:

- عرفت إزاي إني من القاهرة؟

- الريس يسري، كلمني عنك.

حرك رأسه إيجابًا وتابع:

- وإنتَ مش هتاكل؟ برضو بتحلم بتلاجتك؟

صمتُّ لبرهة ثم أجبته:

- أنا سبقتك.

تابع إطلاقه لسيل الدخان، استطردت محاولًا لفت نظره:

- أكلت حتة لحمة حلوة، كانت جيالي هدية.

بصق بعيدًا بعدما عاد ليعاين شفرتَي المنشار معلقًا:

- بتلعب على أعصابي إنتَ!

- شكلك أكيل!

حرك رأسه إيجابًا ماطًّا شفتيه وتساءل:

- عِرق فليتو؟ ولا كتف؟ ضاني ولا بقري؟

صمتُّ قليلًا، ثم باغتُّه:

- بشري!

قهقه قليلًا معلقًا:

- حلوة!

لثانيتين تابع عمله في المنشار لكنني لم أرد، تجمد، ثم ترك ما في يده، والتف على مرحلتين، سألني بثبات: - تقصد إيه؟

- أقصد اللي قلته!

ضحك على مرتين، وحرك رأسه استهزاءً وتابع عمله بعدما أطلق سيلًا رماديًّا جديدًا، لكني تابعت: - أنا راجل عندي ذوق غريب في الأكل.

- بس عمري ما شُفتك قبل كده!

- ياما صحاب اتعرفوا على بعض في لحظة.

- بس أنا - لا مؤاخذة - مش محتاج صحاب جداد.

تجاهلته وتابعت:

- الدبيحة كانت صغيرة في السن!

حرك حاجبه تعجبًا وأردف:

- بتحب البتلو كمان؟

- أي حتة لحمة مسكرة وطرية، باحبها!

ألقى بسيجارته بعيدًا، وضيق عينيه مدققًا في جنبات وجهي الملثم، ثم أمسك بقطعة قماش ومررها فوق المنشار فانشطرت نصفين، وضع نصفًا في جيبه، وأفرغ أنفه في الآخر، مسح أصابعه في جسده متسائلًا: - تعرفني يا صاحبي؟

- أخوك حبيبي يا سعد!

رفع حاجبيه بتعجب ثم تساءل:

- ومخبي وشك ليه؟

لم أرد على سؤاله، تجاهلني وتابع دق مسمار في القضيب متظاهرًا بعدم اهتمامه، ثم علق: - سعيد هو اللي عرَّفك السكة؟

- تقدر تقول: اكتشف الموهبة جوايا!

- غريبة! إذا كان هو نفسه مش موهوب.

- ما بياكلش؟

- بياكل! بس كان بيقرف م الحوارات دي في الأول.

- أهو أدمنها!

- عرفك إزاي تدوب العضم؟

- أعرف كل حاجة تتخيلها.

أخرجت صورة لفتاة مراهقة جميلة الوجه أمام عينيه، ألقيتها بأصابعي فطارت في الهواء حتى استقرت بجانب المنشار، قطب حاجبيه وهو يطبعها في ذاكرته، ثم أشاح بنظره تجاهي. تابعت: - لكن دي اللي مش عارفها!

مال برأسه محققًا في وجهي الملثم مجددًا، كأنه يريد أن يخترق الشال ويرى ملامحي.

تساءل بنبرة واثقة:

- يهمك تعرف؟!

رمقته بعينين ثابتتين من دون أن تنبس شفتاي بأي كلمة، تابع هو:

- أنا كمان ما أعرفهاش! أول مرة أشوفها.

مرت ريح بسيطة محملة ببعض العفرة البيضاء، انتظرت حتى هدأت، تأكدت أن العمال ذهبوا إلى أبعد مكان، تابعت: - الهوا غضبان، حاسس إنه مش مصدقك!

- ما هو هوا يا صاحبي! ملوش قيمة.

اقتربت خطوتين قائلًا بنبرة أكثر هدوءًا:

- الهوا ممكن يوقع جبل!

ترك ما يفعل واستقر على ركبتيه، ودار ليواجهني:

- والجبل وقعته وحشة!

أخرج من جيبه سكينًا صغيرًا، ما لبث أن ضغط عليه لينفتح، لمع السكين أمامي، تابع: - مش الدوبل اللي يتحقق معاه!

ألقيت صورة أخرى بجانبه، كانت قد اتُخذت من كاميرا المراقبة، كانت للفتاة نفسها تتحدث فيها معه، بدا عليه التوتر، ثم سيطرت عليه رعشة ظهر أثرها في نصل السكين، انفعل صائحًا مخرجًا هاتفه: - أنا هاكلم سعيد وأعرف إيه حكايتك!

رمقته طويلًا، كان لا يزال على ركبتيه، ثم أخرجت «البريتا» الخاص بي من خلف بنطالي، ملصقًا به كاتمًا صغيرًا للصوت: - أخوك عايش فين؟

اتسعت عيناه، وتراجع عن طلب الرقم مذعورًا، ثم خبأ الهاتف في جيبه مجددًا: - بيغير عنوانه كتير! وأنا بانسى بسرعة.

اقتربت منه خطوتين أخريين، أصبحت المسافة بيننا مترين فقط. وأشرت إلى الصورة بسلاحي: - أقدر أساعدك تفتكر!

قلتها واقتربت منه ليتراجع قرب القضيب المعدني، أشعلت فتيلة المنشار الكهربي الكبير، ليحاول الدوبل التراجع، لكنني صوبت المسدس نحو رأسه مهددًا: - يا طلقة في الدماغ، يا تخسر رجليك.

ارتعش قائلًا واللعاب يتناثر من بين شفتيه، بينما رُسمت على وجهه ملاحم رعب لم تُتلَ بعد: - أبوس إيدك! أنا... أنا... ما أكلتهاش، دي كانت فترة في حياتي وانتهت!

- كلمني عن آخر ضحية!

ارتعد قائلًا:

- مش فاكر، مش فا... بقالها شهور! هتـ... هتلاقيها في التلاجة، أنا ممكن أوريهالك، بس والله مش هي!

طلبت منه أن ينبطح أرضًا أمام المنشار، وألقيت له قطعة قماش من جيبي ليضعها في فمه، قلت بنبرة هادئة: - عض دي! الألم هيبقى شديد!

حاول بعدها الدوبل أن يشتري كل أوراق اليانصيب لعله يفوز، مِن رجل يبيع أرقامًا مزورة: - هاعمل أي حاجة، معايا فلوس ملهاش عدد! هادِّيك اللي إنتَ عايزه، اطلب أي شيء هادِّيك، حتى لو أطفال، حتى لو نسوان، مخدرات!

قلت بنبرة واثقة:

- هاعد لحد ٢.

التقف القماشة بعدها ووضعها في فيه مرتعشًا، ثم تمرد قاذفًا إياها بعيدًا.

صوبت سلاحي نحو رأسه، بدأ يحرك رأسه نفيًا، والعرق يتصبب من جبهته، نزلت ذراعي وتظاهرت بالاستجابة: - هابيعلك منتج! لو اشتريته ممكن نتفاهم!
ارتعش مبتسمًا:

- اشتريت!

حركت رأسي إيجابًا، ثم أحكمت كاتم الصوت على سلاحي وصوبت الطلقة الأولى تجاه ركبته ففجرتها، والغريب أن صرخته كانت أقل من مستوى الألم: - سارة سمير عبد الدايم.

تغيرت معالم وجهه ليظهر وحش قد أُورِيَ عني، وحش مبتسم على الرغم من تعرقه وألمه، أمسك بركبته وتشنجت عضلات وجهه وهو يكتم الألم وضحكة هستيرية، نظر بعيدًا ليرى العمال، كانوا على بُعد مسافة يستحيل فيها سماعه، رد بتشفٍّ: - طعمها كويس بس كلها دهون!

ثم تابع زاحفًا تجاههم معطيًا إياي ظهره صائحًا:

- طلبت منها تغني وأسيبها تعيش، صدقت الهبلة، وغنت بدراع واحد!

رمقته طويلًا، وعاجلته بطلقة جديدة في ركبته الثانية، صرخ قليلًا وبدأ في كيل سباب نابٍ طويل وتوعد، تركته ثانيتين ليبرد وتابعت: - هناء نصرت موريس.

توقف عن زحفه، والتف فوق الأرض، وقد بدأ الدم الداكن يطلي ما تحته من لون أبيض ناصع: - ما كانش فيها غلطة كبنت، ولا فيها غلطة كعشا، وخليتها تدوق طعم دراعها معايا، هاها! باحب أوي المشاركة! مهما كان اللي باعتك، لازم تعرفهم إني استمتعت، وإني علمت غيري الطريقة، كلنا حيوانات!

لا أعلم سبب النبرة الداروينية في كلماته، لكنني - على الرغم من تخيلي لكل السيناريوهات - لم أتخيل أن يحدثني بتلك الطريقة المقززة، شعرت أنني أريد أن أتقيأ. كل شيء سمعته ورأيته منذ أن اخترت تلك المحكمة، أو أنني لم أولد أصلًا، لربما انتصر هو في إيصالي إلى تلك النقطة.

وقد رأت هيئة المحكمة أن المتهم - بعد اعترافه - تُقطع يداه ورجلاه من خلاف، لكن في حالته، قررنا قطعها معًا، لإصابة الشرايين الفخذية جميعًا، مما يسبب فقدان ما يقرب من ثلاثة لترات من الدماء خلال دقائق معدودة، ليصاب المتهم بانخفاض حاد في الدورة الدموية، واختناق، حتى الموت، وهو أكثر رحمة مما يستحق.

وطلقتان في مفصلَي يده، ليصاب بعجز كلي، صرخ بعدها، وبدأ في نوبة بكاء متداخلة مع نوبات غضب، ثم رمقني بتلك النظرة؛ نظرة ذئب انتصر غضبه على كبريائه: - لو راجل قولي إنتَ مين؟!

لهث وأعاد السؤال بصوت يغلب عليه الصراخ، هدأت من روع سلاحي وأخفضته، كشفت عن وجهي، واقتربت منه ليراني جيدًا: - أنا راجل، ملايكة الموت بتتبعه وهو عايش!

ثم اتكأت على ركبتَي ليرى عينَي ذاتَي القزحيتين الداكنتين جيدًا، تابعت: - وهتختلف في مصيره بعد ما يموت.

اتسعت عيناه رعبًا، عدت إلى المنشار، دفعته بيدي، حاول الزحف بيأس، مر المنشار فوق فخذيه ليفصلهما مُصدرًا صوتًا مخيفًا ودماءً نجسة أصابت رقبتي، وانطلقت صرخة، لم تكن مكتومة كفاية تلك المرة، انتبه بعض العمال، وهموا للرجوع. كان أمامي بضع ثوانٍ، طفق يزحف على ذراعيه المصابتين كجندي نجا للتو من قنبلة، أرضية المحاجر البيضاء الثلجية مكسوة بشلال دموي، تبعته في هذه الصورة المتباينة، ثم استقررت بركبتَي فوق ظهره، تأكدت أن الشريان الفخذي قد بدأ يضخ نصيبه من الدماء، ثم لففته ليواجهني، كان وجهه مزرقًّا، أيقنت أن الأمر سيحتاج إلى بضع دقائق، مع الوضع في الحسبان أن أقرب مشفى على بُعد ساعة ونصف، بدا لي أن الوغد سيحظى بموتة يستحقها، سيختنق بعد أن تتم تصفيته، أردفت: - نُفِّذ الحكم بواسطة المحكمة صفرا!

قلتها وأطعمته طلقتين في معدته، ومثلهما في صدره. معدته التي لو استطعت لقطعتها بأسناني ثم أحرقتها. حصلت على هاتفه لعلي أصل إلى توأمه و... اختفيت.

«الدوبل»، هناك شيء دموي في الاسم.

الأمر الآن...

انتبهت!

نبضات طارقة تحرق نهايات أعصابي في كفي اليسرى، هناك سائل ساخن يمر من جانب أذني، نقاط دافئة تمر على رقبتي تسقط من كتفي لتطرق حذائي، أيقظتني، وأيقظتني رائحتها المعدنية، بدأت عيناي في الاتساع تدريجيًّا، هناك صورة مهزوزة أمامي، شخص ما يتحرك يمينًا ويسارًا، يرتدي

شيئًا، مثل مريلة المطبخ، في جيبها سلسلة مفاتيح، يبدو لي أنه شبه عارٍ، إلا أنه يرتدي نظارة نظر ذهبية اللون، تشبه طراز «ريبان» الخاص بالتسعينيات، هناك موسيقى قديمة الطراز، كأنها موسيقى العشرينيات، كأنني سمعتها من قبل!

ورائحة زيت تمتزج بطِن من البهارات، المكان ضيق جدًّا ورطب للغاية، ولسبب ما، لا أتذكر أي شيء، مهلًا! أين يدي؟! وما مصدر الألم في ذراعي؟ ولماذا لا أرتدي قميصًا؟!

بصعوبة حركت رقبتي لأجد يدَي مكبلتين فوقي بسلاسل، لم أحتج سوى ثانيتين لأوقن أن الألم في يسراي مصدره خطاف معدني، اخترق راحة يدي اليسرى، كانت هي سبب نقاط الدماء المتساقطة على قدمي، ابن العاهرة! لم يجد سلسلة أخرى ليدي اليسرى فعلقها كالذبيحة.

المكان كان عبقريًّا؛ شقة بُطنت حوائطها بعازل للصوت قليل التكلفة، ألواح سوداء تشبه كراتين البيض، التصقت على كل شيء تقريبًا، هناك بقع زيتية عليها من آثار الطبخ، هناك ثلاجتان في المطبخ الضيق الذي عُلقت فيه، بالطبع لا أحتاج إلى مفسر أحلام لأتخيل ما تحويه بطون تلك الثلاجات، ولقد سهَّل عليَّ الدوبل الأمر حينما ترك على خشبة التقطيع بقايا أصابع بشرية.

هناك تلفزيون قديم الطراز، أعني أنه يعود إلى مرحلة السبعينيات، ضخم الحجم، صورته مشوهة، فوقه صورة للدوبل مع شخصين بدوَا أكثر ثراءً منه، كانوا في منطقة زراعية، أحدهما في عقده الثامن، يرتدي قبعة أمريكية من طراز رعاة البقر، في يد الدوبل بندقية، وطائر ميت، يشير به إلى الكاميرا بسعادة، كأنني رأيت ذلك المشهد سابقًا، أو على الأقل، العجوز صاحب القبعة.

اتضحت صورته أمامي، الآن تذكرت! لقد لقبوهما بـ«الدوبل» لأنهما توأمان، يتشابهان في كل شيء، حتى دمويتهما، كانا يعملان في مجال المحاجر ونقل الصخور، ويديران نشاطًا خاصًّا بهما ليلًا، لديهما نهم غريب باللحم عمومًا، والبشري خصوصًا، يقال إنهما قتلا ما يقارب ثلاثين ضحية، لم يستطع أحد أن يمسك بهما، حيث إنهما اتبعا طريقة مبتكرة في التخلص من العظام، عن طريق حرقها ثم طحنها. لم يكونا شيطانين، الدوبل كانا قصة رعب تحكيها الشياطين حول النار في رحلات الكشافة! تلذذهما في إذلال الضحايا، برود أعصابهما، ثقتهما بما يفعلان.

والآن أتذكر أنني قطعت أوصال أحدهما، حينما قبلت قضيته بالمجان منذ بضع سنوات، وبطريقة ما - كنت أتمنى أن أعلمها قبل أن أتحول إلى سجق مدخن - يبدو أن أحدهم قد سرب الأمر لتوأمه الغاضب، بل وأعلمه مكاني، كأنه كان يعلم أني سأقبل قضية المستهلك الذي قتلته في «بريستيج»، هل كان كل شيء مخططًا من المحكمة؟ مجددًا، اللعنة عليَّ!

لا أعلم ما كان يجب أن أفكر فيه ساعتها، كنت أتمنى أن يمر الأمر سريعًا، من دون ألم، أو نهاية كارتونية سريالية. ألطخ فيها الحائط بطلاء يتحول إلى باب، فأفتحه وأفر هاربًا، لكن تلك هي الحقيقة دائمًا، أصعب من أي شيء.

أشار إليَّ الدوبل بالسكين:

- بتنام وإنتَ واقف!

اعتدلت قليلًا محاولًا تقليل الضغط على يسراي، جاوبته ساخرًا بصعوبة: - ما ينفعش تشغل موسيقى زي دي لو عايزني فايق يا سعيد!

صمتَ مستوعبًا ما أقول، ثم ابتسم متابعًا:

- باسلي نفسي لحد ما تصحى!

ثم تابع وهو يشير إلى كيسَي دماء لم ألحظهما من البداية:

- كل المهرجان ده معمول على شرفك!

كنت أتمنى كثيرًا من الأشياء، لكن يبدو لي أن الملاك الأسود سيشعر بالملل من طول فترة موتي، لأن - ذلك العاهر - الذي أمامي سيمدني بكثير من الدماء ليضمن أنني سأشاهد كل شيء في سينما الرعب خاصته، من المقعد الأمامي في المنتصف، لا عجب لو أحضر لي بعض الفشار لأستمتع بالمنظر.

تأوهت قليلًا ثم تمتمت بصعوبة واللعاب يسقط من فمي:

- بس أنا ما طولتش مع أخوك!

- صحيح؟ سمعت إنه خد أربع دقايق منك في المحجر.

- مين عرَّفك إني حاكمته؟

- المحكمة! باعتك بالرخيص.

- المحكمة ما بتبيعش مستشارين.

- مفيش حاجة ملهاش تمن، حتى ابن المستشار، و«لحم» المستشار كمان!

- أنا راجل مريض وباموت، ممكن ينتقل المرض ليك من لحمي ودمي، خد حق أخوك وخلصني بسرعة، أو سيبني أمشي وهادِّيك فلوس مش هتعرف تعدها!

رمقني بعينيه ذاتَي الحور، ثم تابع تقطيعه لبعض الخضراوات قائلًا: - تصدق! أنا ممكن أدفعلك أنا فلوس عشان تعيش ساعة أطول!

في أعمق نقاط الجحيم، لن يتخيل أحد أنني مررت بليلة كتلك، أشعر بالغضب أنني سأضطر أن أكذب حينما أقابل قرنائي هناك.

- هتاكلني مشوي ولا مقلي يا ابن المـ..؟

صمتَ طويلًا ثم اقترب مني ماسكًا سكينًا رفيعًا، شعرت أنني ارتكبت خطأً جديدًا، نظر إليَّ طويلًا ثم غرز سكينه في كتفي، صرخت، ابتسم! عدل من وضع نظارته، ثم أمسك بحلمة أذني مستخدمًا سكينًا قصيرًا كان في جيبه قائلًا: - قريت في كتاب التشريح إن فيه كمية أعصاب هنا بتخلي الألم مضاعف!

تنفست بصعوبة وقاومته، لكنه نجح في قطع جزء منها، صرخت بأقوى صوت ممكن، دفعني وذهب، ثم ألقى بالقطعة الصغيرة التي اقتطعها في الطاسة، ومسح دمائي من فوق يده بفوطة رطبة قائلًا: - ما طبختش مستشارين قبل كده!

ذهب باحثًا عن شيء ما في عدة تعذيبه، وأخرج سكينًا لامعًا، متوسط الحجم، عاد إلى طاسته المعدنية الكبيرة، وبدأ في تقطيع بعض الخضراوات من ضمنها الزنجبيل لتفوح رائحته، ثم بدأ في تفحص أكياس الدم، سالت أذني وآلمتني أكثر من الطعنة التي في كتفي، بدأت أدعو بداخلي أن يكون نوع الدماء من مجموعة مغايرة، حتى يتجلط بداخلي وأموت سريعًا.

الموت شيء عبقري! في بعض الأحيان هو هبة ممن صمم تلك الآلة، باب خلفي للهروب من العذاب الأبدي وصرخات الألم، باب خلفي للضحايا المختطَفة من قِبل السفاحين، لا يمكن أن يقتل سيكوباتي ما طفلًا بريئًا مرتين، في أغلب الأحيان لا يتألم مريض من مرض مميت لعقود، لكن بضعة أسابيع.

الموت باب خلفي عبقري للهروب، لكن في حالتي الآن، يبدو لي أن هناك مختلًّا ملعونًا قد أغلق ذلك الباب - وللأسف - كلما استفززته، حاول إطالة الأمد والتفنن في تعذيبي، أحتاج إلى معجزة لينتهي الأمر سريعًا.

صاح بثقة مخيفة:

- إحنا هنبدأ بالكتف ده! هنشوي الدراع، وهنلف الجرح علي قد ما نقدر عشان النزيف، هنعلق كيس الدم الأول طبعًا. هتاكل معايا! هاقلل عذابك وهاخلصك أسرع، هترفض تاكل، هاستخدم أدوات أصعب، أنا مش هاخزق عنيك غير في الآخر خالص!

تمامًا مثل سعد الدوبل، يشعر بالنشوة حينما يطعم ضحاياه جزءًا منهم، لربما الحل الأمثل أن أنتحر عن طريق قضم لساني، ماذا لو فشلت؟

حركت رأسي إيجابًا، وتأوهت من الألم، سألته بصوت متقطع:

- لـ... يه؟!

- لا مؤاخذة؟!

- ليه لحم البشر؟ إنتَ وأخوك، ليه بتاكلوه؟!

- آه دي قصة طويلة! هو أنا ما كنتش غاوي، سعد اللي كان ليه غية فيه، بس طلع عنده حق، يعني إنتَ لو ربيت - لا مؤاخذة - مِعزة، طعمها أحلى ولا الإنسان؟ المِعزة بتاكل ورق وعشب، الإنسان بياكل جمبري وسمك ولحوم، وأنضف أكل. شوف القرش مثلًا بيموت في لحم الإنسان، الدب مثلًا، الديابة؛ لحم الإنسان أنضف لحم، هتدوق وهتعرف بنفسك!

قلل كمية النيران الموجهة إلى المقلاة، وشرب بعض العصير بعدما خضه في فمه مرتين، ثم تابع: - وسيبك من حوار إنسان ومش إنسان، كله بياكل بعضه، لو أسد مات الأسود بتاكله عادي، لو ضبع مات الضباع بتاكله عادي، إحنا بس مكبرين الموضوع عشان إحنا حيوانات شاربة نشا.

ثم تابع مشيرًا إليَّ:

- أنا مش عايزك تقلق خالص!

اللعنة عليَّ! لا أصدق أنه طال بي الأمد لأقابل شخصًا ما، سوف يجعلني أشتهي الموت السريع بعد بضع كلمات من فمه القذر، ماذا لو استطعت إخراج السكين من كتفي وإنهاء أمري، ضربة واحدة صحيحة من يدي اليمنى ستفسد عليه كل شيء، فقط أمسك به بيمناي، وأحرك رقبتي ناحية النصل!

لا بد أن يحدث كل شيء سريعًا وبدقة.

ما إن نظرت إلى السكين المستقر في كتفي، حتى اقترب مني وأمسك بمقبضه، ترجيته مرتين بقول: «لا»! نزعه مرة واحدة صرخت فيها من قلبي، ابتسم مجددًا! سال كثير من الدماء، بدأ في لف لاصق فضي لامع كبير الحجم، أشبه بلاصق العازل الكهربي، لفه بعشوائية حول الجرح ولحمي المقطوع، سالت الدماء بنسبة أقل بعدها من اللاصق الذي قضمه بفمه، وتابع خط دماءٍ السقوط.

قال مازحًا:

- لسه بدري يا شقي!

وربت على خدي مرتين، أردت أن أنفجر باكيًا، لكني تمالكت نفسي، ألقى بالسكين الرفيع بعيدًا، ثم لوح بالسكين المتوسط أمامي قائلًا: - عايز ودن

كاملة تذكار! ها! اليمين ولا الشمال؟! ولا خليها في الآخر إنتَ لسه بصحتك، خليها لما تتعب!

تابعت النظر في عينيه بذعر، أشم رائحة عرقه التي تشبه البول مختلطة برائحة الزنجبيل المحترق، تابع هو: - بص! أنا هاضربك في معدتك عشان أضمن إنك هتخشع قبل ما أشتغل على الكتف، الضربة هتوجعك، أنا عايزها توجعك! اتفقنا! إوعى ما توجعكش؟!

هيتشكوك قال انتظار الضربة يؤلم أكثر من الضربة نفسها، كان ليحب ذلك العاهر لو رآه!

بدأت في تجهيز نفسي لشج بطني، أتنفس طويلًا بصعوبة بوجه متشنج، مزمجرًا كاتمًا صرخة غضب وألم، محاولًا تهيئة نفسي للطعنة، لكنه تراجع عنها، وبدأ يتمتم ببضع كلمات مبهمة، ثم قصد أكياس الدم، يبدو أنه خشي أن أموت من أثرها.

انتهى الأمر!

لا شيء قد يمنع ما يحدث، أشعر أني وحيد في محيط موحش، لو صرخت لألف سنة لن يحدث شيء ما، لا بد من متتالية إعجازية أن تحدث، كحبات دومينو بعضها يُسقِط بعضًا، حتى أخرج من هنا، أو أن الله يأمر أنفاسه أن تنقطع فيختنق أمامي، لكنني لست بنبي حتى يحدث ذلك، حتى الأنبياء لم يمنع الله عن كثير منهم القتل.

فكرت أنه لا بد أن أتقبل النهاية، سيعود ويلعق الدماء، سيسلخني ويطبخني حيًّا، لن يسلم مني حتى أصابع قدمَي، تلك هي النهاية.

إنه قادم.

مهلًا!

أصابع قدمَي! حذائي اللامع المسلح، اللعنة، كيف نسيت؟!

ما الاحتمالات؟!

قدماي موثقتان بسلسلة قاسية، السلسلة مثبتة بالحائط، هل هو مستحيل؟

فكرت قليلًا.

لا! غير مستحيل! هناك فرصة، ماذا لو أخرجت قدمي اليمنى من حذائي، وخلعتها من السلسلة، وأعدت لبس الحذاء! سأحتاج أن أضغط على يدَي، مع العلم أن إحداهما مثبتة بخطاف! سيكون الأمر مؤلمًا، قد أفقد يسراي، لكنها تستحق المحاولة، لكن، هناك مشكلة بسيطة: لديَّ ضربة واحدة!

تأوهت قليلًا، ثم استجمعت قواي قائلًا:

- ممكن شوية مية!

رمقني طويلًا مقطبًا حاجبيه، وكما توقعت، اتجه إلى ثلاجته، بدأت في التمسك بالسلاسل مستغلًّا ذلك، تعلقت بها محاولًا تحرير قدمي اليمنى من الأسر، بدأت كفي اليسرى تنزف من كثرة الضغط، لا يجب أن أصرخ، قلت لنفسي ساعتها: «هيا أيها الوغد المحتضر! افعلها حتى لا تلوم نفسك وأنت في أمعائه الغليظة! هيا، ادمِ قدمك ويديك قليلًا!».

أخرجت قدمي اليمنى اللعينة، التي أصبح بها قَطعان غائران من أثر السلسلة المعدنية، شعرت بالدماء تتدفق منها، فتحت عينَي بعد انتهاء الألم، وتنفست بعمق، لكنني، للأسف، وجدته أمامي، يبتسم لي!

كان بيمناه الماء، وبيسراه كيس الدم! فكرت أنه قد كشف أمري!

لا محاولات لعينة أخيرة، لا مهرب.

توقعت أن يلقي ما في يديه ويبدأ في معاقبتي، لكنه وضع كيس الدم على الطاولة المعدنية، ثم فتح زجاجة الماء وبدأ في سكبها أمامي في تلذذ، تلك الابتسامة الهادئة، أكرهها أكثر من سكينه الحاد، لكني أحببتها الآن، لأن معناها أن الدوبل لم ينظر إلى قدمي الدامية، ولا إلى حذائي الذي على بُعد بضعة سنتيمترات منها!

الوغد، ينظر إليَّ في عينَي، يريد أن يرى نظرات الحسرة على الماء المسكوب.

ما إن انتهى من الزجاجة، حتى أمسك برقبتي وفارت أعصابه، شعرت بأنفاسه النتنة في وجهي، وأصدر صريخًا ينم عن غليان بداخله، تناثر لعابه على وجهي وغُرست أظافره في لحم خدي، ثم أمسك بـ«كانيولا» طبية كانت بجانبه على الطاولة، وغرسها في رسغي، صرخت، أخرجها وبدأ البحث عن شريان أوضح، ثم غرسها مرة أخرى وعلقها بجانب الخطاف، صفعني، بصقت في وجهه!

نظر إليَّ طويلًا، ثم ابتسم قائلًا وهو يمسحها عن وجهه:

- أنا مش ضد الرومانسية، بس إنتَ بالذات ما ينفعش!

شرع في الحصول على كيس الدم من فوق الطاولة المعدنية وإيصاله بالكانيولا، حينئذ لاحت الفرصة الأخيرة.

سيستغرق الأمر ثانيتين، ركز!

بخفة انزلقت قدمي اليمنى داخل حذائي الضيق، لعبت الدماء دور المليِّن في الأمر، صرخت صرخة غضب، وصفعت كعب حذائي في الحائط خلفي، خرج نصل قصير من مقدمة الحذاء، استخدمت صوتي كغطاء لكل شيء.

فكرت ساعتها في فكرة واحدة فقط: كم مرة خرجت بها من دون هذا الحذاء اللعين، يمكنني أن أقول إن ٢٠٪ فقط من المرات كان معي! أنا رجل أؤمن بالعلامات، علمت أن القدر يريدني أن أفعل شيئًا. لم أصل إلى تلك النقطة حتى أقوم بمحاولة فاشلة، مستحيل!

أو على الأقل، أقنعت نفسي بذلك: «هيا أيها المحتضر النحيف! هيا أيها المتعجرف ذو الآراء الهرئة على الراديو الألماني، لديك فرصة واحدة لعينة!».

رمقته لأرى مكانه، كان واقفًا على بُعد بضعة أمتار مني، شاهرًا سكينه المتوسط اللامع، يمني النفس بطعني بعدما نجح في تثبيت الكانيولا وكيس الدم، صرخ مبتسمًا: - وقت الحفلة!

واتجه راكضًا نحوي بسرعة لم أعهدها، تلك السرعة جعلت من محاولتي لتخيل اللحظة التي سأتحرك فيها شيئًا أكثر صعوبة، قال لي عقلي: «هيا، زِنها كلاعب كرة قدم يركل كرة لعينة في الهواء! كم ثانية ستحتاج لتفعلها؟ وكم ثانية سيحتاج الدوبل ليصل إلى مرمى قدمك؟! هيا، افعلها أو سأشمت بك!».

استجمعت قواي، وأحكمت قبضتي على السلسلة التي أدمتني، وزعت وزني بينها وبين يدي الأخرى التي أمسكت بالخطاف الذي اخترقها، زادت ضربات قلبي تسارعًا، بعدها حدث ما توقعته: لقد بدأت الثواني في التمدد!

كأني اكتشفت ثغرة لا يعلمها غيري في نسبية أينشتاين، كأني أعاركه تحت الماء.

ما إن اقترب حتى بدأت الأغنية القديمة في التباطؤ مع خطواته. صرخت! ضغطت على يدَي لأحصل على القوة العظمى الممكنة، شعرت بأنسجة تتمزق، وعظام تتهشم في يسراي، قفزت مؤرجحًا قدمي اليسرى قليلًا في الهواء، حتى جذبتني سلسلة الحائط، ثم أرجحت يمناي وأطحت بها. اكتملت صرختي بألم حاد في يدي اليسرى جعلني أبكي بعدها.

وعادت قدمي اليمنى لتستقر أرضًا، وهو واقف أمامي لا يتحرك.

ماذا حدث؟!

للحظة ظننت أنني لم أصِبه، لقد كان ثابتًا في مكانه، لا أثر فيه.

لكن شلال دماء بدأ بخيط غليظ، ثم انفجر من عنقه بعد ثانية، جعلني أشعر بأنني أحلم، لقد أصبت الشريان الرئيسي، أنا وغد محظوظ! للغاية!

جاهدت لأقولها لاهثًا:

- أنا مش عايزك تقلق خالص!

طفق يمسك على رقبته كأنه يريد أن يمنع الدماء من التدفق، ثم أيقن أنه لن ينجو، غطاه شلال الدماء بالكامل، فاتجه كالمجنون ناحية السكين الذي أسقطه، وجدت كيس الدم بجانب قدمي، حركت جسدي بميل وطعنته فخرجت الدماء من الكيس لتسيل بركة حمراء أمامي، انقض عليَّ وطعنني في صدري، ثم طعنة أخرى في بطني، لكنني تعلقت مرة أخرى بالسلسلة ودفعته بقدمي تلك المرة، اختل توازنه بسبب الدماء الزلقة، وانزلقت قدمه وطاحت ثم صدم الطاولة المعدنية برأسه، وسقط مغشيًّا عليه، والدماء تنفجر من رقبته.

وموسيقى العشرينيات.

وصرخت من قلبي! ودموعي تغطي وجهي.

لقد حدثت المتتالية.

مرت دقيقة أو أكثر، تابعت الموسيقى العشرينية عزف نفسها، غير آبهة لما يحدث، كانت باللغة العربية الفصحى، مغنٍّ يقول شيئًا عن جارة الوادي.

اللعنة على الوادي كله!

كانت الدماء لا تزال تتدفق من رقبته حينما مددت قدمي محاولًا الوصول إلى المفاتيح المعلقة في جانب مريلته، انتبه، رجعت قدمي اليمنى مكانها في حركة غريزية، إلا أنه كان إنذارًا كاذبًا، تأوهت مجددًا بسبب جرح صدري وبطني وكتفي، كان الألم الأكبر يصدر من بطني، والدماء أيضًا. تماسكت مجددًا وحاولت، وصل النصل الخارج من قدمي إلى سلسلة المفاتيح، زادت نبضات العذاب من جسدي، لكنني تجاهلت كل شيء، تعجبت بداخلي مما أفعل، لمَ قد يتمسك شخص محتضر بحياته إلى هذا الحد؟

الآن الجزء الأصعب؛ عليَّ فك يدي من الخطاف والكانيولا، لأبدأ إجراءات فك نفسي.

بعدها بتسع دقائق تقريبًا، كنت ملقى على ركبتي، من دون قميص، بنطالي مخضب بثلاثة أنواع من الدماء، بجانبي جثة الدوبل، لا أعلم كيف حررت كفي

من الخطاف، لا أحاول تذكر كمية المحاولات التي فعلتها لأسيطر على المفاتيح بإصبعين كانتا - نوعًا ما - صالحتين للعمل، ثم فك يدي الأخرى.

أتذكر أني لم أفعل أي شيء سوى البكاء، بكاء عميق، زلزل كياني، أشعر أنني لم أولد قبل تلك اللحظة، زحفت تجاه الباب، كان قميصي والمعطف الخاصان بي معلقين هناك، رائحة الدماء الملتصقة بي ما زالت تؤرقني، أكثر من تلك التي أنزفها من صدري وبطني وأذني.

قطعت الكهرباء عن ذاك الراديو، ثم نظرت إلى الزيت وحلل الطبخ التي تغلي، وقفت على قدمي مترنحًا، حصلت على «البريتا» الخاص بي من معطفي. بحثت عن لاصق فوجدت اللاصق الفضي الخاص بالكهرباء، لصقت على جروحي متألمًا، ثم لففته على أمعائي وصدري، قضمته وبصقت بعيدًا. ثم جلست وظهري للحائط.

تلك المرة كانت فوهة المسدس في فمي!

تابعت بكائي الحار، أقنعت نفسي بعدم الضغط على الزناد.

قاومت فكرة أنني لن أنجو بعد كل تلك الطعنات والدماء، فالقدر الذي سبب كل ذلك، لا بد أنه لا يريد أن ينتهي الأمر هنا.

حصلت على هاتفي، هاتفت دييجو. وحدثت معجزة جديدة، هو لا يجيب، مع أنه - كما يلقبونه - «سريع الندهة»، وتذكرت - بطريقة ما - رقم سميروفيتش، ذلك الكارت الكوميدي الذي تخلصت منه، ضحكت بهستيرية حتى آلمتني معدتي، إلا أنني لم أتذكر الرقم الأخير، هل هو خمسة بالإنجليزية أم رقم ستة، شرعت في كتابة الرقم، أعاقتني دماء يسراي، إلا أنني نجحت في كتابته على شاشتي، ثم انتظرت قليلًا، تساءلت: - سمير؟!

باغتني صوت أنثوي لسيدة طاعنة في السن:

- لا يا حبيبي، أنا اسمي الحاجة إيمان.

- آسف! غلطت في الرقم.

- إنتَ صوتك زي حسن ابني.

كتمت تأوهي ورددت:

- شرف ليَّ!

- ممكن يا ابني أطلب منك طلب؟

رمقت جسدي المطعون وخوار الدوبل، ثم أجبت:

- مفيش أي مانع!

- إنتَ مالك يا حبيبنا، إنتَ كويس؟

- مجهد شوية!

- ربنا يقويك! أنا برضو ابني، الـ... الدنيا واخداه ونسيني، ربنا يقويه، ده حنين أوي، ممكن يا ابني تكلم مديرة الدار هنا؟ تخليها ترجعلي تلفوني التاني أبو كاميرا، أصل ده يا ابني مفيهوش صور حسن، وشاشته صغيرة أوي مش باشوف الأرقام، أنا باحب أتفرج على صور حسن وولاده، عايش في كندا هو! وبسم الله ما شاء الله حاجة تفرح، بيتصل بيَّ، بيحبني أوي.

لا أعلم كيف انفجرت مجددًا في البكاء على الرغم من أنني بدأت أشعر أنني على وشك فقدان الوعي، لكنني كتمت بكائي واعتصرت عينَي رغمًا عني، تجمدت الكلمات في حلقي، سألتني إن كنت ما زلت على الخط، فأجبت، ووعدتها بأني سأتدخل، ثم أنهيت الحديث وهاتفت الرقم نفسه بتغيير نهايته إلى خمسة.

كان هناك إعلان عن نغمة أغنية جديدة لمطرب موسيقى راب. اضطررت أن أسمعها حتى رن الهاتف.

- سمير!

- مين يا غالي!

تنفست الصعداء وتابعت بمعاناة:

- لسه... مهتم... بالشغل معايا؟

صاح بنبرة تقطر حيوية:

- كنت متأكد إنك هتبصلي البصة التمام!

- هابعتلك مكاني، هتيجي، هتلاقيني في عربيتي، اسمعني كويس!

بلعت ريقي بصعوبة وتابعت:

- هاكون غالبًا فاقد الوعي، لأني نزفت كتير، هتلاقي رقم مكتوب جنبي في ورقة.

- أنا مش مصد...

- صدق! لأن مفيش وقت كتير! هتتصل بالرقم، صاحب الرقم اسمه «دييجو»، افضل وراه لحد ما يرد. هو هيعمل اللازم، لو لحقني.

- هالحقك!

كانت آخر كلماته، التحفت بعدها معطفي وأغلقته حولي، شددت أجزاء مسدسي وأطلقت طلقتين على جثة الدوبل احتياطيًّا، وفتحت الغاز عن آخره ورحت أجر جسدي إلى سيارتي، تجاهلت رجلًا وامرأة مرا بجانبي على وجهيهما ظهرت علامات الرعب حينما رأيا أذني الدامية، أردت أن أعاجلهما بمنظر صدري وأمعائي فارجًا معطفي، لكنني تابعت طريقي أتكئ على قدمي المصابة بمعاناة.

دلفت إلى سيارتي، كتبت الرقم، قاومت رغبة أقرب إلى الشهوة في إغماض جفوني، حقنت ذراعي بحقنة أعطاني إياها دييجو سابقًا في الحالات الطارئة وغفوت.

أفكر في لا شيء، في كل شيء.

هل ينظر الملاك الأسود إلى جسدي متعجبًا؟

هل تراقبني الملائكة الآن؟

أخشى أن أغمض عينَي وأستسلم للنوم، لأني لو فعلتها سيبدأ يوم جديد.

صورتها، المرأة ذات الشعر الذهبي، ينسدل شعرها ليخفي عينيها، تحاول مساعدتي للنهوض وأنا طفل صغير، ملقى على اللسان الخشبي.

أركض تجاهها، أو أركض من شيء ما أخشى أن يدركني، أنظر خلفي، فيدركني.

«تعالَ! ما تخافش!».

نظرته وهو يخفي النصل خلف ظهره، ثم القفز في ليلة ممطرة في بحر لا أعلم شيئًا عن قلبه، لكنني أعلم أن الجحيم بداخلي، تكفي أن تشعل البحر ألف مرة، فتتبخر مياهه أمامي.

«بيروح مني!».

سمعتها، كانت نبرة متوترة للغاية، بدا لي أن شخصًا ما يحاول استعادتي!

في فيزياء الكارتون يمكن للضحية أن تأخذ شكل الأداة أو الشيء الذي وُضعت فيه، بمعنى أنك لو وضعت قِطًّا في علبة سيخرج على شكل علبة. لو أدخلته في مفرمة ما، سيخرج قطعًا صغيرة لكلٍّ منها شكله الأصلي نفسه، ثم بوم! تتحد الأجزاء ويعود صحيحًا مرة أخرى. شيء سيئ أن الأمر مختلف قليلًا عما أشاهده في قنوات الكارتون، لكل شيء ثمن، لكل طعنة أثر!

رد عليه صوت ما أعرفه:

- مش هيروح!

ولسعات قاسية من جهاز الصدمات الكهربية، تعيدني إلى حيث لا أنتمي، اتركني يا دييجو أنت وطبيبك! دعني أقابل كل مَن أرسلت إلى الجحيم، هم ينتظرونني، دفعتي كلها تنتظرني، أحمل لهم قصصًا كثيرة لن يصدقوها.

- النبض رجع، هيعملها!

- قلتلك مش هيروح!

و…

شاشة بيضاء، وأنوار سريالية. أين أنا؟!

فتحت عينَي على مراحل، لأراه أمامي: سميروفيتش، مبتسمًا ابتسامته البلهاء الدافئة، ينظر إلى المرآة. تتحول ابتسامته إلى وجه غاضب، تنفر

عروق رقبته وهو يصوب سلاحي نحو المرآة: - سيب السلاح يا ابن الو...! عايز تجربني؟!

تلاها بضحكة طويلة، وعاد بوجهه إلى وضع الغضب مجددًا: - عايز تجربني؟! سيب السلاح!

لقد كان يتدرب بطريقة هوليوودية مثيرة للشفقة. فكرت ساعتها أنني لا أعلم بماذا يجب أن أشعر، هل أشكره لأنه أنقذني، أم أندم لأنني أنقذته.

التفت إليَّ وشاهدني أستيقظ، صرخ:

- دييجو!

اقترب دييجو، السفاح الأنيق، جسده المفتول، وشعره الأشقر المنسدل على جانبَي وجهه، كان يرتدي قميصًا أزرق ذا ياقتين كبيرتين، مفتوحًا حتى صدره، وبيده مقلاة وملعقة خشبية، حينما رآني مازحني مشيرًا إلى المقلاة: - مكرونة باللحمة، ومش لحم من إياه!

ثم تابع وهو يصافحني:

- مبسوط إنك ما سبقتنيش لجهنم!

حاولت التمسك بيده والاعتدال، لكنني فشلت، طلب مني أن أرتاح، تساءلت: - عدى كام ساعة؟

تابع دييجو:

- قصدك عدى كام يوم! بالمناسبة الدكتور استلف شوية حاجات منك!

- معايا فلوس فلـ...

- لا، استلف كام عضلة كان محتاجها، الدوبل شرَّحك، أنا مش مصدق إنك خدت حقنة أدرينالين ونمت.

تدخل سميروفيتش معلقًا محركًا رأسه إيجابًا وهو يرمقني بثقة جراح: - نزفت دم أكتر من الطبيعي! والودن صعب ترجع زي الأول! بس عملَّك تاتش تجميلي.

ثم تابع هو:

- سنغالي برتغالي!

تحسست أذني وإذ بلاصق أبيض يحيط بأسفلها، تذكرت أنني فقدت حلمة أذني، رمقه دييجو طويلًا، ثم تساءل: - مين الأفينجر؟!

- المساعد بتاعي!

حاول دييجو أن يتماسك من نوبة ضحك معيدًا كلماتي:

- المساعـ... الـ... مين؟!

أردف سميروفيتش بوجه متجهم:

- عيب أوي النفسنة دي من أولها كده يا غالي! بصلي بصة صح عشان ربنا يكرمك!

حاولت منعه من أن يطبق تدريبه الذي ارتجله أمام المرآة منذ قليل: - ما تقولش الجملة الـ...

- ولا عايز تجربني؟!

أشحت بوجهي بعيدًا، فيما تجمد وجه دييجو، وانفجر ضاحكًا: - إنتَ معجون سنان ولا إيه؟! أجربك إزاي!

تدخلت مدافعًا من دون أن أقوم:

- دييجو! على الأقل هو رد على التلفون.

حرك سميروفيتش حاجبه مديرًا رأسه في انتظار رد دييجو، ليجيب الأخير: - كنت مرهق وخدت منوم.

اعتدلت أخيرًا وحصلت على بعض الفودكا، أزلت الأسلاك المتصلة بجهاز قياس النبضات الخاص بي، لقد عدت إلى الحياة مرة أخرى بطريقة ما!

تحسست حلمة أذني مجددًا، ثم تابعت ردًّا على الأخير: - هو رد!

فكر دييجو لثانيتين، ثم حرك رأسه حركة تدل على تفهمه، وأشار إلى سمير بملعقته الخشبية: - هابصلك بصة صح!

همَّ بالرحيل تجاه الموقد، ليستوقفه سمير:

- أيوه كده اظبط!

توقف دييجو، حمدت الله أنه لا يمسك تلك اللحظة بسلاحه، رمقني، ثم قهقه مجددًا، مط شفتيه في أسف، كأنه يفكر في شيء ما، وترك المعكرونة لتسقط ودفع سميروفيتش إلى الحائط ليصفع رأسه فيه، اتسعت عينا الأول وتشنجت عضلات وجهه بينما هو يخنقه بمعصمه، أصدر سمير كثيرًا من الخوار ينم عن اختناقه، همس دييجو: - ما تحاولش تخليني أوصل للمرحلة دي!

صرخت:

- دييجو!

تابع مخاطبًا الكيميائي:

- حرك راسك لو فهمتني!

حرك الأخير رأسه إيجابًا بعينين متسعتين، زاد الاختناق لأصرخ على الرغم من ألمي: - دييجو! أقسم بالله! لو حصله حاجة!

شعرت بألم شديد في صدري، حاولت مقاومة الألم وتحركت فسقطت أرضًا، رمقني هو بلحاظه، ثم حرر رقبة سميروفيتش أخيرًا، ليسعل ويشهق كمريض صدر بحالة حرجة، ساعدني دييجو على القيام.

تحسس سميروفيتش رقبته وأشار إلى دييجو قائلًا بصوت محشرج وهو في طريقه إلى خارج الغرفة: - إنتَ اللي بدأت!

حاولت مقاومة الضحك بصعوبة، لكن بضع قهقهات غلبتني، وكذلك فعل دييجو، فافترش ظهري الأرض، واستسلمت للضحك، لتؤلمني أمعائي مجددًا.

أشرت إلى دييجو فأعاد إليَّ سلاحي، حاولت الإمساك به لكن أعصاب يدي خذلتني، ذلك الخطاف الذي أصاب يسراي ببعض العطب وجرح عظامي وأعصابي، كنت سعيدًا على الرغم من كل شيء، أي نهاية غير أن أنتهي في أمعاء الدوبل جيدة بالنسبة إليَّ، حاولت مرة أخرى أن أسيطر على سلاحي، ونجحت.

وقفت على قدمَي متألمًا من صدري وبطني إثر الجرح، صففت شعري ووضعت بعض الماء على وجهي، وطلبت من دييجو أن يجد سميروفيتش ويعتذر له، ثم تأملت الجرحين العميقين في مرآة الحمَّام، وحصلت على بضع كبسولات لقتل الألم.

تجمدت عيناي أمام المرآة، وشددت أجزاء سلاحي، لقد بدأ كل شيء للتو.

فكِّر في الجحيم حينما تستهدف رجل الملائكة!

خصوصًا لو فشلت في قتله.

* * *

في سيارتي الفولفو استقر جسدي، كنت بجانب سميروفيتش تلك المرة، لقد قادها بصعوبة وتقطع جعلني أود التقيؤ، بدا حازمًا حينما ارتدى نظارة شمس كبيرة الحجم، تشبه تلك التي يرتديها موظفو الـ«FBI»، كان يأخذ كل شيء بجدية مضحكة، وأنا شارد في بضعة أسئلة معلقة أمامي كالذبائح: لمَ نصبت لي المحكمة فخًّا؟ وكيف علموا أني سأنتقم من الخرتيت الذي قتل

ظل؟ وما السبب الذي قد يجعلهم يبحثون عن رجل انتهت ساعته الرملية منذ أمد؟

طردت الأسئلة من رأسي، وحاولت التأقلم مع طريقة سميروفيتش في القيادة، لكنه وصل بي إلى المكان المطلوب في النهاية، بعد عدة دقائق عدت لأجده هائمًا في المرآة، يغير ملامحه من سخرية إلى غضب، بينما ألوح بيمناي من خلف الزجاج لسيدة سبعينية - أو هكذا تبدو - ترتدي كثيرًا من الحلي، تداخلت تضاريس جسدها واختلطت بفعل الزمن والجاذبية، تلاشت ضحكتها بعدما صاحت: - تلفون لكل نزيل! حتى لو معندهوش قرايب! سلامنا لعيسى بيه!

كانت يدي اليسرى في مستقرها، نائمة في شداد قوي أسود، يجب أن أظل في هذه الحالة لبضعة أسابيع أخرى، هكذا قيل لي، بعدما قطعت طعنة الدوبل عضلة ما في صدري تُدعى «بيكتورال»، يبدو لي أني سألتزم بالتعليمات كما التزمت بها بعدم الحركة من السرير، أنا عميد كلية المرضى السيئين، اللعنة عليَّ!

قطع الذي ظن أنه مساعدي الجديد شرودي قائلًا:

- ما عجبتنيش المكرونة! كان مزود «الأوريجانو» أوي.

رمقته طويلًا متابعًا شرودي، تابع:

- بتكره «الأوريجانو» إنتَ كمان؟

لم أجبه، تابع:

- ليك حد في دار المسنين؟!

احتجت بضع لحظات لأجيب:

- ست كبيرة في السن!

- تقربلك إيه يا قائد؟!

- القاعدة رقم «١»: مفيش أسئلة شخصية، اتعرفت عليها بالصدفة، في التلفون، بدون تفاصيل!

حرك حاجبه تعجبًا إثر إجابتي، بالطبع تساءل عن السبب الذي قد يجعل قاتلًا مأجورًا يصادق سبعينية عن طريق الهاتف، لكنني لم أمتلك أي رغبة في الشرح.

أخرجت من جيب معطفي هوية زائفة، طبعها لي دييجو بتلك الطابعة المميزة التي يمتلكها، لقد صنع مني مفتشًا مرموقًا في وزارة التضامن

الاجتماعي، لا أحد يتأكد من أي معلومة في تلك البلدة! لم تحاول حتى تلك الشمطاء أن تجري اتصالًا بأي شخص لتتأكد أنني مفتش فعلًا، مفتش نجا من حادث سيارة، هكذا أقنعتها.

- والقاعدة رقم «٢»؟!

- تنفذ كل اللي هاقوله، بالحرف.

- حتى لو طلبت مني حاجة تئذيك؟

- لو طلبت منك تضربني بالنار، نفذ وابقى ناقشني!

- ده لو فضلت عايش لحظة بعدها!

رمقته وتابعت:

- اللحظة بتفرق في الشغل بتاعنا! والطاعة!

- وافرض إني في موقف مش عارف أسألك أصلًا يا غالي؟!

شردت طويلًا، لا أعلم لماذا هاجمتني صور متتالية لي وله في مواقف دموية. تداخلت صور الشامي مراد في مخيلتي برأس منفجر. تابعت: - يبقى سيب إيدك خالص.

- أسيب إيدي إزاي؟

- ارتجل!

رمقني طويلًا ثم عاد ببصره إلى الطريق معلقًا:

- أعدم طليقتي لو فهمت حاجة يا غالي!

صمتُّ مجددًا واستطردت:

- لو السما انطبقت فوق دماغك، اعمل أي حاجة بره الصندوق، بس المهم إنك تعيش!

حرك رأسه إيجابًا ثم تابع منهمكًا في قيادته:

- عايز أكلمك بصراحة.

أومأت إليه ليتابع:

- موضوع الوقت والساعة البيولوجية، أنا سمعتك وإنتَ بتحكي فيه، حاسس إني مش قادر أبلعه، زي «الأوريجانو»!

تجاهلته قائلًا:

- بعد أربع دقايق هتلاقي طريق يمين، رايح جاي، ادخل فيه!

أومأ سميروفيتش بدوره إيجابًا، ثم أشار إلى عداد البنزين: - الفولفو عطشانة!

فتحت الصندوق المباشر أمام الكرسي الذي أجلس فيه، أخرجت رزمة دولارات متوسطة الحجم محاطة بمطاط، أعطيتها إياه، ثم أخرجت أخرى وكررت الأمر: - الأولانية للمصاريف: بنزين، أكل، شرب، لبس. التانية مكافأة. إنتَ عملت حاجة كويسة، برافو!

أخرجت حبتين لدحر الألم، خبأتهما في فمي وتجرعت بعدهما بعض الفودكا، كان ثمة صداع يتسلل إلى رأسي، إضافةً إلى نغزات ألم في أمعائي وصدري وقدمي يخبرني بها عقلي، وأنا لا أحتاج إلى تكرار المعلومة حاليًّا. «اعلم أن شيئًا ليس على ما يرام، وأنك بحاجة إلى وقت للتعافي». وددت لو أمكنني مخاطبة عقلي: «شكرًا، لا تخبرني مجددًا!».

علقت مرة أخرى لأقلل من حيرة سميروفيتش:

- كل رزمة فيها تلاتلاف دولار!

شكرني مرارًا حتى مللت، ثم همَّ بالانعطاف يمينًا - بعد قليل - من شارع ذي حارة واحدة، أمسكت على معصمه، فقاوم يمناي قائلًا: - يا غالي هو ده الشارع!

- إيه اللي خلاك متأكد؟!

- قلت بعد أربع دقايق!

- إنتَ ما بصيتش في ساعتك!

- أيوه بس أنا حسيت إن...

رمقني في عينَي طويلًا، ثم حرك رأسه إيجابًا بامتعاض، عاجلته: - وِصلت؟! ابتسم وانعطف من الشارع التالي قائلًا:

- سنغالي برتغالي!

تركت معصمه ثم سرحت في عالم موازٍ، فحصت هدية دييجو، وطفقت أقلبها يمينًا ويسارًا، كانت قطعة «P228»، مسدسًا نصف آلي، قديم الطراز وصغير الحجم نسبيًّا لذوقي كمحب «للبريتا»، لكنه جيد للغاية ولا يصعب إخفاؤه، سأحتاج إلى عمل بعض الشوبينج الفترة المقبلة، خصوصًا أنني قد أهملت اقتناء الأسلحة في السنوات الأخيرة، أعتقد أنني على وشك العودة من أجل مباراة اعتزال تليق بي، ثم اعتزال طويل، اعتزال كل شيء.

و...

هاجمتني بضع صور متلاحقة، كفلاشات الكاميرا: صورة الرجل ذي القبعة

الأمريكية، وصورة بنت الطبيب، أمام المسلة الشهيرة في نيويورك، الرجل بجانبهما!

يستحيل!

جال في خاطري أنه يجب أن ألقي نظرة أخرى! لكنني شككت في الأمر: هل يمزح معي عقلي؟! هل أهلوس بسبب الورم؟! ماذا لو؟!

أخرجت عنوان المستشفى من برنامج الخرائط في هاتفي، ثم وضعته أمامه، امتعض قليلًا ثم عدل عن طريقه متجهًا إلى العنوان.

في الدور الثاني من مستشفى «كيور»، لم أجد الطبيب، لكنني وجدت عيادته، استوقفت ممرضة قصيرة البنيان وبادرتها بسؤال: - فيه دكتور مصري لبناني، مخ وأعصاب، اسمه «أبيض»، قعيد.

ضيقت عينيها قليلًا ثم قالت وهي تنظر إليَّ كأنني فضائي، أو شخص أتى من زمن مختلف: - مشي بقاله أسبوعين! بنته تعبت وسافرلها.

حركت رأسي إيجابًا، وقصدت الاستعلامات، كلفني الأمر بضع مئات لأحصل على عنوانه بالتفصيل. بعد مقربة الساعتين كنت في البيت الذي استأجره في التجمع الأول.

وصلنا متأخرًا بعد السادسة مساءً، كان البيت حديث الطراز، لسبب ما ترك النوافذ مفتوحة، تتداخل ألسنة البرد لتحرك الستائر، حاولت إضاءة غرفته لكن الأمر لم ينفع، استخدمت كشافًا صغيرًا يلازمني دائمًا، بدأت أبحث في كل الجوانب لعلي أجد شيئًا، كل ما عثرت عليه هو الكثير من الأبحاث العلمية، وبضعة أجنة حيوانية في برطمانات زجاجية تفوح منها رائحة الفورمالين، وهاتفان جديدان على مكتبه لم يُستخدما من قبل، و... ألبوم صور!

بدأت في التقليب، صور معظمها له وللطفلة في مختلف مراحلها الحياتية، حتى وصلت إلى مرحلة نيويورك، سرَّعت التقليب حتى وجدتها!

كانت صورة مشابهة للصورة التي سقطت من فوق مكتبه، لكنها مختلفة تلك المرة لأن الفتاة تحمل كلبًا صغيرًا، وهو! أقسم إنه هو! لكنه من دون طاقية رعاة البقر تلك المرة.

أخرجت الصورة من الجيب المخصص لها في الألبوم ووضعتها في جيب معطفي، ما إن قررت الرحيل حتى لمحت شبحًا يتحرك عن يميني، بحركة غريزية وضعت الكشاف في فمي وأخرجت سلاحي و... اللعنة عليَّ ألف مرة!

إنه الخووخ! كم مرة يجب أن... مهلًا!

لقد كانت امرأة.

شعرها أشقر مائل إلى الخضرة، كانت تقف على حدود البلكون، هدأت من روع سلاحي وأنزلت معصمي ممسكًا بالبطارية: - بتعملي إيه هنا؟!

للحظة شعرت أنها الحورية الصامتة، جارتي، أقسمت إنني شممت رائحة التوت البري. أعدت توجيه الضوء تجاهها، وكان هناك مشهد غريب: لقد تبخرت!

فقط الهواء يداعب الستائر، تقدمت وأزحتها بحثًا عنها: لا شيء! كان هناك سؤال مكرر ينخر في عظامي جنبًا إلى جنب مع الهواء البارد: هل بدأت مرحلة الهلوسة فعلًا؟!

ماذا لو ضغط الورم على مركز جديد في أنسجة مخي الهشة؟!

أشعر دائمًا أن ثمة دودة تتغذى على كل ما أخاف أن أفقده داخل عقلي، تكبر يومًا بعد يوم، وتأخذ حيزًا يومًا بعد يوم. أشعر أنها - يومًا ما - لن تجد متنفسًا لتنمو فيه داخل رأسي، ثم... ينفجر كل شيء.

بعدها بشهرين

تشابكت الأرجل واحتكت الأكتاف في الزقاق المؤدي إلى صالة العرض في سينما مول «كايرو زون»، كان الفيلم المنتظر، العرض الأول للجزء الأخير من سلسلة «جيمس بوند»، توقف بعض المراهقين عن الدفع حتى مر رجل سبعيني أسمر البشرة جميل الملامح، يرتدي بدلة قديمة الصنع رمادية اللون، كان يستخدم عصاه ذات القاعدة الثلاثية في المشي، يعاني إعاقة قديمة، لكن شيئًا لم يمنعه من أن يصل إلى قمة الهرم الدراسي؛ عمل مدرسًا بكلية الحقوق جامعة القاهرة.

كان يُدعى «الدكتور نادر دانيال»، لم يلحظه أحد من الحضور سواي، أمسك بتذكرته، ثم دب أصابعه في نظارته الكبيرة مجاهدًا حتى يرى الأرقام، تسلَّمها منه رجل أمهق يضع سماعة بلوتوث بيضاء صغيرة في أذنه اليمنى، يرتدي الزي التقليدي للموظفين في السينما، وسلط ضوء كشافه على التذكرة، كانت الشاشة بدأت بالفعل في عرض بعض الصور حينما رمق العجوز وجه الموظف.

كان وجهه أبيض ناصعًا، له حاجبان أشقران مائلان إلى البياض، وأنف كبير

تملأه البثور، وشعره المميز الذي كان نسخة أكبر من حاجبيه.
تساءل دانيال:

- السيما مليانة، شكل الفيلم حلو!

تجاهل الأمهق التعليق، سرح طويلًا في التذكرة، ثم رمق العجوز بعينيه قائلًا: - الصف التالت، حرف الـ«A» أول كرسي.
تفوه العجوز بعبارات الشكر، ثم توجه إلى مقعده، لكن الموظف استوقفه: - معندناش كرسي لأصحاب الهمم، للأسف!
كنت أنا الأمهق، أعلم أن الأمر كلفني ثلاث ساعات لعمل المكياج اللازم، لكن الأمر يستحق.
تجمد دانيال للحظة، قاوم ابتسامته، وعاد إليَّ معلقًا: - بس أنا مش محتاج الكرسي ده!
عاجلته بصوت هادئ بينما مددت يدي إليه بسماعة صغيرة مشابهة: - أومال جاي هنا ليه؟

- جاي هنا عشان أديك معلومات مش هتلاقيها تحت الكرسي!

مد يده وأمسك بالسماعة معلقًا ببعض المديح:

- تستحق تبقى الأهم!

ابتسمت ومددت يدي بالتذكرة بعدها متسائلًا:

- ضلك حر؟

حرك رأسه نفيًا بأنه أتى بمفرده، ثم أردف:

- وما أعرفش مين حابسه.

نظرت حولي قائلًا بنبرة ممتعضة:

- تخيلت إنك تعرف دبة النملة في المحكمة!

تنهد طويلًا مبتسمًا:

- كنت! لما كان سمعي كويس!

حركت رأسي إيجابًا وأشرت برأسي تجاه السماعة:

- دي هتساعدك!

تسلَّم مني التذكرة وتابع طريقه معطيًا ظهره لي. وضع السماعة بخفة في

أذنه، عاجلته خلالها: - كان لازم تحذرني إن سرجاني عيِّن مستشارين ما تعرفهمش، عشان أعمل حسابي!

لوَّح بيده معلقًا:

- مجرد نمل! والنمل موجود في كل مكان، حتى هنا!

احتجت إلى ثانية لأفهم ماذا يحدث، فقبل أن يستقر دانيال في كرسيه فسَّر عقلي كل شيء؛ ذلك الوغد! لقد جاء هنا، يعلم أنه سيموت!

دارت في رأسي ساعتها فكرة واحدة: المحكمة تعلم كل شيء! ملعون أنا! ماذا توقعت إذن؟! ماذا دار في بالك أيها المحتضر عديم المنفعة؟! فيمَ فكرت حينما دخلت على تطبيق الشراء، وطلبت أن تُرجع منتجهم الحقير ملحقًا بعبارة: «أريد مقابلة مسؤول المبيعات!»؟ بالطبع يتجسسون على دانيال! وحتى لو لم يتجسسوا، فأنا قد عدت من الموت، مجرد إرسالي رسالةً مثل تلك ستجعل القشعريرة تجري في جلودهم حتى تنتصب شعيراتهم.

لقد كان الأمر جليًّا. الرجل جاء وخلفه بضعة مرتزقة من المحكمة، لديهم مهمة واضحة: اقتلوا شهاب المستشار! أو انهوا حياة دانيال فورًا! لأنه متواطئ.

والآن أنا معه من دون أي سلاح لأدافع عنه أو عن نفسي، وهم ينتظرون في الخفاء، أسلحتهم جديدة، ونصال سكاكينهم مشحذة.

بدأت الإعلانات القصيرة التي تسبق الفيلم، هناك إعلان لفيلم كارتوني، به أغنية مزعجة، ومشهد لشخصية تطارد أخرى، هناك قانون مريح في الكارتون: من حق أي شخصية أن تُخرِج من ظهرها أي أداة تحتاج إليها؛ مطرقة، بندقية، ديناميت. ثم يلقونها بعيدًا بعد الاستخدام ويخرجون أداة أخرى. للأسف يختلف الأمر في الواقع، أنا لا أمتلك غير يدَي العاريتين الآن!

جلس دانيال على مرحلتين، متأوهًا من بعض أعراض آلام العظام، ثم أخرج من جيبه زجاجة معدنية الشكل، تجرع منها سريعًا، ثم أغلقها، تنهد قليلًا وأردف هامسًا: - أنا عارف إنك محتاج شوية إجابات!

- وليه تدفع تمن الإجابات لوحدك؟!

- من يوم ما قابلتك عند الدكتور أبيض، وأنا متأكد إنك مستعد تدفع كتير وتعرف، كنت أنا ساعتها باعاني قلة النوم، وإنتَ كنت بتعاني النوبة بتاعة الإغماء، بس أنا عرفتك! إنتَ الوحيد اللي جندتك صدفة للمحكمة، الوحيد اللي ما كانش عندك أي تاريخ، عمرك ما حاكمت غير نفسك، عرفتك من أول ضربة نار ضربتها في التدريب، عرفت إنك المستشار الأخير!

- الدكتور أبيض متورط مع العائلات، أنا متأكد.

- كل شيء ممكن، خصوصًا إن كل اللي أعرفهم بيتعالجوا عنده.

- ما كانش لازم تيجي النهارده.

- أنا اللي دخلتك عش الدبابير بنفسي. سامِحني!

- برضو مش مبرر إنك تقدم نفسك فدا!

ارتشف مجددًا، وعاجلني ساخرًا بعدما حرق بلعومه:

- قالها راجل ميت، لراجل ميت!

تجرع مرة أخرى وتابع:

- فاكر القصة اللي عجبتني وحكيتهالك؟

علقت مقلبًا عينَي في الحضور، لعلي أشتبه في أحد المستشارين: - راجل الملايكة، الراجل اللي قتل مائة نفس وحاول يتوب.

أكمل هو:

- وحاولوا يقيسوا الأرض اللي مشيها، والله أمر الأرض تنقص من ناحية الخطيئة عشان يخش الجنة.

- أنا مش الراجل ده!

- إنتَ هو! الراجل اللي هتختلف عليه الملايكة لما يموت. شهاب! إنتَ رفضت قضايا وبرأت مُدانين، ومع ذلك كنت الأول دايمًا. يا ترى يا شهاب هاقابلك فين بعد ما نسيبها؟!

شردت أقلب نظري في الحضور، ثم تابعت بنبرة هادئة:

- لو اتقابلنا ع البر التاني، هنتقابل في مكان كويس، بس جوه جهنم.

تابعتُ مساعدةَ امرأة في الوصول إلى الكرسي الخاص بها، أردف هو: - إنتَ ما تعرفش ربنا مخبي إيه.

- اللي عايز أعرفه: ليه المحكمة تستهدف راجل بيموت؟

رمق الشاشة التي أمامه قائلًا:

- الفيلم ده نهايته مش هتعجبك!

ما إن بدأ الفيلم حتى أشرت إلى سميروفيتش بحركة سريعة على رقبتي، كان في الكرسي المجاور لدانيال، فهم معنى الإشارة، لقد كانت خطة الطوارئ؛ لن أتركهم يفعلون بي ذلك أو به.

كانت قوانين المحكمة صفر ترفض أن يعرف أي شخص الآخر، الوحيد الذي قابله الجميع هو دانيال، يقال إنه تربطه قرابة بعائلة غالي لكنه تمرد عليهم، هو الوحيد الذي بقي من الحرس القديم، حاول مرارًا أن يمنع تحويل المحكمة إلى مجرد مؤسسة مرتزقة، لكنه اصطدم بسرجاني، لم يقابل أحد سرجاني، لكن الجميع يعلم شيئين عنه؛ هو من حوَّل المحكمة إلى أقذر نسخة ممكنة

من عائلات المافيا، الشيء الثاني أن لديه سرطانًا في حنجرته من السجائر، لربما نشترك أنا وهو في شيء الآن!

أتذكر حينما قابلني دانيال منذ سنوات حينما عيَّنني، قال لي إنه لو قابلني مجددًا لربما سأموت، أو نموت معًا؛ تلك هي القوانين، يتقابل المستشار مع مندوب المبيعات مرة واحدة فقط، لو تكررت، تكون غالبًا لغرض التخلص من المستشار وإعفائه من الخدمة، ومن أعباء الحياة الثقيلة.

تابعت:

- عندي خطة هتخلي النهاية أحسن!

حرك دانيال رأسه نفيًا، تابعت إرشاد زبون آخر وأشرت إليه بالجلوس عن طريق ضوء الكشاف هامسًا في السماعة: - مين اللي عملِّي طُعم الكازينو؟ مين اللي سرب شكلي للدوبل وعرَّفه إني حاكمت أخوه!

صمت دانيال لثانيتين، ثم أشار إلى الشاشة معلقًا:

- راجل ما بيعرفش يغني!

لقد كان يقصد «سرجاني» مشيرًا إلى إعاقته، وكالعادة، أخذتني الإجابة إلى لغز جديد: - أكيد عنده أسباب!

رمق ساعته، قائلًا:

- واحد أعلى منه!

تساءلت:

- حد متضايق من حاجة عملتها!

أغلقت نور الكشاف ليجيبني:

- حد متضايق من حاجة قلتها، يا مجرم!

لقد كانت آخر إجابة أتوقعها، لقد استمع شخص ما، من العائلات التي تحدثت عنها للراديو، ويبدو أنني أصبت كبده بكلمة، فقرر استهدافي! يتبقى سؤال أخير: كيف عرف أني مستشار؟! والوحيد الذي قابلني هو دانيال، والجميع يعلم أنه أنبل شخص في المحكمة.

تابعت:

- فاضل سؤال واحد!

تابع الفيلم، متجاهلًا الرد عليَّ. لاحظت شروده، وبضعة تشنجات بسيطة

على شفتيه، لقد كان يرمق شخصًا ما يحدق إليه، بدا كمرتزق من المحكمة يخفي نفسه في لباس سائح في الصف التالي.

تلعثم دانيال وأعاد نظارته إلى مكانها، ثم بلع ما تمكن من ريقه الجاف: - يا سيادة المستشار، لو عندي إجابات لكل الأسئلة ما أبقاش بشر! أنا كمان ما أعرفش عرفك إزاي! محدش فتح ملفك غيري - المهم - في...

صمتٌ للحظة وتابعت تقليب بضع أوراق تذاكر في يدي كأنني أراجع الأرقام، ثم أردفت: - كمِّل يا دكتور!

عدل من وضع نظارته ببعض العصبية ثم تابع:

- فيه علامة لازم أعملها - المفروض - أول ما أوصلك، يا إما...

توقفت عن التقليب في الوريقات، أطفأت المصباح مجددًا، وقلت ببعض الحزم: - بعد مية وعشرين ثانية هتعملها!

حرك رأسه نفيًا، أضأت المصباح ثانيًا وتابعت مراجعة التذاكر، تشنجت عضلات وجهي وأنا أكز على أسناني بعصبية: - أنا مش جايبك هنا تموت!

استأذن دانيال سميروفيتش في بعض الفشار، ثم ابتلعه، لم تعجبني عفويته في الأمر، كان كمتهم يريد أن يحصل على كوب شاي أخير قبل تنفيذ الحكم. تابعت بالعصبية نفسها: - لو فيه حد يستحق الحياة في المحكمة دي يبقى أنت!

استأذن في حصة جديدة من فشار سميروفيتش، ثم نطق بشيء في سره، وتابع من دون أن ينظر إليَّ: - شهاب!

رددت بنبرة مهزوزة:

- لا!

تابع:

- وقتنا ضيق! عايزك تعرف إن سرجاني على صلة بشبح مجهول، أقدر أقول إنه شبح من عيلة، عيلة شبه العائلات اللي بتحكي عنها في الراديو. هيمسك كرسي كبير في بلد عربي، اليهود والأمريكان وافقوا عليه، مش متأكد من البلد، كل اللي أعرفه إنها غير مصر، وأصعب منها، وللأسف - نفس الشبح - اشترى أكبر حصة في المحكمة صفر، ممكن يكون هو اللي ورا كل شيء.

- والشبح ده أكيد في حد بيحضره!

- بطريقة ما، بيستمد قوته من مصدر إضافي غير العائلات.

- ليه يحاول يؤذيني وأنا راجل عمري ما قلت تعويذة؟

- قلت! كلامك على الراديو كان أقوى طلسم وتعويذة، زعَّل العائلات، والعائلات هي اللي ضغطت على الشبح يستهدفك - خصوصًا - إن الشبح بقى من مُلاك المحكمة، اللي بالصدفة، إنتَ أهم مستشار فيها.

- المصدر اللي الشبح بيستمد قوته منه، ده له وصف؟

حصل على مزيد من الفشار متابعًا:

- «جهنم»!

- قول كل حاجة!

- معلوماتي بتنتهي عند الاسم ده، بس اللي متأكد منه إن فيه إجابات كتير في الأوضة صفر، سرجاني بيخبي كل حاجة هناك.

- أنا ممكن أوصلها، بس هاحتاج مساعدتك!

- مستحيل! محدش دخلها وخرج على رجله!

- الدوبل شوه جسمي بأوسخ سكاكين عنده ووقفت على رجلي، تحب تشوف يا دكتور؟!

رمقني بتلك النظرة، كان يشعر بالصدمة من تهديدي، أو ربما تملَّكه الأسى حينما تخيل حصة التشريح التي واجهتها مع ذلك الحيوان البشري، لكنه عاد بنظره مجددًا إلى الشاشة وهمس: - مش الدوبل بس، فيه مستشار خد ملفك قبلها بشهور، اسمه ع السيستم «فيردو»، سرجاني اللي عيَّنه مع واحد كمان، بيقول إنه وصلك، بس بعد كده رفض إتمام المهمة، بحجة إنك هربت منه.

- ليه ما حذرتنيش!

- للأسف عرفت المعلومة بعد ما اعتذر.

- واضح إن الموضوع حياة أو موت بالنسبة للمحكمة.

حرك رأسه نفيًا:

- لأ، موت أو موت!

- لو مفيش مفر، يبقى على الأقل أموت وأنا عارف كل حاجة!

صمت لبضع ثوانٍ، محركًا رأسه إيجابًا مرارًا، كأن عقله يهضم شيئًا ما، ثم أردف: - الإجابة بتكلف دم، بس عمومًا معلوماتي بتنتهي عند ورقة ضغط، بيستخدمها شخص اسمه «جهنم» أو «الجحيم» عشان يضمن إن الشبح اللي كلمتك عنه يلبس جسم... جسم عربي مجهول.

عاجلته:

- عايز يعين رئيس عربي يكون تحت أمره!

- تقدر تقول يا شهاب إنه عيِّن خلاص!

- والراجل اللي اسمه «الجحيم» ده رئيس؟ وزير مثلًا؟

مط شفتيه مجيبًا:

- للأسف ما أعرفش، بس هو كمان راكب بلد آسيوي، بالمناسبة فيه إشاعة إن العائلات عايزة تحرقله ورقة الضغط، أو هتصدر أمر ضده، بس خايفين.

حركت رأسي يمينًا ويسارًا في عجب:

- راجل ماسك بلد آسيوي، ليه يضغط عشان يخلي واحد تاني يمسك بلد عربي؟ وليه يطلب من الشبح اللي اشترى أسهم من المحكمة رقابتي؟!

فرك عدسة نظارته بقماشة صغيرة وتابع:

- العائلات كانت رافضة في الأول، لكن بطريقة ما، ورقة ضغط «جهنم» نجحت، كان نفسي أعرف هوية الشبح العربي، أو حتى سبب استهدافه ليك! هل هو مجرد الراديو؟ أو أكتر، لكن كل ده مش مهم دلوقتِ، الأهم إنك تختفي!

- مستحيل أختفي بعد ما قربت من فك الطلسم!

- ولو فكيت الطلسم واتأذيت؟! هل الإجابة تستاهل؟

صمت لثانيتين، ثم تابع هو:

- شهاب! أنا ما أعرفش إنتَ فاضلك قد إيه! بس نصيحة يا ابني اهرب باللي باقي من عمرك، عيش في مكان هادي! ما تحاولش تنتقم منهم، كل راس تعبان هتشيلها هتطرح ألف راس، شهاب!

تابعت شرودي، ليتابع هو:

- رُد عليَّ! هل عندك مشكلة مع السلام النفسي؟

- مشكلتي مع الوقت!

تنهد محركًا رأسه إيجابًا وأردف:

- بيسرقك؟

- العكس صحيح. سنة ٢٠٠١ فيه تجربة اتعملت عن تأثير الزمن والخوف، سمعت عنها؟

- لا، بس سمعت صوتك في الراديو، وعرفت إن رجوعك الإعجازي عاملهم أزمة. المحكمة أصدرت أمر ضدك.

حركت رأسي إيجابًا وتابعت:

- فيه قصة قريتها زمان عن ملك، قاد جيشه في حرب ملحمية، وانتصر فيها، بعدها حس إن الجيش وصله الغرور، وإن كل قائد من قواده بينسب النصر لنفسه، طلب منهم حاجة من اتنين، يا كل قائد ياخد فرقته ويحاربوا بعض، يا كل قائد ينفصل بجيشه ويمشي في اتجاه مختلف، المحكمة كان لازم تعرف إننا هنستهدف بعض في يوم من الأيام.

ألقيت بالكشاف على الكرسي المجاور لي، ثم عدت بنظري إلى سميروفيتش قائلًا: - أنا كمان أصدرت أمر ضدهم.

مط دانيال شفتيه في خيبة أمل، نفض يديه من بقايا الملح وقام وعدل من هيئته، وأشار إلى فتاة عشرينية تعجبت من قراره: - مفيش فايدة! فيلم ممل يا مادموزيل! أنا هاغير السينما!

للحظة تظاهرت بالصلابة، وتظاهرت أيضًا أني لا أفهم معنى تلك الجملة، ثم أشرت مجددًا إلى سميروفيتش، رش بسرعة من سائل على الكرسي المقابل له، خرج الدخان بكثافة منه، قام كلُّ مَن في الصف مذعورًا، وبدأ بعض الأشخاص في ملاحظة الأمر، بضعة أسئلة وقليل من صرخات أنثوية، ثم

اشتعلت حالة الهرج والمرج.

حاول الكثير من الحضور الخروج من القاعة، تفاجأ دانيال بيد تمسك معصمه وهو يهم بالخروج، تحاول أن ترشده في طريقه: - هاساعد حضرتك تغير السينما!

ما إن شققنا طريقنا إلى الضوء وسط الزحام حتى بدأ كل شيء في التباطؤ.

فتاة نحيفة ذات شعر داكن، يسقط من يدها الفشار بعد أن صدمها شاب ثلاثيني، فتصرخ فيه، بعض مراهقين سعداء من الموقف، يضحكون، ويلقون النكات غير مكترثين، ورجل أربعيني أنيق، يرتدي نظارة نحيفة، ذو رأس أصلع، وشنطة لابتوب، ترقص برتابة على كتفه بينما يشق طريقه خلفنا بعناد واضح، ظهر انعكاسه في زجاج بائع الحلويات، التفتُّ بسرعة البرق كأنني أسترق نظرة سريعة خلفي، فرأت عيناي في جزء من الثانية، صورة لن يراها غيري في ثانيتين، ولو حاولت أقوى كاميرا في العالم تصوير ما حدث بتلك السرعة، لكانت النتيجة صورة مشوهة مهزوزة المعالم.

كان ذلك الأنيق الزائف، يخفي قلمًا في يده، يشبه أقلام حقن الأنسولين، وبحساباتي، وبحساب سرعته وسرعتنا، سيفعلها خلال أربع إلى ست ثوانٍ، لا بد أن أجهز نفسي للسيناريو الأسوأ!

أسدلت سكينًا صغيرًا من يمناي، ودفعت دانيال دفعة حميدة فاختل توازنه وسقط أرضًا، ساعدته سيدة أربعينية بعفوية، أما أنا فأمسكت بيد المستشار الأنيق، وعاجلته بتغييب نصل سكيني في عضلات فخذه بسرعة لم يتوقعها، ولا أعتقد أيضًا أنه توقع ذلك النوع من المعاملة من موظفي السينما الغاضبين.

صرخ وانزوى بعيدًا يقفز بقدمه السليمة، صرخت فتاة بجانبه، تجاهلت الأمر وتابعت طريقي مع دانيال وسط الزحام، شعرت أن قواه تخور بينما نكمل طريقنا، فحصته سريعًا لأجده ممسكًا بجانبه، والدم يسيل على بنطاله كالشلال.

لقد كانت السيدة! كم أنا غبي!

استقر بجانب الحائط، وجلس أرضًا، نظرت خلفي لأتأكد أن أحدًا لا يرصدنا: - ما تقلقش، أنا أقدر أعالجك.

حرك رأسه نفيًا، وقال بتلعثم وثمة لعاب يسيل منه:

- مفيش وقت! وما تلومش نفسك! لو فشلت المستشارة، كان هيكمل مكانها مستشار تالت! غالبًا عرفوك. اهرب، ما تضيعش كل اللي عملته!

نظرت خلفي، تماسكت محاولًا منع نفسي من الانهيار. تابع: - أرجوك!

تركته وهممت بإكمال طريقي، هرولت بسرعة الحشد نفسها، ثم قصدت سلم الحريق، واختفيت عن طريقه.

تابعت خلع طاقيتي، وحاجبَي المستعارين وشعري وما تبقى في الفولفو خاصتي، كان «سميروفيتش» يستعد للانطلاق بي، أشرت إليه فأطاع التعليمات ولم يسألني. رمقته طويلًا، ثم أخرجت هاتفي وأرسلت رسالة صوتية إلى دييجو: «جهنم»، بأي تمن!

وانطلقت الفولفو!

هناك قاعدة مهمة يعلمها الأطفال: الوحش يظهر فقط في اللحظة التي تغمض فيها عينيك، في أثناء الاستحمام، أو عندما ينطفئ المصباح، أو عند اختلاس النظر إلى ما يوجد تحت سريرك...

حينما تنتهي مرحلة الطفولة يحدث تغيير بسيط: تتغير كلمة «الوحش» إلى «الماضي».

بعدها بيومين

الأمر الآن عبثي. لم أكف عن التفكير فيما حدث لدانيال، العجوز العنيد، فشلت في إنقاذه، والآن المحكمة تكثف البحث عني، لديها العديد من الأسباب للفتك بي، مع أن مقابلة دانيال تكفي لتفجير رأسي، لو لم أفجره أنا قبلهم.

صور دانيال والشامي والسيدة تَتتابع في رأسي. كل شيء حدث يطاردني. أؤمن أن الطعنة تأتي فقط كلما اشتهيت النظر إلى الخلف. «خووخ» تشكَّل من ناتج أفعالك، تلمع عيناه وأسنانه في الظلام، ينتظر منك أن تكرر فعلة زوجة النبي لوط، حينما أخذها الفضول والتفتت لترى العذاب، وحتمًا ستفعل.

كنت أجلس في سيارتي الفولفو من بعيد، تحرق الرياح الجافة مقلتَي، أشاهد أحدهم يتظاهر بأنه يصلح سيارته بينما عيناه لم تفارقا اتجاه نافذتي.

بعدها بدقائق كان هناك ثلاثة رجال في شقتي المحاصرة برجال المحكمة، رجال شرطة ملثمون لم يجرؤ أحد على اعتراضهم، اقتحموا المكان عنوة، وحينما دلفوا رحلت بضع سيارات المراقبة ذعرًا.

رفع رجل الشرطة الأول عن وجهه الغطاء الأسود، كان شعره الأشقر الطويل يغطي نصف وجهه، وتبعه الثاني بعدما خفض سلاحه أرضًا، وكان شابًّا ذا شعر داكن خفيف الكثافة، مفروق من المنتصف، ضحك ذو الشعر الداكن قائلًا: - بصلي بصة صح! وقولي أنفع ظابط قوات خاصة!

حرك الأشقر رأسه نفيًا في خيبة أمل، ثم نزعت عن وجهي الغطاء بدوري، نظرت تجاههم وحركت رأسي إيجابًا، قلبت عينَي بين جنبات الشقة، ثم اتجهت إلى خزنة تركتها في دولابي، كنت أتمنى أن أمتلك سردابًا سريًّا لطابق سفلي به كل أنواع الأسلحة وأطنان من الأموال والنبيذ المعتق، لكن حياتي تختلف قليلًا عما يحدث في هوليوود، فأنا لا أعرف الاستقرار في مكان واحد

بسبب عملي، بيد أن كل ما أمتلكه هو ستمائة ألف دولار، وبضعة مسدسات وجوازا سفر حقيقيان، وغير حقيقيين.

ناولت دييجو نصيبه، حرك رأسه إيجابًا، أعطيت باقي متعلقاتي لسميروفيتش، وطلبت منهما أن يتركاني.

لا أعلم لمَ غرغرت عيناي بالدموع وأنا أودع تلك الشقة، لم أسمح لقلبي قَطُّ بالتعلق بشيء لا يمكنني حمله معي.

كنت أتساءل - بيني وبين نفسي - إلى متى سيصبر ذلك الشبح الذي حرض سرجاني على اقتحام شقتي؟ لكنني أعلم أن مقتل الدوبل كان «الثريشولد» الخاص بهم، ومقابلتي لدانيال ضغطت على عصب لديهم، سيأتون هنا، لذلك قررت أن أحرق قلبهم وقلبي معًا.

رششت بعض البنزين، وأشعلت سيجارة، تنفست منها، قلبت عينَي مجددًا في حوائط المكان، التلفزيون، ماكينة القهوة. حصلت على نفَس جديد وألقيتها وداعًا، وبدأ كل شيء في الاشتعال؛ صور المرأة ذات العينين المفقودتين، التلفزيون الكبير، وكلماتي مع فداء. هممت بالرحيل، لكن سال شيء من أنفي: دماء! التفتُّ سريعًا وأمسكت بمسخ من رجال المحكمة يتسلل ووجهت سلاحي إليه، مهلًا... إنه العدم!

إنه الخووخ!

حسنًا، هذه نهاية جيدة، لقد صعقتني نوبة الصرع في التوقيت المثالي مجددًا! حاولت جاهدًا الركض في الثواني المتبقية لي. غريزة الحياة لغز محير، شخص يلقي بنفسه في محيط لينتحر، ثم يركل الماء بكل كد قبل أن يبتلعه.

خارت قدماي قبل أن أصل إلى الباب على الرغم من سرعتي، وسقطت زجاجة البنزين بجانبي، وانسكبت بجانب وجهي، تصاعد الحريق خلفي، بدأت أسعل، شعرت باللهيب يقترب من ظهري ووجهي، طقطقة النار لأصابعها، وحش في البرية لمعت عيناه في ظلام، مشى فيه صيد جريح.

إنها الآن إذن، نهايتي التي طالما فكرت فيها. لم تكن في أمعاء الدوبل، مَن كان يتوقع؟!

و... طلقتان، اخترقتا بابي فانفصل عن القفل، كانت الرؤية مشوشة لديَّ، لكني شممت رائحة أعشقها على الرغم من الدخان؛ رائحة التوت البري، شعرها الأشقر المائل إلى الاخضرار، اللهيب يا منقذتي، يقتلني كلما رأيتكِ!

نظرت إليَّ مبتسمة، قلت لنفسي: «إنه أنتِ، أنتِ «فيردو»!».

لقد كنت أحمق وكان كل شيء أمام عينَي، لقد وجدتني منذ أمد بعيد! ولم تنفذ فيَّ حكم الإعدام، والآن، هي تنقذني، من لهيب، وتلقيني في آخر.

بعدها بساعات

ارتفاع الموج وصوت شهيقه، الشمس صافية إلى درجة تجعلك ترى نهاية الكون من مكانك، الرمال بيضاء ناصعة، كوب القهوة في يسراي، القهوة داكنة، لو كان هناك شيء يُدعى «المادة المظلمة» لم يكن أكثر قتامة من تلك، والمرأة ذات العينين المفقودتين تمسك بذراعي اليمنى، الشعور نفسه، هناك شيء يرغمني أن أقرب القهوة من فمي، أعلم ما سيحدث بعدها، لكنني لا أستطيع منع نفسي، تمامًا مثل السقوط الحر.

قربت القهوة من فمي، مثل كل مرة، لكن قبيل أن تتدفق القهوة المظلمة إلى جوفي، إذ بيدها تصدم الكوب فيطير بعيدًا، أنظر إليها في ذعر، لقد أنقذتني تلك المرة! وإذ بها امرأة جميلة، في نهاية الأربعينيات، تعارك بشرتها الناعمة بضعة تجاعيد، شعرها ذهبي غير مستقيم، و... عيناها، رأيت عينيها! لكنَّ شيئًا ما، جذبني مما أنا فيه، كأن الأكسجين قُطع عني فجأة.

تجمعت الصورة أمامي ببطء، انتبهت من نومي.

هناك سيدة عجوز، ترتدي نظارة كبيرة الحجم تتدلى منها سلسلة بنفسجية اللون على رقبتها، تدخن بشراهة واضعة ساقًا فوق الأخرى، تشاهد شيئًا على التلفزيون، التلفزيون يعرض الأخبار باللغة الإيطالية، هناك ألم في وجهي وقدمي، ولاصق طبي كبير وبضعة مراهم لزجة عليها، وطعم التوت البري على شفتَي... قبَّلت أحلامي في الفم!

لم أحتج كثيرًا من الوقت لأوقن ما يحدث؛ أنا في بيت فيردو، وهذه قد تكون أمها، من الغريب في عملنا هذا إحضار الأبوين معك، لكن لا يهم ما هو غريب الآن، فمن غير المنطقي أيضًا، أن أنقذ فتاة جميلة من الموت من دون أن أعلم أنها أتت من أجل روحي، فتنقذني هي، بدلًا من أن تقبض ثمن رأسي.

- قلم من فضلكِ!

قلتها بإنجليزية صلبة، لعلها تعي ما أريد، ارتعدت السيدة وصرخت، حتى إن مطفأة السجائر سقطت منها على الأرض، قامت من مجلسها برشاقة لا تتناسب مع سنها، وظهر في يدها مسدس صغير الحجم وجهته إليَّ، أشرت

إليها بكفي في حركة دفاعية، وقلت لها كلمة لا أعلم غيرها بالإيطالية: - «بيرفافور»!

تدخلت هي أخيرًا، المرأة الحديدية، التي أشعلت قلبي ورفضت إرسال رأسي إلى سرجاني، تتعارك مع أمها بلكنتها المميزة وفي يمناها مكواة. في الجحيم، حينما أقابل الأوغاد وأجلس لأحكي لهم، لن يصدقوا ذلك الأمر.

اقتربت مني، وقالت لي بلكنة مميزة، بعدما هدأت والدتها وعادت إلى التلفزيون: - قلم؟ لماذا؟!

تنهدت قائلًا بالإنجليزية:

- لن أستطيع شرح الأمر.

اختفت وعادت ومعها قلم وورقة، ناولتني إياهما، ووضعت بجانب سريري أقراصًا مسكنة.

تجرعت ثلاثة منها وشكرتها، وشرعت في رسم وجهها، وعينيها. جلست بجانبي لترى ما تخط يدي، قالت: - مَن هي؟!

تابعتُ خط شعرها بعدما تأوهت من الألم الناتج عن الحريق:

- مجرد امرأة قابلتها، تظهر في أحلامي!

- جميلة للغاية!

- أجمل على الحقيقة!

أشارت إلى الورقة وأردفت:

- تعرف عنها الكثير؟

- أعلم أنها منعت عني الموت.

بدأتْ في صناعة فقاعة كبيرة من علكة بطعم التوت والتهمتها قائلة: - يجب أن ترسم صورتي في يوم من الأيام!

حركت رأسي إيجابًا:

- سأفعل ذلك إن لم ترسلي إليَّ السوشي مجددًا!

لعنتني بالإيطالية مبتسمة وأردفت:

- تعلم! لم يكن عليَّ أن أنقذك من الشواء حيًّا!

ضحكت بدوري وتابعت ما أفعل، لكنها تساءلت:

- قل لي: هل أنت مصاب بمرض ما؟ أعني ما حدث في شقتك!

- نعم، قصة طويلة ومملة!

تنهدت طويلًا وهي تراقب رسمي قائلة:

- بالمناسبة! لديك أسلوب سيئ في التخلص من ممتلكاتك، قوات الإطفاء والشرطة في كل مكان!

تجاهلتُ الرد، أضافت هي:

- تخيلت أن لديك بعض الأسئلة، وليس تدريب رسم!

- جاوبتِ عن كل الأسئلة عندما أنقذتِني، فيردو!

حركت حاجبها الأيسر متعجبة:

- يبدو أنك متابع جيد لقائمة المستشارين!

- وأنتِ متابعة جيدة لشقتي، ربما تودين إطلاعي على اسمك الحقيقي. لديَّ بعض الفضول!

- أنت تعلم أن هذا ضد التعليمات!

- وأنتِ تعلمين أنك تحدثين رجلًا ميتًا!

- صدقني، ستكون كذلك حينما أخبرك باسمي!

رمقت عينيها الخضراوين طويلًا معجبًا بثقتها، صمتت لثانيتين ثم تابعتْ: - اسمع! عذرًا لما حصل للتو، أمي لديها بعض الحساسية من جلب المستهلك داخل البيت!

ابتسمت وتابعت رسمتي لتتساءل بنبرة حادة:

- هل تعتقد أن الأمر مضحك؟

- لا! فقط لم أجرب إحساس المستهلك من قبل. بالمناسبة لديَّ سؤال واحد!

عاجلتني:

- الكاميرا؟!

- نعم، كيف تخطيتِ نظم الأمان في الباب؟

حركت رأسها إيجابًا وقالت بالإيطالية على مرتين وهي تضم أصابعها بحركة تعبيرية إيطالية: - الـ... بلكوني!

كلمة وضحت كل شيء، وصورها في الجيش الإيطالي - تدريبات القفز بالمظلات - وضحت لي المزيد، إضافةً إلى صورها في أثناء تدريبها على رياضة «الباركور»، بالطبع لن تفشل في التسلل عن طريق البلكون.

فتاة تتقن «الباركور» وتقتل من أجل المال. الذي كتب عن فاتنات «الفالكيري» في الميثولوجيا النوردية، لم يرَ فيردو!

ابتسمتُ وتوقفت عند عينيها مجددًا، ثم تنهدت طويلًا، باغتني الألم، وضعت يدي على جبهتي مغمضًا عينَي، نزف أنفي.

تساءلت هي:

- أنت بخير؟

حركت رأسي إيجابًا، قمت بصعوبة، ارتديت معطفي وصففت شعري بيدي، قاومت الألم الناتج من الحرق، تابعت بالإنجليزية: - لو لا توجد لديكِ نية للحصول على مكافأة سرجاني، ربما يجب أن تتركيني أرحل!

رمقتني طويلًا، ثم أشارت إلى درج بجانب سريري، قصدته، وجدت فيه ما استطاعت إنقاذه معي، سألتني وهي تنهل من سيجارة إلكترونية: - لماذا موتك مهم للغاية؟!

وضعت مسدسي في ظهري، شعرت ببعض البرودة منه، رمقتها طويلًا، ثم أردفت: - أنا في نصف الطريق إلى معرفة الإجابة!

تساءلت هي:

- محطتك الجديدة، أين؟

صمتُّ طويلًا وأجبتها:

- المحكمة صفر!

زفرت نفسًا طويلًا وأردفَت بعامية سيئة:

- فيه حاجة مهمة عايزاها!

- باسمعك!

تابعَت لكن تلك المرة بالإنجليزية:

- عندما عيَّنني سيرجيو، أمرني بمراقبة رجل طاعن في السن، قال لي إنه يعمل في قسم التعيينات بالمحكمة. يستعمل عصا دائمًا عند مشيه!

رددت بالإنجليزية بدوري:

- تتحدثين عن نادر دانيال؟!

- نعم! اسمع! لقد راقبته فترة طويلة، يقضي معظم الوقت مع حفيدته وليس له أي نشاط...

- فيردو! ماذا تريدين؟

- لا أعلم، لقد بدا كشخص جيد لي! أعني لو فعلتها في المحكمة، من فضلك كن رفيقًا بدانيال!

رمقتها طويلًا بنظرة خائبة الرجاء ضامًّا شفتَي في أسف، لم أستطع أن أشرح لها كل شيء، لكنها فهمت من صمتي ما حدث له، تغيرت معالم وجهها، كانت المرة الأولى التي أراها فيها غاضبة.

* * *

لم تتجاوز الساعة الحادية عشرة أمام مخزن شركة «ألفا» للتجارة الإلكترونية على أطراف الإسكندرية، حتى استقرت سيارة فارهة كنت أنا قائدها، عن يميني دييجو، أومأت إليَّ فتاة عشرينية فاتنة الجمال في المقعد الخلفي، ولمعت عيناها الخضراوان مبتسمة، شعرها مستعار أسود طويل، سألتها بنبرة هادئة بالإنجليزية: - هل أنتِ متأكدة أنك تودين المشاركة في ذلك؟

لم أتوقع رد فعلها، لكنها صنعت ذلك الوجه الطفولي، أخرجت جزءًا من لسانها وحوَلَت عينيها، قاومتُ ابتسامة ونظرت أمامي قائلًا: - حسنًا، التزمي باتفاقنا!

ثم خاطبت الميكروفون المعلق في أسفل ياقة قميصي:

- بلجراد! كل حاجة تمام؟

رن صوت سميروفيتش في سماعتي:

- سنغالي برتغالي! مع إن كان نفسي في شوية أكشن!

رددت معزيًا إياه متسائلًا عن وضوح الكاميرات:

- هتشوف الأكشن لايف! الصور واضحة؟

تابع هو:

- كل الصور واضحة والصوت كمان! ميكسيكو! هومي؟!

رمقني دييجو بتلك النظرة، فأومأت إليه، رد ببعض الرتابة بعد أن أشاح بوجهه متجهمًا: - كله كويس!

عاجله سميروفيتش:

- مش من قلبك!

رمقني دييجو مجددًا، حركت حاجبَي فاردًا يمناي في حركة معناها «افعلها!».

رد دييجو بعد بضع ثوانٍ من الصمت:

- كله كويس يا هومي!

ضحكت فيردو، وابتسمت بدوري، ثم ترجلت هي أو «فالي» نسبة إلى فتاة «الفالكيري»، كما أسميتها على الراديو الخاص بنا. كانت المسألة سهلة بالنسبة إليها، فتاة أجنبية جاءت تبحث عن عمل في شركة «ألفا»، أعلم أن

فاتنة مثلها سيُصنع قسم خاص بها لو لم يمتلكوا وظائف خالية. بينما كان سميروفيتش يراقب كل شيء على الشاشة الكبيرة المقسمة إلى ثلاثة أقسام أمامه، سيكون هو عينَي في تلك المرحلة.

خلف سيارة مصفحة - تشبه سيارات نقل الأموال - استقرت السيارة التي قدتها، دلفنا داخل السيارة الأخرى أنا وديجو، وارتدينا الزي الخاص بقوات المطافئ، وانتظرنا الإشارة.

بعدها ببضع دقائق سمعت صوت فيردو في سماعتي، فأمسكت بهاتفي لأشاهد الصور الصادرة من الكاميرا الموجودة في نظارتها، وإذ بها داخل حمَّام ما تعلن جاهزيتها للخطوة التالية: - «برونتا»!

نظرتُ إلى ديجو، فحرك رأسه إيجابًا، فقلت بصوت واضح لها بالإنجليزية: - الآن!

بعد بضع ثوانٍ ضج صوت إنذار قوي في مخزن «ألفا»، إنذار حريق، فتاتي الإيطالية التي أحرقت قلب الجميع، الآن تلهب منشأة المحكمة صفر، باستخدام مزيج من البروبان والماغنيسيوم، رشته في أماكن حيوية في المستودع. كان حريقًا كيميائيًّا مفتعلًا، برعاية سميروفيتش.

بعد أربع دقائق كنت أنا وديجو عند مدخل المنشأة، كان المخزن كبيرًا للغاية، بُني على مساحة تساعده على احتواء العديد من المكاتب وأماكن لتخزين مئات الآلاف من المنتجات، استثمار مصري خليجي مشترك.

كان الجميع يركضون، قادنا اثنان من طاقم الحراسة إلى داخل المبنى، كانوا يمدحون سرعة المطافئ في الحضور، لكنَّ أحدًا منهم لم يتساءل: أين سيارة الإطفاء نفسها؟!

في داخل المبنى كان جميعهم يركضون في ذعر، السماء تمطر رذاذًا مائيًّا ناتجًا من رشاشات المياه، ارتديت خوذتي وكذلك فعل ديجو، أحكمت قبضتي على أنبوب الإطفاء الذي أحمله، وقصدت القسم المشتعل، كان قسمًا مكتبيًّا، به الكثير من الأوراق والكراسي المشتعلة، كانت النار تتأثر بمقدار ضئيل كلما لامستها المياه ثم تعود وتزدهر. وجهت مسحوق الأنبوب تجاه الحريق وسط الصريخ وفشلت في السيطرة عليه، وكذلك فعل ديجو، وهو المتفق عليه. نظرت إلى ديجو، وأومأت إيجابًا فاختفى من جانبي، ثم نظرت إلى الحارس الذي رافقني وصرخت في وجهه: - الحريق كيميائي! بلغ القوات بره!

هرع ركضًا إلى الخارج، رميت ما بيدي وألقيت خوذتي جانبًا وقصدت المكان نفسه الذي قصده دييجو.

أمام غرفة بسيطة لها باب فولاذي وقف رَجلا حراسة، كانا صنمين لا يتحركان، لا يعنيهما أن ثمة حريقًا، كأن من عيَّنهما دربهما أن غيابهما عن الباب تحت أي ظرف يعني موتهما.

رأيت دييجو واقفًا في تجمد تام أمامهما، لا يعلم ما يجب فعله، صرخت: - رجليكو فيها أسمنت؟! الحريق كيميائي! اتحركوا!

نظر بعضهما إلى بعض، ثم حرك أحدهما رأسه نفيًا من دون أن ينطق بأي شيء!

- الأوضة دي أغلى من المبنى كله يعني؟ أغلى من حياتكو؟!

قلتها للتأكد، وإذ بهما يُخرِجان سلاحيهما، كان ذلك كل ما أردت، إنها هي بالفعل: الغرفة صفرا!

الغرفة صفر هي غرفة صممها سرجاني، تحوي كل الأسرار والملفات القذرة، حتى أرقام حساباتهم في بنوك الخارج، لا يمكن اختراق الحاسب القابع بداخلها، ببساطة لأنه غير متصل بالإنترنت، يقال إنه أصدر أمرًا بأن أي شخص يدخلها أو يخرج منها غيره يُقتل.

هناك بضعة أقاويل أنه صمم نظامًا ما بداخلها يجهز على أي دخيل، البعض يقول إن ثمة نظام إشعال يحرق مَن يدخلها، لو راوده الشك أن الشخص الذي دلفها ليس الشخص المنشود.

رفعت يدي واعتذرت ليهدأ روعهما، وينزل رأسا سلاحيهما أرضًا، ثم أخرجت سلاحًا خبأته في جيبي، وتباطأت قطرات الرذاذ أمام عينَي، نتعارك تحت الماء جميعًا، إلا أنا.

رأيت في أعينهما التحفز، وتأهبا لإطلاق النار عليَّ، لكني بادرتهما بطلقتين، حاولت قدر المستطاع ألا أخطئ، طار السلاحان من يديهما، إلا أنني أصبت أيسرهما في إصبعه، عزائي أنه لا يزال حيًّا.

تابع دييجو العمل وناول الأول قبضة قوية أرسلته إلى نوم عميق، استسلم الثاني رافعًا يديه. طلبت منه أن يفتح باب الغرفة، استخدم كارتًا مغناطيسيًّا مرره أمام جهاز معلق على الباب، ثم أدخل بضعة أرقام، ليصدر صوتًا معدنيًّا، ناولني الكارت وأمسك بيده الدامية ونظر إليَّ قائلًا: - اللي بتعملوه خطر على

حياتكم!

حركت رأسي إيجابًا، ثم أشرت إليه بالرحيل، فهرع ركضًا، اصطدم بأحد الحراس العائدين من الخارج، لكن الأخير غيَّر من وجهته وفر معه حينما رأى بيدي السلاح.

فتح دييجو الباب، مسحت المكان بعينَي متجاهلًا النيران خارجه، كان خاويًا إلا من طاولة معدنية عليها شاشة حاسوب لاسلكية غالية الثمن متصلة بلوحة مفاتيح وفأرة من النوع نفسه، الجهاز يخرج من الحائط بحيث لا يمكنك فصل التيار الكهربي عنه، وكاميرا معلقة في السقف، فقط!

أخرج دييجو من جيبه كيسًا بلاستيكيًّا به علبة بداخلها مسحوق أبيض، رشها في الهواء ورمق الغرفة بينما تتساقط ذرات المسحوق أرضًا وبعضها معلق في الهواء، تأكد أن ليس ثمة أشعة ليزر أو شيء آخر، نظر إليَّ ليطمئنني، لكنني لم أشعر بأي راحة، لأن مَن صنع تلك الغرفة هو سرجاني أو «سيرجيو» كما يحب أن يلقبه رجاله.

على أي حال، سرجاني لم يكن مجرد رجل يمتلك خطة يمكنها طعنك، سرجاني لن يتركك حتى يبتلع قلبك محترقًا، ويصنع من مخاوفك شبحًا يمكنه إخافتك... بلا قلب!

لم أصدق أنه سيترك غرفة كتلك تحت حماية مهرجين فقط، مثلما لا أصدقه حينما يكتب على تطبيق «ألفا» أمام المستشارين أنه يعتقد أنني الأفضل، وأنه يعتبرني أعز أصدقائه على الرغم من عدم تقابلنا وجهًا لوجه.

نظر إليَّ دييجو قبيل دخوله، فصرخت بنبرة لم تُظهِر أي ثقة من جانبي: - ممكن نلغي الجزء ده لو قلقان!

بالطبع سيكفي المحكمة إحراقنا للمحكمة، لكنني لن أعلم شيئًا عن تلك الخيوط التي قالها لي دانيال لو فعلتها، لم أرغب في وضع دييجو في مخاطرة من أجلي. الحقيقة أن الشخص الذي انتابه القلق كان مَن تساءل.

دفعني دييجو، وجذب الباب خلفه من دون أن يُغلَق قائلًا بنبرة ساخرة: - غطي ضهري! سنغالي برتغالي!

صرخ سمير بدوره في السماعات:

- دي كلمتي على فكرة!

تابع دييجو:

- بلجراد! أتمنى ما يكونش بينا زعل!

رد سميروفيتش:

- هومي! دي علامة مش كويسة!

كنت أصوب سلاحي أرضًا محاولًا رؤية الأشخاص الراكضين في الممر الموازي، عسى أن يعود الحارس ببضعة أصدقاء، لكنني فهمت مقصد سميروفيتش معلقًا: - تحس إنه بيودعنا صح؟!

تابع سميروفيتش:

- هو حرفيًّا البنت هي اللي هتودعنا!

على هاتفي رأيت من كاميرا فيردو عرضًا أكروباتيًّا؛ تطير فوق الدواليب المعدنية المفرغة، التي تحتوي على مئات الطرود للمنتجات الجاري تسويقها، وحولها صريخ وأشخاص يركضون، كأنها في سيرك ما، يسقط دولاب فتتركه في آخر لحظة وتتسلق حائطًا بخفة لاعبي رياضة «الباركور» وتنزل على آخر، تفتح علبة ما فتجد هاتفًا فتلقيه في النار، ثم تجد هاتفًا أمريكيًّا غالي الثمن فتدسه في جيبها، قلت بإنجليزية: - لا وقت للتسوق فالي! هذا خطر! حاولي الخروج من المكان والاتجاه إلى المكان «B».

انتظرتُ الرد فوجدتها تمد يدها أمام النظارة، وتُخرِج إصبعها الوسطى.

فتاتي، تعرف ماذا تفعل. هي الخطر نفسه!

تابع سميروفيتش ساخرًا:

- تمام، واضح إنها بخير!

رغبت في الابتسام على الرغم من صعوبة الموقف، لكنني تابعت طريقي في الممر، لاحظت صندوقًا أحمر مكسورًا، به بلطة وأنبوب إطفاء غير موجود. لكنَّ شيئًا ما قاله دييجو في السماعة بعث ببعض الخوف في أمعائي: - حليت الباسورد، بس غريبة إنه مديني تلات دقايق بس، هيحتاج مني باسورد جديد!

كان هناك جهاز صغير يمتلكه دييجو، أقنعني أنه يستطيع حل أي كلمة سر في غضون عشر ثوانٍ، رددت عليه بينما أتابع الصورة التي نقلها سميروفيتش من نظارة دييجو: - أنا فاكرك واثق في صديقك الصغير!

رد:

- عمره ما خذلني في باسورد - بالمناسبة - هتنبسط أوي من كمية المعلومات: غسيل أموال، فيديوهات لاغتيالات، رسايل بين سفارات، أهلًا بالعيد!

عاجلته ساخرًا:

- ميكسيكو! النار بتقرب! نفتحلك تايم جديد في السايبر؟!

رد وصوت طقطقة أصابعه لا ينقطع:

- هاحتاج أربع دقايق بس، الداتا كبيرة!

تمكن إحساس الخوف من أمعائي حينما سمعت ذلك الصوت في السماعات العمومية المعلقة في كل مكان؛ صوت شخص يحاول أخذ نفَس عميق قبيل تكلُّمه، كأنه يعاني صعوبة ما في التنفس، تمنيت لو لم يفعل ذلك.

إنه هو! ألد أصدقائي:

- اسمه شهاب، وهو شهاب؛ عقله مريع، غضبه سريع، عنده كتير من الأسباب!

تابع بعدما تنفس بصعوبة:

- شهاب! ألد أصدقائي! يا ريتني كنت في مصر، عشان أتفرج - لايف - على الدخول الدرامي لراجل الملايكة!

استعرت النار وبدأ الدخان في الازدياد، لربما تسرعنا في كمية الحامض الذي استخدمه سميروفيتش في الإشعال، وبدا لي أن رذاذ الماء فشل حتى في إبطاء انتشار الحريق، والآن سرجاني يزيد حرارة الأمر، ثم قالها بنبرة أخافت كل خلايا جسدي: - حاسس إنك محتاج دراما أكتر، استمتع بـ«الفاير ورك»!

توقفت رشاشات الماء، وشدت أغنية ساحرة من السماعات العمومية اللعينة، فتاة ذات حنجرة ذهبية، تتحدث بالإنجليزية عن السهم الذي أدمى قلبها من حبيبها، وعن الأرض التي تناثرت وتكسرت حينما رأته أول مرة، و... صوت إغلاق معدني، تمنيت ألا يكون ما ظننت، جاء التأكيد من دييجو: - باب بيقفل أوتوماتيك! إحنا ما اتفقناش على كده يا هومي!

رددت بصوت واثق على الرغم من رعبي:

- هاطلعك! ما تقلقش!

مرة أخرى، كنت أخاطب نفسي حينما طلبت منه عدم القلق!

عدت راكضًا تجاه الباب، وأدخلت الأرقام كما فعل الحارس بعدما مررت الكارت المغناطيسي، وظهر لون أحمر وصوت تحذيري، كررت الأمر وحدث الشيء نفسه، جربت ثالثًا وأدخلت الرقم بهدوء؛ لا شيء، النتيجة نفسها!

لثانية تذكرت صورة الشامي ظل، ميتًا والدماء منفجرة من جانب رأسه.

إحساس من الخيبة والندم، يزحف من تحت عقب الباب كوحوش أفلام الرعب، لزجًا داكنًا رائحته تجعلك على وشك التقيؤ، إحساس أُغلقت خلفه الأبواب في جانب عقلك، ألف باب وباب، تهرب منه وتصل إلى الباب الأخير لتجده يداعب حذاءك قبيل أن ينقل نفسه بالكامل إلى محيطك.

هناك قانون مهم في فيزياء الكارتون: مهما تهرب ممن يطاردك وتغلق بابًا خلف باب بالمسامير والأقفال، سيجدك، بل سيساعدك في غلق الباب الأخير حتى تتيقن أن مَن يناولك المطرقة هو مَن هربت منه، لا تحاول أن تعلم كيف هرب من كل ذلك، المهم أنه معك!

لاحت النيران من الممر الذي كنت فيه للتو، غطيت وجهي كي لا أستنشق الدخان. تابعت الشاشة على هاتفي، كانت فيردو اقتربت من لوحة الكهرباء الرئيسية كما اتفقنا، لاحظت أن دييجو قد تجمد أمام الحاسب، وهناك شاشة غريبة أمامه، ثم قال أكثر جملة لا أريد سماعها في حياتي: - صديقي! ربنا خلق اتنين رجالة: واحد للجنة، وواحد لجهنم. أنا أنهي واحد فيهم؟

عاجلته:

- رفض الباسورد؟!

تابع:

- وقدامي تسعين ثانية! طبعًا إنتَ عارف هتعمل إيه مع عيلتي!

نظرت أمامي، وإذ بالنار قد سيطرت على معظم الممر. صرخت لفيردو:

- الآن فالي! اقطعي الكهرباء!

بسرعة تُحسد عليها قطعت الكهرباء عن كل المبنى، وسيطر الظلام، لكن حدث ما لم يكن في حسباني، أضيئت الممرات مجددًا، وظهر أمامي جهاز الحاسب المقابل لدييجو من دون أن يمسه سوء.

تواصلت مع فيردو:

- الغي كل الخطة، اخرجي بأقصى سرعة! أنتِ تعرفين الطريق!

ما إن قلتها حتى بدأت في القفز بخفة فوق الحوائط حتى اقتربت من شباك كبير.

نظرت إلى الممر وتسارعت دقات قلبي، غطيت وجهي بكل ما أملك وقلت قبيل الركض داخل الممر لدييجو: - اشتريلي دقيقتين زيادة!

رد بثبات أحسده عليه:

- أتمنى لو الوقت بيتباع يا صديقي! أنا شخصيًّا ما أعرفش هاموت إزاي!

رمقت الغرفة لثانيتين من خلال نظارته ووجدتها:

- التكييف! فتحة التكييف! استخدِم الكيس اللي كان معاك!

رأيت الشاشة تشير إلى خمسين ثانية، ورأيت دييجو ينظر إلى فتحة التكييف، ثم إلى جيبه، وأخرج منه الكيس البلاستيكي، قال بنبرة أقرب إلى الرجاء: - اعملها يا صديقي! لو تقدر!

كنت أسمعها وأنا أركض داخل الممر، تلهب النيران وجهي ويشق الدخان رئتَي، أسعل وأراوغ النيران، حتى وجدت البلطة، شعرت بلحم جسدي يشتعل وتجاهلته.

مرت بضع ثوانٍ، انفجرت طائرًا من ألسنة اللهب التي كست الممر، تجاه الغرفة حتى وقعت أرضًا، انزلقت البلطة أمامي والهاتف. على الهاتف ظهرت ألسنة دخان قاتمة تخرج من فتحة التكييف بعد انتهاء المهلة، وديجو يغلق الكيس البلاستيكي على رأسه، قمت من الأرض وأمسكت البلطة، واستهدفت مفصلات الباب الفولاذي، أضربها كأنها الشيطان، الدخان يدخل رئتَي مع الأكسجين فأتجاهله، أسمع صوت شهقات دييجو الذي وقع أرضًا من الاختناق، يعاندني الباب فأصفعه مجددًا، ومجددًا، ومجددًا.

و... يدي تسحب دييجو!

لن تموت الآن أيها الوغد الوسيم! ليس اليوم!

توكأ عليَّ، النيران حولنا، أكاد أنهار فأصمد، شدا صوت الفتاة من دون انقطاع، صوتها العذب. كان يصف كيف تكسرت الأرض وماتت حينما رأت حبيبها أول مرة. سقطنا عند باب المستودع، لم نستطع المواصلة، رأيت النار والدخان يلحقان بنا، جال برأسي أنني استنشقت بعضًا من الغاز القاتل بالداخل، ثم رأيت دييجو وقد فقد الوعي، وتبعته نوعًا ما، واستسلمت.

فُتح الباب!

ودخل الضوء، أميرتي المحاربة وسميروفيتش ينتشلاننا، والناس يلتفون حول المستودع المحترق.

هناك لحظة تفصل الحياة عن الموت، تغلبني كثيرًا، لطالما رغبت في الاستسلام لها، لكن ليس اليوم.

ليس اليوم.

مر يوم ونصف

ما زلت أذكر الأغنية.

لسبب ما كانت تشدو بداخلي، داخل قلبي، تقفز من فوق شريان فتستقر فوق آخر. لا أعلم كيف وصفت حبيبها هكذا، كيف التهمها وصعقها بسهم استقر مباشرةً في قلبها؟!

قبيل الاستيقاظ، تمنيت لو أن نهاية المشهد حدثت فعلًا، وأن سميروفيتش وفيردو أنقذانا، وأن عقلي لم يختلق تلك النهاية السعيدة.

انتبهت!

الأمر حقيقي إذن، جميعنا هنا، لا أعلم كيف.

تذكرت كل شيء. لقد كان الأمر مجهدًا للغاية، التعافي مما حدث، وذلك الطبيب الطاعن في السن الذي استمر وجوده لعدة ساعات، لعله هو نفسه من حاك جسدي بعد حادثة الدوبل. سمعته يقول إن دييجو كان ليموت، لو استمر داخل الغرفة لنصف دقيقة أخرى.

كنا في شقة دييجو الفاخرة بالإسكندرية، وهو غارق في سبات عميق، عُلقت المحاليل فوقه، وعلى وجهه قناع أكسجين، بجانبه سمير ينام على طريقة محاربي «النينجا»، عجيب ذلك المهرج، حتى في نومه.

كانت فيردو غارقة في استخدام حاسبها الإلكتروني حينما دلفت أنا إلى الحمَّام الواسع أجر قدمَي بجهد كبير.

عريت نصف جسدي، بدأت في وضع مراهم الحروق على وجهي وصدري وذراعَي، أشاهد جسدي النحيل بالمرآة، شعرت ببعض الألم في جرح الدوبل القديم، بدأت في نزع الضمادة عن بطني، ازداد الألم، لكنني شممت رائحة التوت البري مجددًا؛ كانت هي. بدأت أنا بالحديث: - أعتذر لو أنكِ أردتِ استخدام الحمَّام!

حركت رأسها نفيًا ودلفت، بدأت تساعدني في نزع الضمادة برفق، أغمضت عينَي بغتة من الألم وتشنجت أعصاب وجهي لثانية، ثم ظهر الجرح القديم يكسوه اللون الأزرق القاتم، هناك خيط دموي بسيط فر منه، بحثت عن قطعة قطن ووضعتها عليه، قالت بصوت خافت خشية أن توقظهما: - يبدو أنك أدميت نفسك في تلك المحاولة، الجرح فُتح مجددًا!

- سيلتئم مجددًا.

- أقدر ما فعلته من أجل دييجو.

- أخفقت! وضعته في خطر كبير من أجلي.

- أنت أنقذته!

- لا تمزحي معي!

- لمَ قد أفعل ذلك؟!

- تعلمين كل شيء! كان بينه وبين الموت بضع ثوانٍ!

- أنت قاسٍ على نفسك! هيا! ناوِلني ذلك المرهم!

- هذا للحروق!

- مراهم الحروق تفيد التقرحات، علمونا ذلك في الجيش، سنحتاج مضادات حيوية أيضًا، لربما نستدعي ذلك الطبيب ليرى إذا احتاج الجرح تدخلًا من جانبه.

تابعت هي:

- لماذا تنظر إليَّ بتلك الطريقة!

- لا شيء، لم أعتد بعد رؤيتَكِ تتكلمين.

- هل يزعجك الأمر؟!

- العكس صحيح.

قطعت ضمادتين بأسنانها وألصقتهما بعضهما عكس اتجاه بعض فوق جرحي قائلة: - هذا سيؤلم قليلًا!

ثم شدتهما لتضمن أن شيئًا سيضغط على الجرح ليتقابل شقاه، أطبقتُ مجددًا جفون عينَي ألمًا، كررت الأمر مجددًا ثم لصقت لصقة طويلة لتغطيه متسائلة: - جُرح من العمل؟

حركت رأسي إيجابًا.

بدأت في مداواة بضعة حروق في وجهي، ثم فردت المرهم على جزء نسيته، ترمقني مباشرةً في عينَي، تقترب مني إلى درجة لم أعهدها من قبل قائلة بصوت أكثر خفوتًا: - لم أرَ رجلًا في حياتي أكثر عنادًا منك.

شعرت بوهن، يمنعني من مقاومتها، سرحت في وجهها وفعلت المثل، إلى أن فاجأني آخر صوت تمنيت سماعه في الحياة؛ صوت سميروفيتش: - لو الحمَّام ما فضيش خلال تلات ثواني هتشوفوا منظر مخيف!

نظرت بعيدًا تداري بعض الإحراج، أعادت خصلة من شعرها خلف أذنها وهمت راحلة، وأنا أيضًا نظرت بعيدًا وسعلت بطريقة بسيطة لكن مفتعلة.

الآن كرهت سميروفيتش!

شرعت في الخروج بعدها، لكنه قال بطريقة ساخرة بينما يفك حزام بنطاله: - إيطالي برتغالي!

بعدها بقليل - أمام الحاسب - كانت فيردو في وادٍ بعيد، تتلاعب أناملها

بلوحة المفاتيح بسرعة مخيفة، أمامها كوب كبير من القهوة، جلست على ذراع الكنبة الجلدية ببعض الفضول، استأذنتها في رشفة من كوبها لعلها تشفي رأسي من الصداع وتركته، حصلت على بعض كبسولات لقتل الألم، عاجلتني بالإنجليزية: - تكره القهوة الباردة؟

- أكره طقطقة الأزرار أكثر. ماذا تفعلين؟

- أحاول حل بعض الألغاز، تحمَّل الأمر لبضع دقائق!

اقتربت منها مجددًا محاولًا متابعة ما تفعل:

- تبدو لي كأرقام حسابات.

- هذا هو الجزء المفهوم، أتحدث عن الملفات الأخرى.

- من أين حصلتِ عليها؟

- لم أحصل عليها، هو فعل ذلك!

وأشارت إلى دييجو الذي بدا لي يحاول الاستيقاظ، ثم أشارت إلى الذاكرة التي أدخلها دييجو في الجهاز. أضافت: - وجدتها في فمه، من الجيد أنه لم يبتلعها!

راقبته وإذ به يعتدل، مدحته بطريقتي متمتمًا بالإنجليزية:

- دييجو يا ابن العاهرة العنيد!

تذكرت ساعتها حينما كان يغطي وجهه بالكيس البلاستيكي، كأنني رأيته يضع شيئًا بخفة في فمه!

اعتدلت وبدأت أتابعها بينما تقلب في الملفات، رأيت صورًا لمليشيات عسكرية، بإحداها صورة للشخص نفسه الموجود في صورة الدكتور أبيض ومطبخ الدوبل! يرتدي زيًّا عسكريًّا، يتكئ بقدمه فوق بضعة صواريخ مبتسمًا يحدِّث جنرالًا عسكريًّا مرتزقًا، كل شيء متصل، كما توقعت، لربما هو «الجحيم» الذي تحدث عنه دانيال!

لاحظت صورًا من داخل ألعاب الفيديو، لمَ قد يضع شيئًا كذلك في الغرفة صفر؟ طلبت منها التوقف: - هنا!

أردفت هي:

- لن تجد فيها شيئًا مفيدًا! مجرد أسماء لحسابات ألعاب فيديو، لعبة «كول أوف ديوتي»، أخي كان يصدع رأسي بها في ميلانو!

- هناك شيء في الأمر، سرجاني لن يضع تلك الأشياء هباءً!

- ماذا تقصد؟

- مفجرو مترو لندن كانوا يتواصلون عن طريق ألعاب الفيديو!

علقَت وهي تقلب في الملفات:

- تواصلت بالفعل مع شخص لتتبع الحسابات، هو منتظر دخول أصحابها منذ ساعات.

- هل يمكنه مشاركة الصورة معنا حينما يصل إلـ...

قاطعتني بعدما تلقت رسالة على هاتفها:

- مهلًا، إنه يتواصل معي! إنهم بالفعل يتحدثون! سأطلب منه مشاركة الصورة!

نقرت على هاتفها بضع جمل بالإيطالية ثم طبعت كلمة سر في برنامج المشاركة، لتظهر أمامنا صورة محادثة في وسط معركة افتراضية على ألعاب الفيديو، تابعت عيناي تحليل المحادثة وتجاهل الهشيم منها، لكنني وجدت كلمة لفتت نظري، طلبت منها أن تبدأ في تصوير المحادثة بالفيديو ففعلت، اقترب منا سميروفيتش مصلحًا هندامه رافعًا حاجبه من التعجب، خططت الكلمة التي كتبها الحساب الأول على منديل وجدته على الطاولة، تابعت حديث حسابات لعبة الفيديو وناولت المنديل لسميروفيتش الذي أمسك به متسائلًا: - أنا نشفت في الفوطة اللي جوه!

تجاهلت كلماته وأردفت:

- جوجل الكلمة دي! بسرعة!

- كلمة إيه؟

- الكلمة اللي كتبتها ع المنديل!

بدأ في نطقها:

- أ... فيـ... تـ... شيـ... أفيتشي! مش ده الدي جي!

- جوجل الكلمة، حالًا!

أخرج هاتفه وانكب على البحث عنها، ثم عاجلني دييجو ممسكًا بأنبوب الأكسجين والقناع على وجهه: - جحيم البوذية، أصعب أنواع الجحيم، ما بيخرجش منه المذنبين.

ضيق سميروفيتش عينيه محاولًا ابتلاع رده السريع ليعاجله دييجو:

- كنت مصاحب واحدة بوذية في أمريكا.

تساءلت هي بعربية سيئة:

- مش فاهمة!

علقت أنا بالإنجليزية:

- الجحيم! شخص تحدث عنه دانيال قبل أن تقتله المحكمة.

علق سميروفيتش مشيرًا إلى الشاشة:

- ليه حاسس إنه مكان مش شخص؟!

تابعت إحداثيات مكان طُبع على الشاشة بين اللاعبين، وكلمة «دبي»، وحديث عن رواتب متأخرة: - إحنا على الطريق الصحيح!

اقترب دييجو من الشاشة، متسائلًا بالإنجليزية بينما يتنفس من القناع: - رائع فكرة أنكم وصلتم إلى كل ذلك من دون إنترنت!

تساءلت فيردو بدورها بإنجليزية هشة:

- مَن قال إننا لم نستخدم الإنترنت أيها العبقري؟!

اتسعت عينا دييجو وهو ينظر مباشرةً إليَّ، اللعنة علينا! كيف فاتتني تلك!

بخفة يُحسد عليها قفز تجاه السرير قاصدًا النافذة، ومد جسده لينظر من تحت الستائر، ورمقني مجددًا، نظرة رعب ملأت عينيه؛ إنهم هنا!

بالطبع سيزرع سرجاني فيروس تتبع ينتقل إلى أي قرص ينقل المعلومات من حاسوب المحكمة، لقد قادتهم فيردو إلينا مباشرةً!

سألت دييجو بنبرة واثقة:

- كام واحد؟

تردد دييجو لكنه رفع ثلاثًا من أصابعه المرتعشة بوجه مرتعد، وعينين متسعتين عن آخرهما.

تجمدت، لا أعلم لمَ فعلت ذلك، لكنني لم أنطق بشيء، في تلك اللحظة بدأت الحسابات التي أراقبها في كتابة شفرة مكان ما، بطريقة النداء الصوتي العسكري «ألفابيت»، بدأت بـ«دلتا»، «أوسكار»، «إيكو»!

- سميروفيتش، فيردو، دييجو، السطح!

اعترض دييجو:

- تلاتة يا شهاب! ده انتحار!

قلت لنفسي ساعتها: «ثلاثة مستشارين من أجلي؟ لا بد أنني ركلت المحكمة في مكان مؤلم!».

صرخت بإنجليزية صلبة:

- السطح! من دون أسئلة!

اختفوا جميعًا، وانتهت الرسالة المشفرة من شاشة الحاسب، خلعت الذاكرة وحصلت على سلاحي وشددت أجزاءه، لفت نظري أنبوب الأكسجين، فككت الخرطوم منه سريعًا وفتحت المكبس فأصدر صريرًا، فتشت المطبخ وإذ بجهاز تحميص الخبز، أمسكت بقطعة قماش جافة وسكبت فوقها قليلًا من سائل إشعال القداحة التي وجدتها وهشمتها، وضعتها في جهاز التحميص وكسرت أنبوب الغاز المار فوقه فتدفق الغاز، ضبطت جهاز التحميص على أعلى درجة واختفيت.

بمجرد خروجي أصدر المصعد صوت وصول، دلفوا جميعًا إلى الشقة، لا أعلم كيف علموا الدور والشقة بالتحديد، لا بد أنهم قد أجروا بعض الاتصالات قبيل المجيء.

لم أكد أصل إلى السطح حتى باغتتني النوبة، أمسكت بي فيردو وسميروفيتش قبيل السقوط، إلا أن صوت انفجار قوي خرج من الدور الذي كنا فيه، زجاج متطاير وصوت نفير إنذار السيارات، وصورة وجه مبتسم رسمته على مرآة الحمَّام باستخدام أحمر شفاه فيردو.

هم أرادوا الجحيم.

«الجحيم» اسمي الأول!

تسارعت زخات المطر وسط صفعات رياح ديسمبر القاسية، كنت أنا وحدي، أجلس على لسان خشبي قديم، تداخلت السحب المتقطعة مع السماء العكرة في جو مخملي مغربي أمقته، أتحسس مكان الطعنة الغائرة في الخشب عن يميني، بينما صوت الراديو يشدو في أذنَي.

تراجع طفل مرتعد عن يميني، نحيف المظهر، يلتحف بذراعيه في حركة دفاعية، تتساقط قطرات المطر على وجهه، تمتزج ببكائه.

تابعت حديثي بينما أشاهده يتراجع مذعورًا:

- فداء! هناك إعلان لرجل وسيم، يرتدي بدلة رائعة، يقف فوق بناية، يعطي ظهره للفراغ، ووجهه لداخل البناية. ينظر في ساعته، ويترك جسده لسقوط حر، يقولون إن حياتك تمر أمام عينيك في آخر عشر ثوانٍ، في الإعلان، يرى الرجل لحظات له مع أبيه وهو يجرب دراجته الأولى، حبيبته عندما قالت «نعم»، لحظات شقاء الطفولة، ومعاركه مع الأطفال المتنمرين، سيارته الجديدة، ثم تُثبت الصورة عند السيارة، ويبتسم الرجل قبيل الاصطدام، هذا الإعلان مُنع لأنه يشجع على الانتحار، لكنه سُرب بطريقة ما، السؤال هنا فداء: لماذا يفكر الإنسان في الأشياء المهمة قبيل موته؟

رمقني الطفل بتلك النظرة، أرى أساطير الرعب في عينيه، مرت بضع ثوانٍ، بدأت أتمتم بكلمات الرجل المجنون نفسها، كلمات أحفظها عن ظهر قلب، قلتها في اللحظة نفسها التي تحرك فيها الرجل ناحيته مشهرًا سكينه: «كلهم جواهم الميكروب، تعالَ! ما تخافش!».

ثم نظرت إلى الطفل المرتعد، فنظر إليَّ بدوره، ليهجم عليه المختل بغتة محاولًا طعنه، لكن الطفل انتبه، وقفز إلى الوراء، في المياه الداكنة، جرح السكين جانب إصبع قدمه، لكنه هرب من المصير، وحارب لينجو من الغرق ببعض المهارات التي تعلمها سابقًا، ذلك الطفل أعلمه جيدًا... ذلك الطفل أنا.

قطع ذهولي صوت فداء:

- هل ما زلت على الخط؟!

- معذرة! مجرد شرود بسيط.

- هناك أصوات مثل المطر، هل الطقس بارد حولكَ الآن؟

- أبرد من قلب الشيطان!

تابعت متسائلًا:

- لمَ لم تجيبي عن سؤالي؟!

- لا أحب الشعور بأنك تختبرني!

- عندك حق! سأجيب أنا، الأمر ببساطة أن العقل يميل إلى التفكير في الأشياء أو الأشخاص الذين يصدرون إحساسًا بالحماية قبل الموت، لبعث شعور زائف بالأمان. معظم الجنود الموتى في الحرب قالوا كلمة «ماما» قبيل الموت، كأنما يعودون إلى مرحلة الطفولة.

- ربما أتفق معك، لكن الطفولة ليست دائمًا مصدرًا للأمان؟

- يقولون إن في عالم الطفولة لا أحد يموت. فداء! هل تؤمنين بذلك الهراء؟!

- بماذا تؤمن أنت؟!

صمتٌّ طويلًا مطأطئ الرأس، ينهمر الماء من فوق رأسي، تابعت بنبرة يشوبها الحزن: - أؤمن أن تلك هي المرة الأخيرة التي سأتسبب فيها بالإزعاج لراديو «أونس»، هناك راديو آخر، على تردد ٣٠.١٢١٣٥٢٢، عفوًا، أظنه ٣١.٤٠١٩٨٧٥، وسامحيني لو كنت دقيقًا للغاية، أفكر جليًّا في مهاتفته غدًا في الميعاد نفسه. فداء! ليس لديَّ الكثير من الوقت، أجهز نفسي لسفر بعيد.

صمتت برهة، قالت بصوت لم تخفِ نبرته بعض الذعر:

- هل هي المرة الأخيرة؟

تابعت الطفل «التخيلي» الذي يضرب الموج بذراعيه المتعبتين، وأغلقت الخط قائلًا: «ربما أراكِ على الجانب الآخر!».

بعدها ببضع دقائق، وأمام بناية قديمة، قريبة من موقع اللسان الخشبي، نفضت عن هندامي بضع قطرات من الماء، ثم سألت البواب عن مواصفات معينة لامرأة داكنة البشرة، دائمة الابتسامة، كانت تقطن هنا منذ سنوات، فأشار إلى مكانين، فاخترت ما هو أقرب إلى بيتي القديم، دفنت ورقة فئة الجنيهات المائة في يده وشكرته.

أمام بابها وقفت، مترددًا أن أطرق. هممت بالرحيل، لكنَّ شيئًا ما أعادني، فطرقت طرقتين، لم يرد أحد، ساقتني قدماي للهروب، لكن الباب قد فُتح، وظهرت عجوز طاعنة السن حدباء الظهر، داكنة الجلد. هذا ما كنت منه أحيد! وقد أمسك بي.

- يظهر إني خبطت على باب غلط!

ابتسمَت، ثم احتلت الابتسامة جنبات وجهها. تساءلَت:

- أنا أعرفك يا ابني؟!

- ما أعتقدش! كنت بادوَّر على حد يعرف ست، غالبًا ماتت من أكتر من تلاتين سنة، اسمها «ليلى»، ده اللي متأكد منه.

- وشنو اللي مش متأكد منه؟

لفتت نظري لهجتها، تابعتُ بعدما بلعت بعضًا من ريقي الجاف:

- مش عارف! حاسس إني بادوَّر على ذكرى، ممكن ما تكونش حقيقية.

أشحت بوجهي راحلًا.

علقت لتستوقفني:

- ولا خايف تكون حقيقية؟

رمقتها طويلًا، شعرت أنها تسخر من ترددي، قلت وأنا أولي ظهري وأخطو خطوتين على السلم: - أنا ما باخافش من شيء!

كنت قد قاربت على الاختفاء من أمامها حتى استوقفتني كلماتها:

- ولا حتى الخووخ؟!

«الخووخ»! تلك الكلمة، لم تكن من خيالي إذن! ابتسمت لي وطلبت مني الدخول.

جلست على أريكة قديمة هرئة، عليها طبقة سوداء بدت لي كاهتراء في وبرها، على الرغم من ذلك كان المكان نظيفًا للغاية، هناك رائحة جميلة لا أعلم إن كانت نوعًا من البخور أو ما شابه، أمسكت بيدها النحيلة كوبًا من القهوة، برزت عروق يدها من أسفل جلدها وهي تناولني كوبها المزركش، حسدتها على ثبات يدها النسبي، شكرتها فبدأت هي بالكلام: - فات زمن يا شهاب! إوعى تكون مستغرب إني عرفتك! أنا ربيتك مع ليلى تلات سنين أو أكتر.

أغمضت عينيها، الواضح فيهما أثر المياه البيضاء، مبتسمة، كأنها ترى رؤيا، ثم تابعت: - ليلى كانت بتدللك، بس أنا اللي كنت باخوِّفك، خصوصًا لما كنت بترفض تنام، كنت باقولك نام يا الخووخ هييجي. بياخد الولاد اللي ما بيناموا! واضح إنك ناسي! طيب فاكر أسماء؟! كبرت وبقت أم كمان، اتجوزت في مقديشيو. ما حضرتش فرحها، عايشة حاليًّا في أبو ظبي. شهاب! إنتَ ليه ساكت؟!

وضعت القهوة أمامي على الطاولة، استأذنتها أن أشعل سيجارة، حصلت منها على نفَس وتركتها عن عمد في المطفأة: - سامحيني! مش فاكر كل التفاصيل!

- وأنا الست العجوزة فاكرة؟!

نظرت بعيدًا لبرهة، ثم بدأت في التعليل:

- عندي مشكلة في المخ، بتزيد للأسف، اتسببت في بعض الأعراض الجانبية، من ضمنها إن الذاكرة عندي مش أفضل شيء!

صمتت طويلًا وفوها فاغر، حتى شعرت أنها فقدت القدرة على النطق، ثم تساءلت: - لها علاج يا حبيبي المشكلة دي؟!

رمقت السيجارة، ضممت شفتَي في أسف، ثم عدت إليها مردفًا:

- أنا آسف!

شهقت وغطت فاها بظهر يدها، هدأتُ من روعها قائلًا:

- كل يوم فيه علاج جديد، محدش عارف بكرة فيه إيه!

أنا كاذب سيئ، أعلم أنني كذلك. غرغرت عيناها بالدموع، مسحت دموعها بيدها ودعت الله أن يشفيني، ثم شرعَت في الكلام عن ما جئت من أجله: - المرحومة كانت حاسة إن أجلها قرَّب، عملت كتير عشان تبعدك عن جوزها، ربنا يسامحه بقى! صلاح كان مريض نفسي، رفض يتعالج، هي كانت بتحبه وصبرت عليه، حتى لما رفض ياخد الدوا وكان بيعذبها، كانت بتخبي على الكل، إلى درجة إنه كان شاكك إنك ابنها ومخبية عليه!

- هي مش أمي؟!

حركت رأسها نفيًا، ثم أردفت:

- والدتك ما أعرفش عنها كتير، فيه ناس قالوا إنها توفيت بعد سنة واحدة من ميلادك، ناس قالوا إنها عايشة، ليلى كانت أكتر من أمك، وعمرها ما فتحت الموضوع ده معايا لسبب أنا ما أعرفهوش، هي ما كانتش بتخلف، ما أعتقدش يا شهاب إنها كانت هتحب ابنها قدك، إنتَ كنت كل حياتها، كانت بتعلمك حتى ألماني من وأنت طفل.

تساءلتُ وعيناي تلمعان إثر دمعة عجزت عن منعها:

- كانت مُدرسة؟

- كانت أشطر مُدرسة في الإسكندرية، وأجمل ما خلق ربنا.

- عندك صورتها؟

- للأسف، كل حاجاتها خدتها الحكومة بعد ما...

- قتلها هو، مش كده؟!

- ماتت بعد دقايق من طعنه ليها، فضلت تجري في الشارع تنده عليك وهي مصابة، دمها...

حشرجت العجوز ثم تابعت:

- دمها كان في كل حتة في الشارع، ناس كتير لسه فاكرة الحادثة، كلنا افتكرنا إنك غرقت في المية، صلاح قال إنه حاول ينقذك من الغرق لكنك رميت نفسك.

بالطبع حاول إنقاذي من الغرق في الماء، بأن يغرقني في دمي، لسبب ما تجذب حياتي الأوغاد السيكوباتيين، كما تجذب أرض فلسطين الغزاة.

- فاكرة شكل عينيها؟

تنهدت، وأومأت إيجابًا. ثم أشارت إلى القهوة كي لا تبرد فهمَمت أن أرتشف منها. كانت داكنة ومُرة للغاية، ظهر بعض الامتعاض على وجهي على

الرغم من أنني قاومته. علقت هي: - ضلمة أكتر من أعماقك؟

ارتعشت يداي وسقطت بضع قطرات من الفنجان فوق الطاولة.

رمقتها بعينين متسعتين رعبًا، عاجلتني:

- إنتَ كويس يا حبيبي؟

- كإني سمعتك قلتِ حاجة!

ابتسمت قليلًا قائلة:

- سلامتك يا شهاب! ما قلتش!

رمقتها طويلًا بعينين ثابتتين مذعورتين، ثم بلعت ريقي واعتذرت، ابتسمت هي بدورها لتداري بعض الحرج، ثم قصَدت كومودًا متهالكًا. ازدادت ضربات قلبي وسال أنفي دمًا، أخرجت منديلًا من جيبي وعالجت الأمر بسرعة. ماذا يحدث لي؟!

تجاهلت ما حدث وتابعتها وهي تُخرِج بضع أوراق من درج خشبي كبير. كانت تأخذ كثيرًا من الوقت للتدقيق، حركتها البطيئة وتجهم وجهها حينما تقرأ، أقسم إني لوهلة رأيت وجهها الشاب في ذكرياتي، ثم أمسكت بجريدة تبدو وقد التهمتها السنوات وتقيأتها.

عادت إلى جانبي وأشارت إلى صورة بعيدة يظهر فيها الوغد وهي، للأسف ترتدي نظارة شمس، وأنا ولم يتجاوز عمري السنوات الثلاث: - الصورة مش موضحة عينيها، مش هاعرف أوصفهالك، بس هاقولك إن ربنا جعل في عينيها نص الطيبة، والباقي اتوزع علينا.

أمسكت بالجريدة، حاولت أن أدقق في الصورة الباهتة ذات اللونين الأبيض والأسود. غافلتني دمعة وسقطت على الجريدة، جاهدت لأمسحها. أمسكت على يدي قائلة: - ليلى كسبت! إنتَ لسه حي!

حاولت أن أعيد إليها الجريدة فرفضت، طلبت منها أن تحضر لي كوبًا باردًا من الماء، فاعتذرت عن نسيانها الأمر، وذهبت، لا أجيد الوداع، حينما عادت كنت قد اختفيت، وتركت لها رزمة من الدولارات كانت كل ما معي حاليًّا، لعلها تحتاج إلى شيء، لكني لا أعتقد أنها تحتاج إلى المال، لربما تدفع تلك الأموال مقابل يوم من تسعينيات القرن الماضي، حينما كانت يدها أقل تعرقًا، ووجهها أكثر سعادة، تلك هي الحقيقة المطلقة؛ لا يمكنك شراء الزمن أو مفاوضته.

* * *

في كافتيريا الفندق الملاصق لمطار القاهرة جلست وحيدًا، قاومت عقلي، منعته من الانشغال بموسيقى الخلفية، حجبت عن عينَي تأثير الديكورات والألوان المتداخلة، أنا جيد في ذلك، حول الطاولة المجاورة لي عاشقان من جنسية أوروبية، كانا يضحكان على بضع صور في الهاتف الذكي، رائحة القهوة النفاذة تسبب لي بعض الاستياء مجددًا، بدأت في عادتي: أخط صورتها.

في المطفأة بضع سيجارات محترقة، رصاصات سرطانية فشلت في الوصول إلى أهدافها، إلا أن استخدامها كساعة رملية لم يكن سيئًا على أي حال، ابتلعت بضع كبسولات مضادة للألم، وتابعت رسمها.

كنت أفكر في أن تلك المرة يجب عليَّ أن أصل إلى عينيها، أجاهد لتذكُّر الحلم الأخير، ما إن انتهيت من رسم شعرها حتى شرعت في خط وجهها، الأنف الـ... مهلًا!

«لا بأس! أنا فقط مجهد بعض الشيء»، هكذا فكرت.

حصلت على ورقة جديدة، وبدأت مجددًا. لم أقلق، لأن يدي تعرف جيدًا كيف ترسمها، تابعت رسمها، وصلت إلى أنفها، ثم قلت لنفسي: «لا، هناك خطأ ما. أقسم إن يدي تعرف رسمتها عن ظهر قلب!».

ثم ورقة ثالثة، فرابعة. غافلتني دمعة ملعونة، تجاهلتها، وورقة خامسة، كلها الشيء نفسه؛ أصل إلى ما بعد الفك ويضربني النسيان في مقتل! لماذا لم أحصل على الجريدة من العجوز؟ ماذا لو نسيت طريقة رسمها؟! ماذا لو فقدتها إلى الأبد؟!

كنت كالثمل؛ رأسي مائل، عيناي زائغتان، لا يرتد إليَّ طرفي، تغافلني دمعة وراء دمعة. رمقت الساعة، لقد مرت ساعة كاملة ودقيقتان، ساعة ودقيقتان. نظرت إلى السجائر، يبدو أنني نسيت أن أشعل خمس سيجارات أو أكثر، لا يهم، لا يهم أي شيء الآن.

ما إن شرعت في المغادرة غاضبًا حتى وجدتها تجلس إلى الطاولة المقابلة لي. حاول النادل مساعدتها، إلا أنها رفضت بلباقة، واعتمدت على عصاها، لم يتمكن منها العمى للنهاية، تلك العبقرية، لقد حلت شفرة موقع جوجل التي أرسلتها إليها!

كانت ترتدي معطفًا جلديًّا بني اللون، وشعرها ينسدل على وجهها المستدير، نظارتها القاتمة تخفي بعضًا من جمالها، أجمل من الصورة كما

توقعت، لفتت نظري في أصابعها عدة خواتم فضية، ظننت أنها تكره الذهب، هناك وشم لاسم صغير الحجم على معصمها.

- جاهزة تطلبي؟

لم تلتفت إليَّ وأشعلت سيجارة رفيعة قائلة:

- بعد خمس دقايق إذا بِدَّك، ما في شيء في بالي هلق!

صمتُّ لثانيتين وتساءلت:

- حليب ساخن بالقرفة؟

ارتعشت يدها الرقيقة وغطت فمها مانعة صرخة غافلتها، أمسكت يدها وقبضت عليها، قلت بألمانية صلبة: - لا تقلقي! إنه مجرد أنا وأنت.

تحسست بيدها الأخرى يدي، نظرت إليَّ، تركتُ يدها وجلست أمامها، خلعت نظارتها، عيناها الصغيرتان، لقد فعلت فيهما المياه الزرقاء ما فعله الورم في رأسي؛ الموت البطيء. أسوأ شيء أن يتلاشى كل شيء أمام عينيك بالتدريج، فتفشل حتى أن تحدد لحظات غضبك ضد كل شيء.

تنهدتُ طويلًا وانتظرت حتى جففت عينيها الدامعتين، بادرتها:

- تؤمني بالمعجزات؟

- آي، أنا الوحيدة اللي فهمت شو بتقصد من رقم القناة، هيدا معجزة يا...

- شهاب.

صمتت، وحصلت على نفَس من سيجارتها وابتسمت على مرتين، ثم تابعت:

- إنتَ فعلًا شهاب، وللأسف راح يمرق نورك من حياتي.

- مش هاقدر أسبلك مشاكل أكتر من كده!

- تعرف إنهم راح يسكروا البرنامج؟

نظرت بعيدًا، ظهر على وجهي بعض التجهم، تابعت بعد أن عدت إليها من شرودي: - شيء متوقع من العائلات، أنا كمان وصلني منهم رد!

- شو؟ وصلك تهديد؟!

تذكرت حينما عُلقت كالذبيحة وغُرس سكين في صدري:

- لا، ملك الموت!

صرخت مجددًا، تلك المرة لم تستطع أن تغلق فاها، لفتت بعض الأنظار، لكن الجميع انشغل بعدها. تابعت بدوري: - ما تقلقيش، أنا لسه قدامك لحم

ودم.

أمسكتُ يدها ووضعتها فوق مطفأة صغيرة كانت تبحث عنها على الطاولة:

- ومستعد أعوضك ماديًّا عن شغلك!

- شهاب! أنا عندي مصاري تكفيني، مشكلتي مو مادية!

- أي شيء تطلبيه مني هاعمله!

- ما له علاقة بإلك، له علاقة بإلي! أنا مو أنا، حاسة إنك خربطت كل شيء في بالي، رؤيتي للحياة، للتاريخ، حتى رؤيتي لله. شهاب كيف تؤمن بالله وأنت خارج عن القانون؟!

- مفيش مجرم لا يؤمن بوجود الشرطة.

- هلق فيه مدنيين بلشوا ينكروا وجودها، مو بس المجرمين.

- إنكار الشيء لا يساعد على اختفائه.

- لو اعترفت بيك، راح تضل هون؟!

رمقتُ سيجارتها، وإذ هي قاربت الانتهاء، حصلتُ عليها وأطفأتها، ثم رمقت ساعتي: - لازم أمشي خلال دقايق.

- متى راح نتقابل؟

- ما أقدرش أضمنها.

- ما بِدَّك تشوفني؟

- فداء، أنا مسافر سفر طويل!

- ما راح ترجع؟

- غالبًا!

- قول إنك ما بِدَّك تقابلني تاني أسهل!

- فداء، أنا...

- راح تقولي مريض؟

صمتُّ طويلًا، ثم تنهدت قليلًا:

- أنا باحتضر.

- باعرف!

- ليه سألتِ ما دمت تعرفي؟ للتسلية؟!

- لا، للخوف. باخاف يكون فهمي صحيح.

أشعلت سيجارة جديدة بتوتر بالغ ظهر على رعشة يدها متسائلة:

- قدامك وقت قديش؟

- عشر دقايق عشان ما تفوتنيش الط...

- ما تمزح معي بليز!

صمتٌ لثانيتين، أشعلت سيجارة لقياس الوقت، لا أريد أن تفوتني تلك الطائرة، أردفت: - شهور، ويمكن أيام.

- هل فيه أي احتمالية إني أقدر أمنعك تسافر؟! بمون عليك ولا لا؟

اقتربت منها بوجهي، وقلت في نبرة هادئة:

- أنا ما قطعتش المسافة دي كلها عشان قصتي تنتهي هنا!

- فيه علاج في مكان بتحاول توصله؟

- فداء! الموضوع منتهي!

- مسافر لوين؟!

- لجهنم، أو للجحيم. مش عارف هتصدقيني ولا لا!

- عشان شو؟!

- ساعات الجحيم بيخفي إجابة أسئلة كتيرة.

توترت وهزت قدمها بتكرار واضح:

- هتروح للجحيم برجلك؟! شهاب أنت مو قد العائلات!

أردفت:

- محدش يقدر يمنع راجل ميت إنه يجاوب على سؤاله الأخير!

ما إن قلتها حتى غافلتني وأطبقت أصابعها على وجهي، وشهقت، مررت أصابعها على كل جنبات وجهي، فاغرة فاها، سقطت دمعة من عينها اليسرى، أغمضت عينَي متيحًا لها الفرصة في رسم صورة حية لوجهي في ذاكرتها، لعل نظرها المتلاشي مع أناملها، يصنعان تمثالًا لوجهي في مكان ما في عقلها الباطن، إلا أنني لسبب ما تعلقت بها، كما تعلقت أناملها بوجهي، لا أعلم أي نوع من الأحاسيس شعرت به تجاهها، هل هو بريء؟ أتخيله كذلك.

أمسكت بمعصمها، شممت منه عطرًا رقيقًا أردت أن أحتفظ به في ذاكرتي الخائنة، اعتذرت لها، وهممت بالرحيل. توقفت قبيل أن أختفي وسألتها: - لو رجعت من جهنم، فين ألاقيكِ؟

وأخيرًا ابتسمت، من الجيد أنني لم أفقد قدرتي على الكذب بعد.

في الخارج ركبت سيارتي مع سميروفيتش، قبل أن ينطلق سرحت قليلًا في عملة طفقت أقلبها بين أصابعي، ثم نظرت إليه متسائلًا: - لسه فاكر محاضرات الكيميا كويس؟

اليوم التالي

رن هاتفي في أثناء التهامي قرطاسًا من الآيس كريم، كان رقمًا خاصًّا، وضعت الهاتف على أذني الأخرى، لأنني زرعت في الأولى سماعة: - دييجو! كان نفسي تكون معانا!

- أفيتشي مش هيسيبك تخرج من هناك حي!

- قول حاجة جديدة!

- الجديد إن العائلات في جيبه، أفيتشي معاه شيء بيوجعهم، بيوجعهم حرفيًّا!

- كرباج سحري؟

- كرباج طوله عشرين دقيقة.

- تسجيل؟

- سجل اجتماع ممنوع يتسجل.

- «بيلدربيرج»! كده هيفتح على نفسه النار!

تابع دييجو كتابة شيء على لوحة المفاتيح معلقًا:

- ما تفكرنيش بالنار!

لاحت أمامي لافتة كبيرة الحجم مضيئة، سرحت فيها موجهًا حديثي إلى دييجو: - دييجو! راجل للجنة، وراجل لجهنم، أنا أنهي واحد فيهم؟!

امتنعت أصابع دييجو عن نقر لوحة المفاتيح، لقد فهم ما قصدت، رد بنبرة هادئة: - أرجوك ادِني فرصة أبعت حد معاك!

بلعت ريقي وأردفت:

- جاوبني أرجوك!

تنهد دييجو قائلًا:

- ما أعرفش جنة ولا نار يا صديقي، بس أعرف إنك مطرح ما هتوصل هاجيلك!

لاح الصمت وأومأت برأسي إيجابًا على الرغم من أنه لا يراني، انتقلت سريعًا إلى أمر مهم: - والبنت!

- تقصد إيه؟!

- فيه كام بنت في صفنا؟

- آه! بالنسبة للفنانة بيلي أيليش! كله تمام، نفذت اللي طلبته!

ابتسمت متابعًا:

- لازم ما تحسش بأي شك، لو عرفت إن أنا هانفذ النهارده هيبقى فيه خطر على حياتها!

- مفيش شك يا صديقي! لدرجة إنها راحت «سكاي دايفينج»، وزمانها طايرة جنب البط حاليًّا!

قهقهت قليلًا وانتهيت من القرطاس، عاجلته قاصدًا أرقام الحسابات:

- وأرقامهم، عرفت تطلع منها ستيك؟

- للأسف كلها ناشفة! ما لقيتش غير كام حساب منسي فيهم فكة ما كمِّلوش مية وعشرين أخضر، اللحمة والفراخ مقفول عليها الفريزر كويس.

- ولو ما عرفناش نفتح الفريزر؟

- نقطع عنه الكهربا!

- لو ما خرجتش خلال نص ساعة، أو سمعت الإشارة، اقطع الكهربا عن كل حاجة.

- ولما ريحة اللحمة تطلع؟!

- ابعت منها نسخ لشرطة الإمارات والإنتربول!

داعبني دييجو مقتبسًا من سميروفيتش مجددًا:

- سنغالي برتغالي!

علق سميروفيتش في سماعة الأذن اللاسلكية:

- سمعتك!

ابتسمت طويلًا، وسرحت في المكان حولي. تنهدت متابعًا:

- سمير، دييجو! عايز أقول حاجة!

رد الأخير:

- ما تقولش يا صديقي!

عاجلني سميروفيتش:

- إنتَ متأكد إنك هتعرف تستدرج أفيتشي بره المكان؟ حاسس إني لو كنت معاك كان هيكون أفضـ...

قاطعته محاولًا حبك الكذبة التي أقنعت بها سميروفيتش، وهي أني سأعتمد عليه كقناص: - متأكد! هل إنتَ متأكد إنك مذاكر كويس؟ معدل الرياح هنا قليل، المنتج لو طلع صح هيوصل للمستهلك.

ابتلعها سميروفيتش على الرغم من شكه في أنني أحاول إبعاده عن الخطر:

- خلي بالك من نفسك!

صمتُّ لبرهة، ثم أغلقت الخط، لقد كرهت الوداع أيضًا، لكن الحقيقة التي حاولت أن أحيد عنها أمامه، بسيطة للغاية على الرغم من كذبي؛ لن يخرج أحد من ذلك المكان حيًّا، لن يكون هناك مستهلك ومنتج، لا شيء سوى

الجحيم ذاتها.

أمام ملهى «دافينشي» الليلي تثاقلت قدماي، كان يشتهر بمطاردات الشرطة الإماراتية له، هناك العديد من الشائعات عن أشخاص قُتلوا بأبشع الطرق فيه، وحينما أقول «أبشع الطرق»، أنا لا أعني سكينًا أو مسدسًا.

كانت رطوبة مفرطة في ليالي دبي المضيئة على الرغم من الشتاء، ولسبب ما تصيبني بالإعياء، الملهى به أضواء مميزة ذات طابع أمريكي، هناك اختلاف في لون حرفَي الـ«N» والـ«D»، صورهما كأنهما افتقدا الإنارة، لم أحتج أن أكون عبقريًّا لأعلم أن الخطأ مقصود، فمن دون هذين الحرفين تصبح «أفيتشي».

أمام بوابة الجحيم البوذية ترددت، للمرة الأولى أشعر أن هنالك شيئًا غير جيد سيحدث الآن، شيء أنا غير مستعد له على الرغم من كل شيء.

- بلجراد!

همست بها للسماعتين اللتين في أذنَي، ليجيبني سميروفيتش:

- جاهز!

أتخيل أن وجود سميروفيتش على بُعد بناية من المكان ينظر من قناصة موجهة إلى مدخل الملهى شيء مريح للأعصاب، أعلم أنني لن أحتاجه هنا، كنت لأحتاجه داخل الملهى، لأن لو ساءت الأمور لن يحميني سلاح موجه إلى اللافتة بأي حال، لكنني فضلت أن تكون نهايتي هنا مع أفيتشي - مع وضع احتمالية ١٪ أني سأنجح في الخروج من هنا على قدمَي واستدراج مَن تبقى منهم، افتراضًا أنه سيطلق رصاصة واحدة صحيحة!

لقد فعلت ذلك بصدر رحب، فسمعة المكان السيئة في الوسط المظلم الذي أنتمي إليه، جعلتني أخشى من أن أتحمل ذنب روح أخرى، من الخيانة أن تستأجر رجلًا مقابل ألف دولار وأنت تعلم أنه غالبًا سيخسر حياته خلال ساعة أو أقل.

على يمين البناية التي تحوي الملهى، جلست امرأة خمسينية تدخن، من أصول أفريقية، تضع كروتًا مقلوبة، أمامها، لن يلاحظها المارة، لكنني علمت من دييجو شيئًا عنها.

اقتربت منها ومددت يدي بعلبة سجائر كمجاملة، استغرقت بضع ثوانٍ لتتفحصني بعينيها، ثم أمسكت العلبة وقلبتها. قالت بعربية تُحسد عليها: - أنت

هون حق شيء ثاني، مو حق قراية الكروت!
حركت رأسي إيجابًا، تساءلت هي:

- فودو؟!

حركت رأسي نفيًا، ثم تكلمت أخيرًا، مشيرًا برأسي إلى المكان:

- اليافطة، فيها حرفين ناقصين!

رمقَتها طويلًا كأنها لم ترها من قبل، ثم تساءلت:

- يمكن مو معاهم حق الكهربا بابا!

أخرجت من جيبي ورقة فئة الدولارات المائة، وضعتها على كارت من كروت «التاروت»، رمقتها ثم عادت إليَّ بنظرها، قالت بنبرة واثقة أخافتني: - اقلب الكارت بابا!
بلعت ريقي وتجمدت، لا أعلم لمَ شعرت أنني لا أود ذلك:

- لا أؤمن بالورق!

صمتت لبرهة ثم قلبته بنفسها، لتظهر لي صورة مهرج معلق من قدمه فوق طبلية الإعدام!
لا أعلم كيف علمت ذلك، هل هي مصادفة، هل زارها الدوبل في منامها يومًا ما؟ أخرجت ورقة أخرى ووضعتها على كارت آخر عشوائي فقلبته، وإذ به صورة لأشخاص في السماء، وكُتب تحته بإنجليزية واضحة: «المحاكمة!».
اللعنة عليَّ ألف مرة! أردفتُ:

- شكرًا على الشرح! لكن أنا هنا عشان اللي ما أعرفه!

حصلت على نفَس عميق من سيجارتها ورمت عقبها بعيدًا، قالت لي مبتسمة:

- الورق قال كل شيء!

أعطيتها نظرة طويلة غاضبة، ثم هممت بالحصول على أموالي، أمسكت بقبضة قوية معصمي، وفي يسراها منديل قماشي غطت به يدي: - المنديل جوه بنطلونك بابا! عشان لو ما سمعت الكلام زين مو راح تنام مع حبيبتك!
انتظرت ثانيتين لأبتلع ما قالت، وأعيننا متلاقية، ثم أمسكت بالمنديل، ونظرت حولي لأتأكد أن أحدًا لا يشاهد، ثم مددت يدي داخل بنطالي بالمنديل، ولامست أعضائي، وأعدته إليها، رفضت أن تمسك به، وظهر عليها بعض

القرف، قطبت حاجبَي استغرابًا، فأمرتني أن أضعه داخل صندوق كارتوني بجانبها، ففعلت. نظرتُ بعيدًا لأداري بعض الحرج. أردفت هي: - اليافطة بدون حرفين مخيفة، لكن لو بتريد، الإجابة موجودة داخل الكلوب، فيه رجَّال يعرف مكان صاحب اليافطة، رجَّال مو بيتحدث مثلي ومثلك. عرفت كيف؟ لكن الشرط طال عمرك! إنك ما تقتل رجَّال، ولا تعرف رجَّال ماما جوليا شو قالت!

قلت بنبرة حادة:

- فيه معلومة ناقصة!

أشعلَت سيجارة جديدة وقالت باستهتار:

- برد ألاسكا!

وأشارت بأصابعها مودعة بابتسامة ألقت في قلبي بعض التوتر. قال سميروفيتش شيئًا في السماعة فتجاهلته، وتابعت طريقي.

لم يعترضني الحارسان الأفريقيان ذوا الجثتين المخيفتين، فبعد ثانيتين فقط من التدقيق في عينَي حرك الأول رأسه للثاني فدلفت، لا أعلم ما احتاجاه ليعلماه عني في هاتين الثانيتين. لكن - على أي حال - كان المكان في الداخل نصف ممتلئ، يبدو أنه يوم هادئ في الجحيم.

أمام البارمان استقرت قدماي ثم جلست، أقاوم ذلك الشعور بداخلي، لقد احتكت كتفي بالموت كثيرًا من دون أن أدرك ذلك، ونجوت، لكنني أيقنت أنني لن أفعلها اليوم.

هناك فتاة شقراء عن يميني ترتدي فستانًا أسود فاضحًا، رائحة الكحول تمتزج بالعطور، كنت أتوقع شابًّا آسيويًّا يقوم ببعض الحركات البهلوانية ويلقي الزجاجات في الهواء بينما يخلطها، لكنني رأيت شابًّا ذا ملامح هندية، نحيف الجسد، دائم الابتسامة، اقترب مني، طلبت منه بيرة غير معلبة، أشعلت سيجارة، ثم بادرته بإنجليزية مقبولة: - أبحث عن شيء ما.

- تتحدث عن مشروب معين سيدي؟

- أتحدث عن شخص لا يتكلم مثلي ومثلك.

- ماذا تقصد بذلك سيدي؟! أي لغة يتحدث؟ هل يعمل هنا في «دافينشي»؟

- هذه الكلمة طويلة للغاية، لربما لو حذفنا منها حرفين لأصبحت أفضل!

- حقيقة لا أفهم أي شيء سيدي!

رمقته طويلًا وتابعت:

- بالحديث عن الأمر، هناك لغة يمكننا أن نفهمها أنا وأنت!

وضعت ورقتين رصاصيتَي اللون على الطاولة تحت المنديل، وحركتهما تجاهه:

- أعتقد أننا على الموجة نفسها الآن.

حرك رأسه نفيًا وقطب حاجبيه متجهًا تجاه زبون جديد:

- معذرة، لا أعلم ما تتحدث عنه!

بينما يبتعد عاجلته:

- أتحدث عن برد ألاسكا!

تجمد الشاب لبضع ثوانٍ كالروبوت، ثم عاد إليَّ بوجه أكثر حدة بعدما فحصني طويلًا: - ستنتظر قليلًا. استمتع بالبيرة الخاصة بك!

يبدو لي أنني أصبت شيئًا في قلب الجحيم، وهذا شيء جيد.

بعد بضع دقائق عاد كأنه لم يرني، خلط بضعة عقاقير ومشروبات ثم قدم لي كأسًا من خليط مائل إلى اللون الأزرق بوجه يخلو من أي ملامح: - أعتقد أن هذا سيكون أفضل سيدي، طعمه ألذ.

رمقته طويلًا من دون أن أمسك بها ليقربها مني مضيفًا:

- بالمجان!

النغمة تدل على أنه عرض يمكنني قبوله أو رفضه، لكنني أعلم أنني يجب أن أبتلع ذلك الشيء مهما كان بداخله، إن أردت الدخول.

تجرعته على مرة واحدة، وحركت رأسي إيجابًا، عن يساري ظهر رجل أبيض البشرة يعاني بعض الصلع، أشقر الحاجبين، لديه بطن كبير، أشار إليَّ بالقدوم، ما إن بدأت في الحركة حتى شعرت أن رأسي ثقيل للغاية، لا أعلم ما بهذا الخليط، لكنني شعرت برغبة قوية في الانهيار، أردت أن ألقي نفسي أرضًا وأذهب في رحلة نوم عميق، ولتذهب أسئلتي إلى الجحيم. شعرت ببعض أعراض الهلوسة، لكنني استبعدت أن يكون الخليط يحتوي على مخدر الـ«LSD».

كان منطقيًّا ألا يحتوي على عقار هلوسة، لأنه مهما كان الجني الذي ينتظرني داخل مغارة علي بابا - التي فتحتها بتلك الشفرة الشفهية - فإنه يريد

أن يعلم مني الكثير، وأنا في كامل وعيي.

مشينا في ممر أدى بنا إلى سلم ضيق، نزلنا فيه، تغيرت الأضواء إلى لون أحمر فاتح، دلفنا إلى مطبخ، هناك رائحة عفنة مختلطة بأبخرة الأطعمة، كان هناك طاهيان آسيويان، وبضعة فئران تلهو، تخيلت أن ذلك من تأثير ما شربت. ما إن توقفت قدما الأشقر خلفي، حتى توقفت بدوري، كانت أمامي غرفة ذات باب خشبي كبير، قديم الطراز، فُتح الباب وخرج منه شخصان؛ أحدهما نحيف وطويل، يرتدي قميصًا أسود وبنطالًا أسود، ويربط شعره الطويل برباط مطاطي، والآخر مفتول العضلات، عربي الوجه ذو أنف معقوف، يرتدي شورتًا وقميصًا رياضيًّا. تساءل النحيف بلهجة شامية مبتسمًا:

- شو! صديقتك الجديدة يا جعفر؟!

كأنني انتبهت في تلك اللحظة، وفقد المشروب تأثيره، واشتهيت قتله!

تقدم صديقه مفتول العضلات مادًّا يديه ليصافحني، كنت أعلم أن ثمة شيئًا يحدث، لكن ذلك المشروب، شعرت أنه يسلبني إرادتي، تساءلت بيني وبين نفسي: «هل هو مجرد مشروب عادي؟ لربما يلعبون لعبة نفسية معي...».

مددت يدي بدوري، شعرت أن قطارًا ما قد دهس أصابعي، لم أستطع مقاومته، لوى ذراعي على الرغم من مقاومتي الضعيفة، صفع وجهي في الحائط ضاغطًا بذراعه على ظهري، لم أصرخ لكن الألم كان غير محتمل، شعرت بأربطة يدي تتمزق، صحت واللعاب يتطاير من فمي، على الحائط ذي الرائحة النتنة: - أنا ضيف غير مسلح!

تابع النحيف تفتيش كل جسدي، ثم مرر يده بنعومة بين قدمَي قائلًا وهو يهمس في أذني: - كرمال إنك ضيف، حبيبي ما سوينا فيك إشي. ابتسِم للحياة!

ثم تابع تمرير يده على صدري وجيوب جاكيت بدلتي الرصاصية، أمسك بطرفَي الحمَّال الأحمر وتركهما بنعومة، ثم تابع تفتيش جيوب بنطالي، تمنيت ألا ينظر داخل أذنَي، وألا يتحدث سميروفيتش كما طلبت منه أبدًا.

في الغرفة جلست على كرسي معدني أمام طاولة كبيرة، هناك ضوء قوي، لم أستطع تحمله، لا أعلم ما فعل بي ذلك الشيء الذي ابتلعته، لكنه حولني إلى مسخ مستسلم، يداي مكبلتان أمامي بقفيز سيارات أبيض اللون آلمني كثيرًا، هناك لعاب بدأ يغافل شفتَي النحيفتين ويسقط، لكنني قاومته لكي لا أبدو أكثر حماقة مما آلت إليه الأمور، بدأت الرؤية تتضح.

هناك تلفزيون كبير الحجم يغطي الحائط تقريبًا، يعرض قناة إخبارية بوضع صامت، تُظهِر الصور غارات لجنود من حلف «الناتو»، هناك رجل طويل القامة، لا أعتقد أنه يقل عن متر وتسعين سنتيمترًا، بدا لي في بداية عقده الخامس، بنطاله يعاني لتغطية قدميه، هناك شيء في رقبته، كأنه جهاز مستدير، به فتحة ما، وضع مكان حنجرته، يميل بجذعه تجاه شاب آسيوي ملامحه هندية، شعر الهندي طويل، يغطي بضع كدمات على وجهه، وشفة مقطوعة، يبدو لي أن الطويل يقنعه بشيء ما بإنجليزية جيدة، لكنه لا يتحدث مثلنا، كما قالت ماما جوليا!

كان منشغلًا مع الهندي، لكنه ابتعد برأسه عن أذنه عندما رآني، ابتسم، وتهللت أساريره، صفق ست مرات متتالية وتباطأ في نهايتها: - هربت من العصابة! وجيت على حِجر بابا! يا مرحب بالغلابة. أهلًا أهلًا في الغابة!

تمنيت أن يكون تأثير المشروب الذي خُلط بالعقار هو ما يهيئ لي ذلك، فأنا - لو حساباتي صحيحة - أجلس الآن أمام أكثر شخص يريد أن يرى دمائي تصنع لوحة فنية جميلة على حائطه. شخص لا يتحدث مثلي ومثلك، اللعنة على غبائي، لقد كانت أمام أنفي ولم أرها!

الشخص الذي كان على استعداد أن يحرق كل أشجار القاهرة ليرى الصيد الذي كان يطارده عاريًا، وها هو ذا الصيد أتى له مخدرًا، يطلب منه أن يصنع منه يخنًا لذيذًا؛ أنا أمام سرجاني!

أعلم أن ابن العاهرة كان يحلم أن يكون مؤلفًا ما، يباري أمير طعيمة وبهجت قمر، لكنني لم أتخيل قَطُّ أن يؤلف مطلع أغنية ما من أجلي، المؤلم في الأمر أني وجدت كلماته متناسقة.

تغيرت ملامح وجهه بغتة، وعاد إلى الهندي المضطرب بالإنجليزية:

- شيفراج! أنا أكثر شخص يصدق أنك استُغللت، هؤلاء الـ...

لم يكملها وتنفس طويلًا مُصدرًا أزيزًا طويلًا، وتابع حديثه من الحنجرة الصناعية المزروعة في رقبته، مُغلفًا كلماته بنظرة غاضبة وجهها إليَّ: - الملاعين أبناء العاهرات! سألقنهم درسًا على ما فعلوه بك!

تابع سرجاني مداعبًا رأس الشاب الهندي:

- هل سمعت من قبل عن شخص خدع سرجاني؟ ها؟ لا أحد! من خدعني ليس أنت!

تنفس طويلًا كما يفعل بين كل جملتين وأردف:

- كل ما أحتاجه منك مجرد سؤال واحد: هل رياض مَن أخبر صديقه في الشرطة؟ رياض أراد أن يلحق بك الضرر من دون أن تعلم، هو يستحق ذلك، إذا أخبرتني الحقيقة سأعرض عليك عرضًا لن يعرضه عليك أحد غيري، ولا حتى الرئيس!

كأنني سمعت تلك الجملة سابقًا، أكمل سرجاني:

- سوف أرقِّيك، وأعوضك ماديًّا عن الأضرار التي لحقت بك، سأرسلك إلى الهند بكثير من المال لتشتري لابنك، ما اسمه؟!

انهار الشاب بكاءً، وقال اسمه بصعوبة بالغة:

- جيـ... سون!

عاجله سرجاني:

- ستشتري لجيسون كثيرًا من الأشياء الجميلة!

تنفس طويلًا وتابع:

- الآن أريد إجابة بسيطة، وسترى أن عرضي حقيقي.

حك كفيه مضيفًا:

- أنت تعلم مَن أنا!

حرك الهندي رأسه إيجابًا، وتساقطت دمعات صامتة، وقال على مرحلتين:

- أنا... أثق بك سيدي!

مال سرجاني برأسه منتظرًا الرد، ليجيبه الهندي:

- إنه هو: رياض.

تراجع سرجاني مبتسمًا، وخبط بأصابعه على رأس الهندي خبطة رقيقة مازحًا:

- رأيت! الأمر بسيط! يجب أن تعلم مع مَن تتحدث شيفراج!

لكن أنا أعلم يا شيفراج مع مَن تتحدث، ويؤسفني أنني لا أمتلك الوقت لأشرح لك.

أخرج من جيبه رزمة من الدراهم، وقام بعدِّها، ثم صفها على الطاولة قائلًا:

- الآن، يتبقى أن نعلم إن كنت تخبئ عنا أن رياض خائن من البداية، أم لا.

اتسعت عينا شيفراج، وارتعش، لكن سرجاني عاجله:

- لا تقلق! أنا أصدقك، لكن أريد أن أعلم إن كانت السماء تفعل الأمر نفسه!

أشار بكفه إلى النحيف الذي تحرش بي للتو، فأخرج من ظهره مسدسًا ذا أسطوانة، فضي اللون كبير الحجم، قبَّل فوهته بميوعة، ووضعه في يده، فتحه سرجاني، وضغط على زر لتخرج أسطوانته وتسقط ست رصاصات حية على

الطاولة محدثةً بعض الضجيج، أعاد واحدة وأردف: - لديك خمس فرص من ست لتحيا، إن لم يحالفك الحظ، فهناك شيء تريد السماء أن تقوله، أنا أثق بك!

قالها وأدار الماسورة وأغلقها بسرعة يُحسد عليها مناولًا إياها للشاب:

- شيفراج! لا تخيب ظني! أعلم أنك بريء.

أخرج مفتول العضلات سكينًا تحسبًا لأي شيء، ارتعش الشاب الهندي خوفًا، ونظر إلى المسدس في ذعر بيِّن، لكنه مد يده بتردد، وأمسك بالسلاح، وتلاقت أعيننا، رمقته بعينين حادتين قاطعتين، وحركت رأسي نفيًا ببطء شديد لم يلاحظه أحد، ثم ضممت شفتَي محاولًا قول كلمة «لا» بالإنجليزية.

ضيق عينيه حينما شاهد رد فعلي وتردد قليلًا، لكنه قطب حاجبيه بعدها، وأشاح بنظره بعيدًا، غارقًا في أحلام مقابلة طفله - جيسون - متوجًا بتلك الدراهم الغزيرة بعد غياب، واستعادة ثقة مديره، وتلقين أبناء العاهرات الذين أهانوه درسًا و...

انفجر رأسه!

على الأرض قِطع من جمجمته ومخه ملقاة، وشلال دماء.

لقد رأيت كل شيء شيفراج! رأيت عجلة الروليت الروسي تختار الاختيار الخطأ على الرغم من سرعتها، فقد تباطأت أمام عينَي عندما تصاعدت ضربات قلبي. لقد رأيت الموت يحلق فوقك! لقد حاولت!

انفجر النحيف ضحكًا، بينما اعتدل سرجاني مردفًا وهو ينظف قميصه من الدماء: - تُطبق الشروط والأحكام!

رمقني بتلك النظرة مبتسمًا، قائلًا بلهجة مصرية تلك المرة:

- شغلانتي صعبة، زي شغلانتك!

- ما تحطنيش معاك في جملة واحدة!

- أوه! رجل القانون المليان مبادئ يرفض تلطيخ اسمه برجل الشر الفاضي، بس عارف إيه الكوميدي؟ يوم القيامة مش هنكون مع بعض في نفس الجملة، لا، ده في نفس الحفرة!

خبر سيئ، لكن يعزيني أني سأشاهده يحترق من الصف الأول، حتى وإن احترقت معه.

تجاهلته، تابع النظر إليَّ مستهترًا، وأمر النحيف فأمسك بالمسدس ونظفه وناوله إياه، حصل على رصاصة جديدة من فوق الطاولة، وضعها في أسطوانة الدوار ولفَّها، ثم تابعها ببصره وأطبق على المسدس، صوبه تجاهي قائلًا

بطريقته الاستعراضية: - شهاب! ألد أصدقائي! إيه اللي حصل لحلمة ودنك؟ الدوبل خلاك تشوفها؟

عاجلته بصوت واثق على الرغم من غثياني:

- الدوبل علمني حاجات كتير، أنا كمان أقدر أخليك تشوف أجزاء من جسمك، صعب تشوفها وإنتَ قاعد.

تحرك مفتول العضلات تجاهي بوجه غاضب مشهرًا سكينه، لكن سرجاني استوقفه ضاحكًا: - سيبه ياخد خمس فرص من ستة! بس أنا اللي هاضرب الطلقة المرادي!

صوب المسدس نحو رأسي وأعاد الزناد إلى الخلف مطلِقًا صوتًا معدنيًّا ينم عن تأهبه للإطلاق. تابع: - إنتَ راجل شجاع يا شهاب، لازم أعترفلك، الألعاب النارية اللي عملتها في «ألفا»، وجعت العيلة! بس خدوا شوية مسكنات ونسيوا!

تظاهرت بالهدوء على الرغم من رعبي:

- المحكمة بدأت كل شيء! أنا مجرد رد فعل.

- الفعل كان قوي، بس إنتَ بسبعة أرواح، الدوبل، والمستشارين اللي عملتهم باربيكيو في شقة إسكندرية.

تنفس وتابع:

- حتى البنت الطليانية، حولتها لطبق اسباجيتي بقدرة قادر. أراهنك إن طعمها حلو، شهاب أنا باحسدك!

قالها وأنزل المسدس من أمام وجهي واضعًا إياه أمامه على الطاولة، لأتنفس بهدوء، لكنني صمتُّ رامقًا إياه طويلًا. ليتابع بوجه جامد: - جيت ليه؟

- عايز هدنة مع المحكمة! وشوية داتا!

ضحك طويلًا، غير مصدق جرأتي، تابع:

- وشوية داتا؟! ده إنتَ واثق بقى إنك هتعيش!

- المنتج اللي باعرضه يلزمك.

- عايز أسمع!

- نفس اللي هاخده منك هاديهولك.

- ومين قال إننا محتاجين هدنة؟

- فكر في الداتا اللي معايا، مش محتاجها؟ غير حساباتكم بره. فيه تركة تقيلة سرقتها من المحكمة!

- مضايقاك الحاجات اللي سرقتها؟

- تقيلة على كتفي، مش هاقدر أشيلها أكتر من كده.

- وإيه يضمن إنك ما ريحتش كتفك من التعب، قبل ما تيجي!

- كان زمانك بتألف أغاني في أوضة متر في متر وبتسمَّعها لشرطة الإمارات، والإنتربول بيلحنهالك.

رمق سقف الغرفة طويلًا قائلًا:

- عارف إيه أحلى حاجة في السما؟!

تجاهلته وركزت على عجلة الأسطوانة الخاصة بالمسدس! ابن العاهرة! لقد كانت الرصاصة تمامًا في مكان الإطلاق! لم تكن هناك خمس فرص من ست قَطُّ. أردف: - السما بتختار الطيبين، الوحشين اللي زيي بيعيشوا!

صب كأسًا لنفسه وتابع:

- لما جالي سرطان، فكرت إني أسيب نفسي أموت! بس فكرت، ليه ما أساعدش أكبر كمية من الطيبين إنهم يروحوا السما؟ ما دمت أنا كده كده في جهنم - وبكل أمانة - بدأت أحس لما راقبتك في السنين الأخيرة، إنك أطيب مستشار على وجه الأرض.

ثم قالها بإنجليزية صحيحة:

- المستشار الأخير، في جزيرة المرتزقة.

تقدم الشاب ذو العضلات، وضع على الطاولة هاتفي بجانب زجاجة الفودكا الصغيرة، ثم أضاف المسكنات وصورة الدكتور أبيض مع ابنته والرجل ذي القبعة، وأخيرًا كيسًا به كروت كوتشينة، على ظهر كل ورقة صور جنسية فاضحة. علق بلهجة مغربية: - ما لقيناش شيء في قميشة غير هادول!

أمسك سرجاني شراب الفودكا الخاص بي، فتحه واشتم منه، ثم ألقى بمسكنات الألم في سلة القمامة، فكر في تكرار الأمر مع الكوتشينة، لكنه لاحظ شيئًا على ظهر الكروت.

قلبها أمامي يمينًا ويسارًا:

- هتروح السما وإنتَ شقي كده؟!

ضحكوا جميعًا، لكنني كنت تائهًا لا أنطق من أثر الدوار. رددت بلسان ثقيل نوعًا ما: - قبل ما أروح، أستحق أعرف شوية إجابات!

ألقى بالكيس للنحيف الذي فتحه ضاحكًا، مخرجًا كل الكروت، مقلبًا عينيه فيها بنهم واضح.

أجاب سرجاني بعدما وضع ساقًا فوق الأخرى ودماء الهندي تقطر من كعبَي حذائه: - هيفرق معاك؟! هتفرق الطلقة اللي هتفرتك عقلك مين اشتراها؟

- على الأقل أعرف السبب!

- في شغلك كنت بتبلغ المستهلكين بالسبب؟

- الشخص الوحيد اللي كان بيكلم المستهلك هو أنا.

- عشان كده منعت عن نفسك فلوس كتير، واتخليت عن مكانتك لشوية هواة.

- اللي عمل المحكمة عملها عشان الناس اللي زيي!

- اللي عمل المحكمة في السما، مستنيك، وفاتحلك دراعاته، واللي بيصلي ويدعي إنك تروحله السما حد كبير أوي.

- أفيتشي؟!

مال سرجاني برأسه متعجبًا، ثم صفق مرتين، ماطًّا شفتيه:

- واضح إن دانيال كان كريم معاك! هو فعلًا! بس الحكومة كانت بتصلي وتدعي هي كمان.

- هاشتاج المجرم؟!

- بيعجبني ذكاؤك! يعني تقدر تقول كانت صلاة جماعة! إحنا حاولنا كمحكمة نمنع ده، خصوصًا إن معلوماتنا كانت إنك بتموت، تخيل إن حتى رئيس المحكمة الجديد حارب عشانك!

- إيه يخلي رئيس جديد للمحكمة يحاول يمنع موتي؟

- هو يجاوب! بس تقدر تقول إن صلاتهم كانت مسمعة، سرهم باتع، فقلنا خلاص، عايزينه خدوه! لكن إنتَ! ابن حلال، بتطلع من حضن عزرائيل زي الهوا، عمومًا لو كانت إجابة السؤال تستاهل آديني جاوبت.

ناوله النحيف بضعة كروت ليمسك بها سرجاني وينفجر ضاحكًا، مقلبًا إياها، ليقترب ذو العضلات بعدما غلبه الفضول، وأمسك ببضعة كروت منها، أمسك النحيف بكارت على ظهره امرأة عارية، أخرج لسانه الطويل ولعقه بينما ينظر إليَّ، وعلق ساخرًا: - راح نبعتك السما بالسكين، مو بالمسدس! أنا بِدِّي إياك سليم بعدها!

لم أرد عليه وتابعت حديثي لسرجاني، بينما همس سميروفيتش في أذنَي بصوت متقطع غير واضح: - أنا حاسس إن مكاني هنا غلط! الناس دي هتقتلك!

رددت بنبرة جادة:

- لا بأس!

تلك الجملة القصيرة، كانت لتطمئن شخصًا آخر، لكن بيني وبينه، كانت الكلمة التي تعني أن الأمور على وشك الدخول في منحنى اللاعودة.

تلاشت ضحكة سرجاني ظانًّا أني أحدثه هو، وألقى الكروت على الطاولة، عقد ساعديه متسائلًا: - تقصد إيه؟!

- باكلم نفسي.

- محتاج تتعالج؟

- الإجابة لو كاملة هتشفيني!

- أنا جاوبتك! ده كان كرم مني!

- الصورة!

مال برأسه تجاه الصورة التي أخرجها مساعده من جيبه وتفحصها بحاجبين مقطبين: - جميلة الصورة!

- واحد من الاتنين دول على علاقة بأفيتشي!

- كنت فاكر خيالك أبعد من كده. شهاب! واحد من الاتنين دول أفيتشي!

- عشان تحصل الهدنة لازم يتحيد!

- أو بمنتهى البساطة، إنتَ اللي تتبخر! كنت أتمنالك نهاية غير دي!

- ليه ما حاولتش تقنعهم لما قرروا يستهدفوني؟

صمت طويلًا وشرب كأسًا جديدة قائلًا:

- خليني أحكيلك قصة صغيرة، زي ما إنتَ شايف في الصور، كلنا طلعنا معاه رحلات صيد، أفيتشي كان مجنون بصيد البراري، خصوصًا في كينيا، كنا بنرشي حراس المحميات وننطلق، في مرة قرر يقتل ضباع، وانتظرنا؛ لا شيء! اقترحت عليه يقتل غزالة، يمكن يتلموا عليها. بعد ما قتلها اتلم عليها الأسود، حسينا بخيبة أمل، لحد ما قتل أسد من غضبه.

رددت عليه بنبرة هادئة:

- واتلمت الضباع.

أومأ إيجابًا وتابع:

- وما قربتش ناحية الغزالة، مع إن لحمها أطعم من الأسد الميت، كلوا الأسد الأول وبعدين بدأوا يهتموا بالغزالة، لإنهم كانوا متعودين على طعمها قبل كده، الغريب هو طعم الأسد، حتى لو مش لذيذ.

- حبيت تدوق طعم المستشار!

- مش بالطريقة الحرفية اللي جربها الدوبل، إنتَ بالنسبالي كنت رياضة جديدة.

- بتشوف نفسك ضبع؟

ابتسم طويلًا قائلًا:

- حتى الأسود عندها نفس الفضول اللي عند الضباع.

- ما خفتش أنشر اللي سرقته من الغرفة؟ لو حصل، المحكمة هتبلَّعك رصاصة زي اللي خدها الهندي!

مال بجسده ناحيتي مشيرًا إلى الجهاز المثبت في عنقه:

- أنا بلعت حاجات أصعب من دي بكتير!

بلعت ريقي بدوري متجاهلًا كلماته:

- كلمني عن السبب اللي خلى أفيتشي يسيطر على العائلات، وعن الشبح اللي عايزه يمسك بلد عربي!

طقطق أصابعه وأمسك بالرصاص الملقى على الطاولة وبدأ تجميعه، أردف مازحًا: - هاكلمك عن السما وجمالها.

لكنه قبل أن يلقِّم المسدس رمقني بتلك النظرة الطويلة، نظرة لاعب شطرنج محترف قد أُلقي إليه بطعم، ملكة تائهة على رقعة الشطرنج، ترجو عسكريًّا ضعيفًا أن يُجهز عليها، لقد شعر سرجاني بالأمر، ومع أنني هنا من دون مساعدة حقيقية، إلا أنه لن يضرني أن أحاول أن ألعب على ذلك الوتر، حتى لو كنت أعلم أنه احتمال ميؤوس منه. عاجلته: - لو هاطلع السما هنطلع

كلنا!

ضحك سرجاني على مرحلتين، وأشار إلى كروت الكوتشينة الملقاة على الطاولة ساخرًا: - هتقتلنا أوفردوز شهوة؟!

- سرجاني! إنتَ معاك الأستاذ والآنسة، بس أنا كمان مش لوحدي.

حاول النحيف التهجم عليَّ مجددًا، لكن المغربي منعه تلك المرة. لماذا يكره الناس الحقيقة تلك الأيام؟

بدأ النحيف في الحشرجة، والبصق بجانب جثة الهندي، كان الأمر مقززًا للغاية. أردف سرجاني: - إنتَ عايزني آخد الكلام ده وريد ولا عضل؟

ساعتها حركت يدي فأمسك بالمسدس بعفوية، فتوقفت، وأشرت إلى ياقتي، ثم تابعت بهدوء، وأمسكت بميكروفون في حجم الزر وألقيت به على الطاولة: - كله متسجل، ورجالتي على العهد! أنا باعرض عليك كل ما أملك، اتنين مليون دولار كاش، موجودين هنا في دبي، غير الداتا! فكر في اللي هيحصل لو الداتا وصلت لشرطة الإمارات والإنتربول! مش هتخشوها تاني! لو توصلني بأفيتشي، كل ده هيبقى ملكك!

- عايز تقابله ليه؟!

- يمكن أقدر أقنعه بالهدنة!

رمق الميكروفون، وعاد ببصره إلى صديقيه، فجفت الدماء في عروقهما. داعب رقبته قائلًا: - أنا هاضطر أعذبك!

- سيبني أقابله، وهو هيقرر، خد الفلوس من راجل ميت! وبلغ رئيسك، مش يمكن يطلب يقابلني؟! مش يمكن يعذبك هو لو الداتا طلعت؟!

قلبها في رأسه وأمسك بزجاجة سكوتش، صب منها وشرب، مسح عن فمه بكُمه وتابع: - عنده اجتماع! وهيسيب البلد خلال ساعتين، إنتَ اتأخرت.

- كلِّمه وهادِّيك الفلوس والداتا! مجرد مكالمة!

- عايز منه إيه؟

- أعيد الكلام تاني؟

- وافرض رفض يقابلك؟

- هادِّيك الفلوس في الحالتين.

رمق صديقيه، وفكر لبرهة، ثم قام وأمسك بالميكروفون، ألقاه أرضًا ودهسه، اقترب مني، التف من حولي، تابعت ظله في التلفزيون خوفًا من أن يذبحني، جذب شعري حتى قارب أن يقتلعه من جذوره، ورمقني بتلك

الطريقة المخيفة قائلًا من خلال جهازه: - لو طلعت زي شيفراج، هاخلي أقصى أحلامك طلقة، هاعمل فيك اللي ما قدرش الدوبل يعمله!

وأخرج الهاتف أخيرًا، وهاتفه. بعدما رد عليه شخص ما، وطلب منه بالإنجليزية أن يوصله بالرئيس، كان لا يزال خلفي حينما تابع النحيف سعاله، فرمقه سرجاني غاضبًا، وبدأ سرجاني في السعال أيضًا لكنه تماسك، اعتذر لرئيسه في الهاتف، وبدا عليه التعرق، وعلى النحيف بدوره، كنت أتابع سرجاني في انعكاس التلفزيون، وأعود ببصري إلى النحيف الذي ظهر عليه الإعياء، حتى بدا غير متزن، أغلق سرجاني الهاتف قائلًا بإرهاق واضح: - أخبار حلوة! هيركب طيارته، كمان شوية، هيقابلك في السما بعد...

لم يكمل سرجاني كلماته حتى سقط النحيف أرضًا مغشيًّا عليه، وظهر المغربي سارحًا في جلد يده الملتهب المكسو بالاحمرار، نزل خيط دماء من أنف سرجاني، سعل مجددًا، ثم نظر إلى الدماء التي ملأت يده، لم يلتف برأسه تجاهي حتى تباطأ كل شيء، كأننا داخل محيط ما، وأنا لست بداخله.

دفعت الطاولة الكبيرة بكلتا قدمَي، لأرتد بالكرسي المعدني في جسد سرجاني، الذي فوجئ بالكرسي يعصف بأمعائه ويكسر ضلوعه بعدما اصطدم بالحائط، سقط بعدها أرضًا، فيما حاربتُ لأسبق المغربي إلى المسدس ذي الطلقة الواحدة وطار جسدي فوق الطاولة بعدما غافلت سرجاني، بدأ المسدس في التحرك تجاه المغربي، بدا الطريق طويلًا، لكنني فردت يدَي المكبلتين أمامي و...

طلقة واحدة في رأسه الحليق. بعدها شعرت بشيء يقترب مني، فألقيت بجسدي على الأرض، بجانب جثة الهندي المتآكلة، بالفعل اخترق سكين الطاولة.

اعتدلت، أمسكت بكرسي، جرحت الأكبال معصمي وأدمته، سدد سرجاني بضع طعنات وهو ممسك بضلوعه، لقد تمكن منه الإعياء، تلقَّى الكرسي طعنتين وأصابتني الثالثة في كتفي، تركت الكرسي وأمسكت بيده، كسرت معصمه بعد أن لففته عكس الاتجاه، تركت السكين في كتفي ولففت لأخنقه، كان أطول مني اللعين، ركبت فوق جسده مُطبقًا على رقبته بكل قوتي، حاول المقاومة لكن قواه خارت، حاول الضغط على السكين فصرخت، لكنه انهار أخيرًا وسقطنا أرضًا.

تابعت خنقه، كان يتنفس قليلًا من تلك الفتحة التي في حنجرته الصناعية،

قال بلغة متقطعة فهمتها بصعوبة على الرغم من لهاثه: - إنتَ... ما تقتلش... مريض!

لاحظت قلمًا في جيبه فاستوليت عليه وطعنته به داخل فتحة الحنجرة الصناعية لاهثًا بدوري: - تُطبق الشروط والأحكام!

أحكمت يدي على رقبته، تابع الاختناق، حتى خرج السر منه.

ما إن انتهيت منه حتى أخرجت السكين من كتفي صارخًا وركلت جسده، الآن يمكنك انتظاري في السماء يا ابن العاهرة!

أمسكت بهاتفه، وطلبت رقم دييجو:

- تتبع المكالمة الأخيرة. محتاج المكان بأي تمن!

ألقيت الهاتف وكان النحيف يتلوى أمامي، خرج الزبد من فمه، تتشنج عضلاته ولحم وجهه. أمسكت بمسكن الآلام من القمامة وحصلت على بعض منه، ثم تبعته ببعض الفودكا، تلك المرة لا أحتاج إلى عقار إضافي، فتأثير القديم لا يزال يعمل. اقتربت من النحيف وجلست القرفصاء وأجهزت على عنقه.

أرحته من الانتظار، سرحت في الكروت الملقاة وتلطُّخها بالدماء، تذكرت الكيماويات التي وضعتها أمام سميروفيتش في المعمل الصغير الذي صنعته له في دبي، وصدمَته من اللوازم الزجاجية والميزان الدقيق، سم «نوفيتشوك» المعدل الذي حصلنا على تفاصيله من المعلومات المسروقة من الغرفة صفرا! يمكنه أن يقتل باللمس، بالتنفس، والابتلاع، وهو ما تطوع لفعله على الرغم من أنني تخيلت أن الأمر مستحيل.

كنت أسمع خبطات الملاعين على الباب، كيف علموا أن ثمة شيئًا حدث لسرجاني؟ هل توقعوا طلقة واحدة فقط في رأس الهندي وفزعوا بعد ذلك؟

ظللت كما أنا، لا أرد. أيقنت أنهم سيقطعونني إربًا، لا مهرب سريالي من ذلك المكان، حتى لو رسمت بابًا كارتونيًّا على الحائط!

جالت خاطرة في رأسي بعدما بحثت عن الطلقات في الأرض: «لا يهم، لديَّ أربع طلقات، سنرقص جميعًا!».

* * *

ألقيت السكين بعدما قطعت القيد عن معصمي، ولفَّمت المسدس، تحسست الجرح، كان أعمق مما شعرت، هناك خط لا يتوقف من الدماء

يؤرقني، ما إن فتحت الباب حتى وقفت خلفه، لم يدخل أحد، هم ينتظرونني لأخرج، أخرجت رأسي وعدت لتمر طلقة تحذيرية بجانبي، هناك رجل آسيوي من الطباخين يصوب مسدسًا تجاهي، وشخص آخر معه، كنت أحتاج بعض الإلهاء، فأغلقت الباب مجددًا.

صحت من الداخل بالإنجليزية:

- أنا أحد رجال أفيتشي! سيرجيو مصاب! لقد قتلنا الهندي الملعون!

صاح هو:

- أنا لا أعلم مَن أنت! قل كلمة السر إذن!

استهلكت بضع ثوانٍ وتوجهت إلى جثة النحيف، فتشت جيبه فحصلت على ولاعة وعلبة سجائر، أشعلت واحدة، وأضرمت النار في قماش الستائر بعدما رششتها بالاسكوتش الخاص بسرجاني، فكرت في رد، فخطرت في بالي كلمة السر التي استخدمتها أول مرة للدخول: - برد ألاسكا!

- لا! أتحدث عن كلمة سر الأمان! تبدأ بحرف الـ«A»!

اقتربت من جهاز حساس الحريق، وأطعمته بعض الدخان و...

إنه العيد يا أصدقائي! بدأت الأجراس في العمل، وبعدها بثانيتين بدأت الرشاشات.

ظننت أن الآسيوي لم يصدق مرأى الرشاشات فوقه فنظر عاليًا فاغرًا فاه، ثم صرخ معيدًا طلبه أن أقولها وإلا قتلني.

عاجلته بكلمة سر ساخرة خطرت في رأسي بينما أصوب تجاهه، وقد كان بالفعل شاردًا في السقف كما ظننته: - «Auf Wiedersehen»!

استقرت رصاصتان في كتفيه، لم أشتهِ قتله، أعلم أن الأمر مؤلم، لكن لا نية عندي في إرساله إلى السماء، لكنَّ الطلقتين جعلتاه يطيح بمسدسه بعيدًا في حركة عفوية، فسقط على سلم عن يمينه.

ألقيت بسيجارتي وتابعت، ابتل شعري، وتلطخ قميصي بدمائي والمياه، تابعت طريقي، ليظهر لي شخص ما في المطبخ صارخًا، كان يتحرك من خلفي لا يعلم بأنني أسرع منه، لا يعلم بما يمكنني فعله، كان في يده ساطور كبير الحجم، بخفة تحركت بعيدًا ثم عاجلته بطلقتين، تلك المرة في صدره، كان ذا ملامح عربية، قتلته، ليس لأني رأيت رغبة شديدة منه في تقطيعي، بل لأنه كان قريبًا للغاية!

في طريقي للخروج كان الجميع يركضون، إلا فتى أسمر البشرة، يبدو لي أنه أحد الحراس جاء من الخارج، وفي يده مسدس، يمشي عكس اتجاه الجميع، شعرت أن شيئًا ما ليس على ما يرام، لا أعلم لماذا، كان عقلي يخبئ شيئًا. شرع في توجيه سلاحه إليَّ فكانت يدي أسرع، لكن المسدس كان فارغًا، قلت لنفسي: «حسنًا فلأذهب إلى الجحيم!».

لقد نسيت أنها أربع طلقات، ولم أحصل على مسدس الآسيوي. أستحق تلك الموتة، و... ابتسم الأفريقي.

أخطأتني الطلقة الأولى، سمعت صوت صرخات أنثوية خائفة، أعلم أن الثانية سوف تصيبني، تجمدت في مكاني، وتركت ليدي حرية السقوط. وبدأ التصويب وهو يقترب مني مجددًا.

واخترقت الرصاصة اللحم، لحمه هو. رصاصتان في ظهره، وظهر من خلفه سميروفيتش، يصوب مسدسه في جميع الاتجاهات، في ذعر واضح. الوغد! لقد عصى أمري، وأنقذني!

ابتسمت وتابعت المشي تجاه الأفريقي، لأسمع صوت ثلاث طلقات متتالية، نظرت لأرى ضحية سميروفيتش الجديدة، لكن لا أحد، الطلقات جاءت من الهندي، فتى البار، حصلت على مسدس الأفريقي وعاجلته بطلقتين فهوى.

وتنفست الصعداء، ونظرت إلى سميروفيتش، وحركت رأسي إيجابًا، لكنَّ شيئًا ما بدأ يظهر في قميصه، لون أحمر ينتشر. ترنح، ونظر إليَّ، ثم سقط، فركضت ناحيته.

حاولت مساعدته ليعتدل، بدأت بفحص الأضرار؛ طلقتان، إحداهما اخترقت صدره، والأخرى في معدته. نظرت إلى السماء وخاطبت الله للمرة الأولى في حياتي: «أرجوك لا! لاااا!».

كان لا يستطيع التنفس بسهولة، ويتحرك رأسه حركات متتالية، سألته صارخًا: - ما التزمتش بالأوامر ليه؟! امسك نفسك أرجوك! الـ... الإسعاف هيوصل في دقايق!

قال بصعوبة:

- حاولت أرتجل! شهاب!

- ما تتكلمش!

بدأت في طلب رقم الإسعاف، المياه والدماء تسيلان من فوق أزرار هاتفي.

تابع هو: - أنا آسف!

- أقسم بالله لو عملتها! أقسم بالله لو فكرت أصلًا في الموضوع!

ابتسم، وبدا عليه الإعياء، تنفس بصعوبة. صوت أزيز مخيف يخرج كلما حصل على شهيق.

ثم قالها بتأثر على الرغم من ابتسامته، والدماء تخرج من فمه:

- بص... لي... بصة... صح! وقولي... أنفع مستشار!

تركت الهاتف على الرغم من رد الإسعاف، لقد كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، وبدأت عيناه في الغروب.

حشرجت الكلمات في حلقي.

رددت:

- تنفع!

ثم تابعت:

- بس مش قيمتك!

حرك رأسه إيجابًا وابتسم، وبدأ في الاختناق، ثم زاغت عيناه، وخرج من فِيه صوت خوار لن أنساه. أنا أكثر شخص ملعون.

تركت مسدسي وأغلقت عينيه، أردت الانتحار. أعلم أن شيئًا ما ينتظرني عند باب الملهى، خرجت ماسكًا كتفي المصابة، أتوكأ على نفسي، لأجد الأفريقي الآخر يركض تجاهي وبيده سلاح أبيض، لا بأس، تعالَ وأشبِعني طعنًا، لن أمنعك، أنا أستحق ذلك.

لكن سيارة بورش توقفت بيننا مُصدرةً صريرًا مريعًا، وفُتح الباب، وظهرت فتاة ذات شعر مائل إلى الاخضرار، مصوبة سلاحها تجاه الأفريقي، فدلفتُ بداخلها.

تحركت بسرعة تُحسد عليها، كنت أفكر في سميروفيتش، وفي العذاب الذي أستحقه، وفي فيردو، التي أنقذتُها مرة، فأنقذتني ألف مرة.

رمقت العرافة الأفريقية، وإذ هي اختفت، ومعها منديل به عرقي.

فتاة أحلامك قالت هيت لك، وأنت للتو قتلت صاحبك، واستبدلت شفرة ما بمحاشمك.

١٠
تذكَّر ٣٦

القاهرة

أسبوعان قبل السفر إلى دبي

كنت أحدثها بينما أشاهد رجال الشرطة وهم يطوقون البناية، التي فُجرت فيها شقة دييجو.

- الأمر كذلك إذن، تستيقظ في قطار، ثمة شعور مخيف بداخلك، هناك أشخاص يرحبون بك، بضعة مشاهد مختلفة تُعرَض من خلال النوافذ، تختلف المشاهد على حسب العربة نفسها، وأنت تستيقظ في عربة ما بطريقة المصادفة، تمامًا مثل عجلة روليت القمار، هناك عربات فارهة، وأخرى بها فقر مدقع وجريمة، يغير بعض ممن يقطنون العربات بعضهم على بعض، بسبب قلة الموارد، أو بسبب الملل، أو لأسباب دينية، أنت مطالَب أن تنتمي إلى عربة منها، أو أن تفكر في الرحيل، فتفعل كل شيء من أجل أن تترك عربة وترحل إلى أخرى. البعض يؤمنون أن ذلك القطار لم يصممه أحد، على الرغم من أنه يتحرك بكل عبقرية، فوق قضبان صُممت بدقة بالغة مانعة للاهتزاز، على الرغم من سرعة القطار الجبارة، وأن أحدًا لم يضعنا في القطار أصلًا، بل إن مصادفة متناهية الصغر هي مَن صممت كل شيء، هؤلاء أيضًا، يغيرون على الآخرين، ويطعنون بلا رحمة، لأننا جميعًا في النهاية - في نظرهم - وسخ كيميائي.

- دائمًا ما يتعرض المؤمن بالغيب للسخرية، سيدي المجرم!

- يسخرون، وتتعالى ضحكاتهم حتى يثملوا من خمر التنمر، لكن لا يعلمون، أنهم - أيضًا - يتبعون عقيدة ما، تؤمن بالغيب، لكن الأمر معقد، فالغيب في عقيدتهم، أنه لا غيب.

- أنا لا أفهم الجملة الأخيرة.

- هل سمعتِ عن «أنتوني فلو»، هو مَن تحدث عن عقيدة غير المؤمنين؟

- الفيلسوف الملحد؟ هل تختبر معلوماتي مجددًا؟

- أختبر ذاكرتك! تعانين ذكرياتٍ زائفة.

- سابقًا العائلات، والآن الذكريات الزائفة مرة أخرى!

- أنتوني لم يكن ملحدًا في الجزء الأخير من حياته، بل اعترف بوجود إله، ونشر كتابًا يعتذر فيه لأتباعه. لقد تُلوعِب بهذا الجزء في عقلك، عن طريق تكنيك معقد من الإعلام.

- أنا أعلم أنه لم يمت ملحدًا.

- ومع ذلك ذكرتِه بوصفه ملحدًا.

- هل تهاتفني لتحاسبني سيدي المجرم؟!

- لا! أهاتفك لأشرح لك عبقرية الأمر. هناك باحثون في قسم علم النفس بجامعة «هاجن» الألمانية نجحوا بالفعل في زراعة ذكريات زائفة في عقل نحو ستة وعشرين من أصل اثنين وخمسين شخصًا، باستخدام جلسات خاصة وبمساعدة الأهل، ومن دون استخدام أجهزة، على عكس الفريق الياباني الذي نجح في المهمة نفسها سابقًا باستخدام تكنولوجيا معقدة، هل ترين الصورة كاملة؟!

- أرى صورة مخيفة!

- المخيف ما حدث بعد ذلك! ربع المتقدمين للتجربة تقريبًا - بعد الإفصاح لهم عما حدث - رفضوا الاعتراف بأن الذكريات زائفة، وكانوا مؤمنين تمام الإيمان بأنها حدثت بالفعل، وهم نفس عدد المتقدمين الذين صدقوا تلك الذكريات في الجلسة الأولى، وبعد مرور عام من التجربة، ما زال بعض المشاركين غير قادرين على تمييز الذكريات الصحيحة من تلك الخاطئة! قولي لي: هل تفضلين ذكريات زائفة مريحة؟ أم حقيقية تطعن كالسكين؟

- لماذا تهتم بما أُفضل؟

- لأن إجابة السؤال أكثر تعقيدًا مما تتخيلين!

تغيرت معالم وجهها وزاد صوتها حدة وهي تسأل:

- ما الإجابة؟! ما الإجابة لكل شيء؟!

- إنها شبكة!

- لربما استطعت مقاومتها.

- لا! ستُستخدمين غصبًا عنك! هناك خطوط عريضة لا يجب أن يتخطاها المستهلك بأي حال.

- وماذا لو تمرد الشخص على الخطوط العريضة؟

- لا أحد يجرؤ، فأنتِ - على سبيل المثال - يجب أن تكرهي «تنظيم الدولة»، لأنه يريد التوسع، وتجميع المسلمين المتشددين تحت راية واحدة بأي ثمن، وبأي كمية من الدماء، لذلك يجب مهاجمته بكل السبل الممكنة، لحماية الأبرياء. هذا شيء جيد! لكن، لا يمكنك أن تفعلي الأمر نفسه مع اليهود الذين اعتنقوا الفكر المتشدد نفسه، وأنشأوا كيانًا استيطانيًّا بالكيفية نفسها، بل ستُتهمين بمعاداة السامية حتى إن كنت تحبين اليهود وتكرهين الصهاينة منهم، يمكنك أن تتشككي في وجود الإله وتهاجمي التصميم الذكي للكون، لكن لا يمكنك أن تهاجمي نظرية التطور.

- أنا أؤمن بنظرية التطور! هل ستهاجمني الآن؟

- نوع من الغباء مهاجمة شخص لأنه يرتدي لونًا لا يعجبني، لكن يمكنني أن أقول لك ما لا يعجبني في ذلك اللون.

- معذرة! الجميع يؤمن بتلك النظرية تقريبًا.

- هم! مغالطة «التوسل بالأكثرية»!

- أنا أعني ما أقول، معظم العلماء كذلك!

- معظم العلماء الذين لم يُفصلوا من جامعاتهم بسبب إيمانهم، أو استُبعدوا فورًا من ترشيحات نوبل، يمكنكِ أن تفتحي الإنترنت وتقرئي قصص العلماء، وما حدث لهم حينما ذكروا أو أشاروا فقط إلى التصميم الذكي في أبحاثهم، مكتشف نظرية الانفجار العظيم مُنع من نوبل في البداية لميوله الكاثوليكية، خشية أن تُستخدم في التبشير، بالمناسبة، النظرية نفسها ذُكرت بالتفصيل في القرآن أيضًا، فكرة الإله أو المصمم الأعلى هي بمنزلة «معاداة للسامية» في الوسط العلمي.

- وماذا عن الأحفوريات؟ هل يمكنك تجاهل شيء بتلك الأهمية؟

صمتٌ لبرهة، قلبت فيها في بضع صور قديمة في التلفزيون حتى استقرت صورة باللونين الأبيض والأسود لجمجمة يميزها فكها الكبير، وبجانبها عالم أصلع مبتسم، تابعت: - متحجرة تشارلز داوسون عام ١٩١٢، كانت تُعرض في المتاحف طوال أربعين عامًا على أنها أكبر اكتشاف تطوري في العالم، لكن في الأربعينيات، وبعد إعادة فحص الجمجمة، تبين أنها زائفة، فك قرد وجمجمة إنسان، وأحفورة «إنسان نبراسكا»، التي بُنيت على سن خنزير، وغيرها. النازيون كانوا يجوبون الشوارع في القرن السابق عن طريق علماء زائفين، يهشمون جماجم هشة، يقولون للمارة إنها جمجمة يهودي، سهلة الكسر، ويقرعون أخرى فلا تتهشم، بالطبع هي جمجمة الألماني الآري النقي. فداء! نحن نحو سبعة ملايين نوع على وجه الأرض، من الطبيعي أن نرى التطور الصغروي كل يوم؛ طائر يتزاوج مع طائر من نوع آخر ينتج لنا طائرًا من نوع ثالث، لكنه لا يزال طائرًا، لكن لمَ لم يتطور نوع واحد من الملايين السبعة إلى نوع آخر؟ لمَ لا نستيقظ لنجد سمكة خرجت من الماء أو حصانًا نمت له أجنحة؟ سبعة ملايين نوع يا فداء على مدى مليارات السنين، لمَ لم يفز أيٌّ منا باليانصيب؟ هناك شيء غير صحيح!

- إلى ماذا تلمح؟ هل نحن مجرد دمى في نظرك؟ وأنت العالِم بكل شيء!

- نعم نحن دمى، لقد تُلوعِب بذكرياتنا، ومثلما فعلوا في المواطن الألماني تحت مسمى «برواجاندا»، فقد أورث الطفل الألماني البريء تلك الأفكار لأولاده، من دون أن يشعر، فُعل الشيء نفسه في المنطقة العربية، ففي الحقبة الزمنية نفسها، ترك المستعمر الأوروبي كل البلدان العربية، بعدما أيقن أنه من المكلف ممارسة دور المحتل، وقوَّى الجيوش العربية التي احتل بلدانها بنفسه! ثم روَّج لها في إعلام تلك الدول قبيل رحيله، وحدثت المعجزة بعد الرحيل مباشرةً!

- انقلابات عسكرية!

- بالفعل! العراق ١٩٣٦ حتى انقلاب أحمد حسن البكر وصدام حسين، سورية ١٩٤٩ وما بعده، مصر ١٩٥٢، السودان ١٩٥٨، اليمن ١٩٦٢، الجزائر ١٩٦٥، ليبيا ١٩٦٩، الصومال ١٩٦٩، موريتانيا ١٩٧٨، وحتى خارج حدود العرب، تركيا ١٩٦٠، وإيران سنة ١٩٥٣. أكاد أقسم لك، إن كل مستمع سيسمع عن تلك الانقلابات سيقسم إنها عيد في بلده، وإنه لا يعلم أنه انقلاب من الأساس، إلا قليلًا.

- لماذا تقتنع أن كل شيء مدبَّر؟ ماذا لو كانت نتيجة لاستبداد ملكي مثلًا؟!

- ولماذا لا أقتنع! مَن صمم تلك الانقلابات هو مَن اعترف بتدبير كل شيء!

- ماذا تقصد؟!

- لقد اعترفت الولايات المتحدة بتدبير معظم تلك الانقلابات بمساعدة المملكة المتحدة، حتى الضباط الستة عشر الذين غيروا مسار تاريخ تركيا، اعترف الـ«CIA» بمسؤوليته عن تدريبهم. هل تعرفين تلك الأغنية: «روكساااان يو دونت هاف تو وير ذات دريس تونايت!». أعتذر عن صوتي السيئ!

- فريق «ذا بوليس»! ماذا بها؟!

- هل تعرفين عازف الدرامز؟

- مجددًا تختبر معلوماتي؟!

- من دون اختبار، ستيوارت كوبلاند، ابن عازف موهوب، مايلز كوبلاند.

قلبت الصور في التلفزيون أمامي حتى ظهرت صورة بالأبيض والأسود، لفرقة تعزف في قصر به حمَّام سباحة، يظهر فيه أشخاص من خلفية أرستقراطية في القاهرة، بينهم رجل سمين، يدخن سيجارًا مرتديًا شورتًا رُفع إلى أعلى سرة بطنه.

تابعتُ:

- مايلز كان من العازفين المميزين في البلاط الملكي المصري في الخمسينيات، وقام بأكثر من جولة في الشرق الأوسط وإيران، إبان وفاته، اعترف لابنه ستيوارت، عازف فرقة «ذا بوليس»، بدوره في تجنيد ضباط في بلاد كانت بها حكومات ديمقراطية، مثل مصر وإيران وغيرهما، لعمل انقلابات عسكرية من أجل «MI6» بمساعدة عناصر من الـ«CIA»، عملية تُدعى «فات فاكرز!».

- معذرة! لا يجب أن تقول مثل هذه الألفاظ على الهواء!

- أنا لم أخترع هذا المسمى، الأمريكان والإنجليز هم مَن فعلوا، وكان ذلك بمعاونة حفيد روزفلت رئيس أمريكا، الذي اصطدم بالملك فاروق لرفضه الكف عن مقاومة المد الصهيوني، فكلف حفيده - عميل المخابرات الأمريكية - بالتنسيق مع الجواسيس السابق ذكرهم. يمكنك البحث عن تفاصيل العملية فقد كشفت المخابرات الأمريكية عن تفاصيلها.

- لمَ قد يفعلون ذلك؟

- ولمَ لا يخلقون جيلًا جديدًا في المنطقة؟ جيلًا من الرؤساء المنتمين إلى أمريكا والمملكة المتحدة. اقرئي كتاب كوبلاند «أبي الجاسوس»، ستسمعين صوته وهو يشعر بالعار من فعلة والده، في بلاد كان حلمًا لكثير من الأوروبيين في تلك الفترة أن يقطنوها.

- غير منطقي! معظم الأنظمة التي تلت تلك الانقلابات كانت معادية لأمريكا والمملكة؟!

- لا يهم ما يقال في التلفزيون أمام الجماهير، يهمني ما يقال في الغرف المغلقة!

- هنري كيسنجر!

- بالضبط، هو مَن قالها - ومع ذلك - هذا أمر من المرجح حدوثه، أعني أن تعين المخابرات شخصًا يتمرد عليها مع الوقت هو شيء ممكن منطقيًّا، خصوصًا حينما تهدد طفلة أمريكا الدموية حدوده ويشعر بالقلق، مثلما حدث في مصر وسورية، أو حتى لتضارب المصالح.

- إذن نحن في نظرك، مجموعة من الحمقى الذين تُلوعِب بهم، وأنت الوحيد الذي وصلت إلى تلك النتيجة!

- لست الوحيد، أنا... لست... الوحيد! فقط لديَّ وقت لأقرأ وأحلل المعلومات.

- ومن أين أتيت به؟! ذلك الوقت، أقصد.

صمتُّ طويلًا ثم أغلقت التلفزيون وقلت:

- الرجل الذي يكتشف أنه على حافة الموت، سيبدأ في التفكير في القطار الذي يتحرك به، والعربة، والقضبان، وكل شيء!

العودة إلى الحاضر

الأمر الآن...

أنا مصاب في سيارة تقودها فيردو. لقد فقدت سميروفيتش، وفشلت في أن أستسلم للموت، لكنني أعلم أن الخطوة التالية هي الأخيرة، ذلك الأمر يعزيني، مهما تباطأ الوقت أمامي، لن أنجو من شباك أفيتشي، لكنني أقسمت أن لا أتركه يعيش للحظة جديدة.

كنت أشاهد المباني المتطاولة في البنيان بينما أنتظر رد دييجو عليَّ، حاولت تضميد جراحي ببضع لاصقات طبية اشترتها لي فيردو من صيدلية. على تلفزيون في محل لبيع الأجهزة الكهربائية لاحظت لقطات حية من حادث إطلاق النار، وصورتي في الأخبار، مجددًا، حصلت على دقائق الشهرة الخمس عشرة الخاصة بي من دون أي اجتهاد مني، ووجهي الذي حاربت لأخفيه سنوات، أصبح في بضع ثوانٍ مثل أوجه مغنِّي موسيقى الراب.

رن هاتفي، قال دييجو:

- متأكد إنك عايز تقابله؟

صمتُّ للحظة ثم أجبت:

- سمير راح!

صمت طويلًا إلى درجة أنني ظننت أنه لن يكمل، وأجاب متجاهلًا كلماتي بنبرة حزينة: - اللي بتدور عليه في برج العرب، هيتحرك قريب! أكيد عارف في أي جناح هتلاقيه، سيبتلك تذكار تحت فوط الحمَّام.

وأغلق المكالمة.

* * *

داخل برج العرب استقرت السيارة، عندها فاحت من فِيها رائحة التوت البري قائلة بلهجة مصرية غير متكاملة: - إحنا مش هنخرج من هنا لو دخلنا! بس أنا هاطلع معاك.

رمقت عينيها الخضراوين طويلًا، محيط كنت أفعل أي شيء لأغرق فيه. الآن سأضحي به من أجل بضع إجابات، والثأر لسمير، هل هي تجارة عادلة؟ لا أعلم، لكنني ميت على أي حال، رددت عليها: - دييجو بعتلي رجالة، خمسة أشخاص، أنا في أمان!

ترددت وأشاحت بنظرها بعيدًا، وخبطت بيسراها مرارًا على المقود، لمست يمناها التي كانت بجانبي قائلًا: - محتاجك تثقي في كلامي!

قبضتُ على يدها وتابعت:

- ما أقدرش أخسرك إنتِ كمان!

غافلتها دمعة تلك المرة وهي تقلب عينيها في وجهي، كأنها تريد أن تطبع صورتي في ذاكرتها، ثم ضمتني بقوة، تخيلت أن لن تتركني أبدًا، عطرها، عذاب ممتع، وموت رحيم.

همست في أذني:

- جيوفانا!

حركت رأسي إيجابًا، لقد أطلعتني على اسمها للتو، قاومت اللحظة ورحلت.

كان عزائي على أي حال أنها التقفت الطُّعم، تمنيت ألا تغافلني كما فعلت سابقًا. بالطبع سيرسل إليَّ دييجو مسلحين ليساعدوني في تخطي حراسة أفيتشي، واحد من أكثر الرجال دموية ونفوذًا في العالم، ولعله سيرسل إليَّ محاربي الساموراي والأفينجرز حتى يكون الأمر منتهيًا لصالحي. سامحيني فيردو! لن أورطك في نهاية بتلك الدموية!

بداخل فندق برج العرب، كان كل شيء يصرخ بعلامات الترف والإبهار، كل شيء لامع، بدايةً من الحوائط الزرقاء الفخمة، نهايةً بالسلالم المتحركة والأثاث الباهظ الثمن، استقبلتني فتاة ذات ملامح غربية بابتسامة، حاولت مداراة رغبتي الشديدة في الوقوع مغشيًّا عليَّ، وظهرت آثار عرج في مشيتي داريته بحركتي البطيئة، لم أحرك كتفي إثر الطعنة السابقة لكنها لم تلحظ. ناولتها ورقة فئة الدولارات الخمسين، وطلبت منها أن تريني الجناح الملكي، عرفت نفسي بوصفي مستثمرًا في البورصة أُدعى «سمير»، وأبحث عن مكان مميز لعميل أجنبي.

تابعت حديثها مع زميلتها، التي ابتسمت قائلة إن الجناح الملكي قد فرغ للتو، وإنهم بحاجة إلى بضع دقائق قبيل زيارته، سألتها عن الأمير الذي قطنه

فكان ردها مريحًا بالنسبة إليَّ، طغت على لكنتها الإنجليزية صبغة الروسية على الرغم من صلابتها: - لا، ليس أميرًا عربيًّا أستاذ سمير، على ما أعتقد أنه شخصية سياسية مهمة، لكنه على وشك اللحاق بطائرته على أي حال.

ابتسمت ومازحتها:

- بالطبع شخص يدفع خمسة وعشرين ألف دولار في الليلة، لن ينتظر في صف المسافرين الممل في المطار!

ضحكت وقالت بينما تشير مودعةً نزيلًا طاعنًا في السن:

- دعني أقل لك، طائرته الخاصة تبدو وكأنها الجنة! لربما كان يجب أن نمتهن السياسة، أليس كذلك؟

رمقت اسمها من فوق القطعة المعدنية اللامعة فوق صدرها، وتابعت مراقبة اللوبي بعينَي قائلًا: - إلينا، صدقيني، من الأفضل أن تكوني في هذا الجانب من النهر.

قلتها وتوقفنا أمام المصعد، كانت مبتسمة، ولكن تلاشت الابتسامة بعدما ابتلعت جملتي الأخيرة، حاولت النظر إليَّ لكنها عادت بنظرها إلى قائمة الأدوار الخاصة به.

في الدور الـ٥٥ ترجلنا من المصعد، استأذنتها لاستخدام حمَّام الرجال، كانت هناك رائحة تشبه المسك في الداخل، وكتلة كبيرة من الفوط الساخنة الملفوفة بعناية داخل سلة خشبية أنيقة، تفحصت المكان حولي، ومددت يدي بداخلها حتى لامست كيسًا بلاستيكيًّا، أخرجت الكيس وجردت مسدسين متوسطَي الحجم، تفحصت خزنتيهما ودسستهما في ظهر بنطالي وغطيتهما بمعطفي، ما إن بدأت في غسيل يدَي ووجهي حتى لاحظت رجلًا يجري متسللًا من خلفي، بحركة غريزية صوبت مسدسًا تجاهه، هل هو الخووخ مجددًا! لكن، مهلًا! لقد توقف عن الركض تلك المرة، ولف وجهه، و... نظر إليَّ!

كان وجهه من دون ملامح نوعًا ما، لا أعلم كيف أصفه، كأنني أراه ولا أراه.

تساءلت بيني وبين نفسي: «كيف يمكن لذلك أن يحدث؟!».

قاطعني صوت ارتطام الباب، أخفيت سلاحي وعدت إلى مصدر الصوت، كان شابًّا آسيويًّا ذا ملامح غريبة، لم ألتفت إليه لكنني عدت بنظري إلى الخووخ، لا وجود له، ولم تصبني النوبة!

تابعت غسيل وجهي والنظر في المرآة، لاحظت أن الآسيوي يرتدي بزة تشبه النوع النسائي، مغلقة أزرارها، وبها لون أحمر متداخل مع الأسود، ويبرز

صدره المعدل من تحتها كأنه امرأة في فيلم عربي قديم تقوم بدور رجل، لم أحتج إلى الكثير من الوقت حتى أيقنت أنه «ليدي بوي»، كما يلقبونه هنا في دبي. فاجأني صوته الناعم بإنجليزية جيدة: - تشعر بالدوار؟

بلعت ريقي وعدلت من خصلات شعري وحاولت تنشيف وجهي المجهد، لاحظت نظراته غير السوية، كأنه يدرس جسدي تشريحيًّا، أنا وغد محظوظ، في مدينة بها أجمل نساء العالم قابلت مخنثين في اليوم نفسه: - أنا بخير!

تابعت طريقي إلى الخارج لكنه استوقفني:

- لماذا تعاملني بتلك الطريقة الجافة؟!

توقفت عن المشي، أفكر في الخووخ، وسميروفيتش، وأفيتشي الذي على وشك الطيران خلال دقائق، لا طاقة لي لمجادلته، أو مجادلتها، أيًّا كانت كينونته. تابعت طريقي إلى الخارج متجاهلًا إياه ليتابع حديثه: - ما الأمر؟! لا تحب الفليبينو؟

استدرت بوجهي مشيرًا إليه قبيل خروجي:

- أيًّا كان الذي تحاول عرضه، أنا غير مهتم به!

- هل أنت متأكد أنك غير عنصري؟

- ولا تحاول أن تصبغ الأمر بالعنصرية! لقد أحببت امرأة فلبينية من قبل، وكانت جميلة!

ابتسم مازحًا:

- أجمل مني؟ كل ما أريده هو التحدث فقط!

قاومت رغبة شديدة في زرع طلقة في رأسه الصغير، وتابعت:

- فقدت شهيتي في الكلام!

خرجت من الحمَّام، عندما عدت وجدت إلينا تحدِّث بضعة رجال وتشير إليهم لاتجاه معين، كان أحدهم طويلًا أبيض البشرة، في أواخر العشرينيات، له شعر أشقر وعينان زرقاوان صغيرتان، ونظارة نظر دقيقة بيضاوية، وهناك رجلان ذوا بشرتين بيضاوين مائلتين إلى الاحمرار، قويان يظهر جسداهما ممشوقين وبأذنَي كلٍّ منهما سماعتان سلكيتان تتدليان للخلف، لم أحتج كثيرًا من الوقت حتى أعلم أنهما حارساه الخاصان، تداريت خلف جدار حتى لا يرياني، لعلهما يعملان مع أفيتشي، انتظرت حتى رحلا وسألت إلينا: - هؤلاء الرجال، هل هم مَن كانوا في الجناح الملكي؟

اتسعت عيناها وسألت:

- كيف علمت؟!

عاجلتها وأنا أخرج ورقة فئة الدولارات المائة:

- مجرد تخمين!

رفضت أن تأخذها لكنني أصررت، خرج المخنث الآسيوي، ولاحظت أنها حيَّته بـ«آنسة آبل» وأشارت إليه باتجاه الآخرين، انتظرت حتى مشى بضع خطوات وعاجلتها: - هو معهم؟

صححت لي:

- هي!

- لا يهم، هل هذا الإنسان معهم؟

- نعم مستر سمير، ولا أعلم لماذا تسألني عن كل ذلك؟!

مشيت محاولًا اتباعه صائحًا:

- ليس لديَّ وقت للشرح، لكنْ ثمة شيء سيحدث الآن، أريدك أن تنزلي حالًا وتقولي لمديرك إنني دخلت حمَّام الرجال ثم اختفيت!

- ماذا يحدث هنا؟

تابعت مبتعدًا أتحسس سلاحي:

- لا تقلقي أنا مبعوث من المحكمة، ولن أتسبب لكِ بأي مشكلات! فقط افعلي كما طلبت منك!

ما إن تابعتُ الرحيل حتى لوحَت لي ببعض البراءة:

- الجناح فارغ بالمناسبة!

وأردفَت بعدها بتعجب:

- أي محـ... كمة؟!

تابعت الآسيوي حتى اختفت إلينا من ورائي، ثم أخرجت سلاحًا من الاثنين، وجهته أرضًا، حاولت لفت انتباهه قائلًا: - لقد غيرت رأيي!

توقف عن مشيته الأنثوية، ولف تجاهي بوجهه المرسوم بعناية بمساحيق التجميل، رأيت نظرة في عينيه أخافتني، كأنه كان يتوقعني!

تابع صمته لثانية، ثم أشار تجاه باب زجاجي، يظهر من ورائه مهبط الطائرات، هناك الثلاثة الذين رأيتهم للتو، وطائرة هليكوبتر حديثة الطراز، تلف مروحتها بتراخٍ، يبدو أن بها شخصًا غير الطيار، شخصًا يشبه الرجل الذي رأيته في الصور. اللعنة، لقد كانوا يتوقعون مجيئي، رتبوا كل شيء، وأنا كفأر المتاهة، ركضت بين جنباتها حتى أصل إلى قطعة الجبن.

ترددت للحظة وأخرجت سلاحي الآخر، وأشرت إليه أن يدخل أولًا، صوبت سلاحًا نحو رأسه وآخر نحو الحارسين، اللذين صوبا بدورهما بحركة غريزية، بدا أن الآسيوي غير مهتم.

حاول الحارسان الوقوف أمام الشخص ذي العينين الزرقاوين لحمايته، وأنا أحتمي بالآسيوي غير المكترث، صرخت بإنجليزية واضحة: - أحتاج أن أتحدث مع رئيسكم!

نظر الطويل ذو الملامح الغريبة والعينين الزرقاوين في ساعته صارخًا بدوره: - لقد انتظرك الرئيس كثيرًا! لديه ميعاد في بلد آخر! لكنه يشعر بالصدمة لما فعلته في النادي، لقد صدمه رحيل سيرجيو بتلك الطريقة البشعة!

تابعت صارخًا ويدي ملتصقة برأس الآسيوي المتحول:

- هل تعرف مَن أنا؟

ابتسم محاولًا تنظيف نظارته، ليظهر وجهه كاملًا أمامي، كانت به بضعة ملامح آسيوية أيضًا.

- أعلم عنك: شهاب، المستشار الأخير! «رجل الملائكة»! كما لقبه دانيال.

- أحتاج إجابات! لا أريد أن أفجر رأس تلك الفتاة، ولا أريد أن أقتل حارسَيك! حتى الطيار ورئيسك، أستطيع أن أصيبهما في اللحظة نفسها.

- وكيف ستفعل ذلك؟ هناك رجلان، جندي مارينز مع آخر من الفاجنر، يصوبان سلاحيهما نحو رأسك، هل ترى كيف يمكن للمال أن يجمع ما تفشل فيه السياسة؟!

- لا تجرب الأمر! إن كنت تعرف اسمي، فأنت تعلم ما يمكنني أن أفعله.

- نعم، أنا أذكى من أن أضعك في تجربة، لكنني أريد أن أجرب شيئًا أخيرًا قبل الرحيل.

أشار تجاه الباب الزجاجي لأرى شيئًا لم أكن أحلم أن أراه؛ فيردو ترتدي شنطة ظهر، وتدفع كرسيًّا متحركًا، به الدكتور أبيض، وخلفها حارس جديد يصوب سلاحه نحو رأسها.

فيردو! أيتها الحمقاء! لقد وعدتِني!

صرخت بدوري للتغلب على صوت مروحة الطائرة التي بدأت في الدوران: - دكتور أبيض! ما علاقتك بكل ذلك؟!

ما إن اقتربا من مسافة عشرين مترًا حتى توقفا، كان الدكتور أبيض في أفضل حال، يرتدي بدلة سوداء رائعة، وبابيون مميزًا، كأنه كان في حفلة ما للتو، تابع هو بإنجليزية: - بني! اترك السلاح، لقد أقنعت أفيتشي مجددًا، سيمنحك فرصة جديدة، أنا السبب في كل شيء! سامحني!

تابعت تصويب سلاحي بين الحارسين وذي العينين الزرقاوين بالتوالي، تساءلت: - ما علاقتك بهذا الرجل وبالمحكمة؟! تكلم!

صمت لبرهة وقال:

- أنا أمتلكها... تقريبًا!

تابعت تصويب سلاحي بينهم، لكن الكلمة استقرت في عقلي كالرصاصة، صوبت سلاحي تجاهه تلك المرة، إنه أنت إذن! صرخت: - لماذا لم تقتلني إذن؟! كنت أتردد عليك! تكلم، الآن!

تابعت:

- لماذا قررت قتلي على أي حال؟! ولا تخبرني بذلك الهراء عن كلامي في الراديو!

- شهاب! حاولت فعل العكس، حاولت أمنعهم من قتلك، أنت جزء من نجاحي يا بني! لقد شعرت بالأسى تجاهك! ولم أتمنَّ لك تلك النهاية!

- اذهب أنت وأساك إلى الجحيم، أيها الداعر! سوف أقتلكم جميعًا في لحظة!

- لن تستطيع يا شهاب، أرجوك، لا تقُم بعمل أحمق، لقد عانيت كثيرًا لأصل إلى الاتفاق مجددًا.

- أنت أكثر مَن يعلم أنني أستطيع، تذكَّر التجربة يا دكتور، تذكَّر الـ٣٦٪ زيادة في الوقت عندما شعر المتدرب بالخوف، وتذكَّر الورم الذي جعل استقبال جسدي للخوف يضاعف الـ٣٦ اللعينة، كلكم موتى هنا، فقط أنا أقرر متى!

- شهاب! ماذا لو كانت التجربة مزورة!

شردت للحظة، وصوبت نحو رأسه سلاحي مجددًا غاضبًا:

- توقف عن الكذب أيها العجوز! لن تستطيع تلك المرة أن تُملي على مسامعي الهراء!

- صدقني! لقد زورت نتيجة التجربة، انظر إليَّ من فضلك! الحقيقة أن إحساس المتدرب كان كاذبًا في التجربة على الرغم من صحتها! شهاب أقسم لك إنك لو قرأت التجربة كاملة ستكتشف ذلك!

تُحاضِر الناس عن فئران المتاهة لتصحو في متاهة أكبر، وترى نفسك مجرد جرذ سمين يتخيل نفسه بشرًا، ذئب كارتوني ظل يجري في السماء وراء فريسته بكل ثقة، بيد أنه نظر تحته بغتة. تابعت صراخي محدثًا الدكتور أبيض: - أنت كاذب! ماذا عن العينين اللتين رأتا ٣٩ صورة من الـ٤٠! هل هذا كذب أيضًا؟ قل لي!

صمت طويلًا وقال بعينين تقطران أسى:

- المتطوع عدَّ الصور نفسها التي يراها أي إنسان! لم يرَ ٣٩ صورة.

- أنت لا تعلم ما تقول! لقد أنقذني الأمر ألف مرة! هل تظن أنه يمكنك خداعي أيها العجوز مجددًا؟ أنا وأنت سنقابل الملاك الأسود بعد قليل! لا يهم ما كذبت عليَّ بشأنه!

- شهاب سامِحني! لا يمكنني خداعك مرتين، لقد كانت تجربتك حجر الأساس لمرحلتي المقبلة.

لم أصدق ما رأيت بعد ذلك، بدأ الدكتور أبيض في النهوض بمعاناة من فوق

الكرسي، متحديًا مرضه، فرد ذراعيه بعدما خطا خطوتين قائلًا: - أنا وأنت لن نقابل أحدًا اليوم!

صفق ذو العينين الزرقاوين مبتسمًا بعدها متهكمًا، بلعت ريقي وصوبت تجاه الحراس قائلًا: - ماذا تحاول أن تقول؟!

- أنا أقول الحقيقة، صدقني! ولو لمرة واحدة! أنت غير مريض، لقد كان نوعًا من «الهيبوكوندريا»، لقد توهمت المرض! الأغرب أن جسدك طور مراحل مشابهة لمرحلة الاحتضار، «الميتاستيزس». لا أعلم كيف أشرح لك، لكنك معجزة حية! لا أعلم يا بني إلى متى ستعيش، لا أعلم شيئًا عما يحدث في جسدك، لكن الإجابة كانت أنت دائمًا، بداخلك!

ترددت أقلب سلاحي بين الحراس معللًا:

- لا يمكن للوهم أن يفعل ذلك في جسدي!

- الوهم قد يكون أكثر تأثيرًا من الحقيقة! وأنا فعلت ذلك لأني أشفقت على نفسي. شهاب! أنت لن تستطيع أن تدير بلدًا بحجم لبنان بالعمل الجاد فقط! عشرات الطوائف والمذاهب وجماعات النفوذ السياسي! الإفلاس المادي والمعنوي يحوم حولها كل يوم! فشل في كل شيء، وشبح الحرب الأهلية يقترب من جديد! لقد اختاروني لأصعب تجربة.

- أنت الشبح! أنت الذي تحدث عنه دانيال!

- أنا شبح سيسكن أصعب جسد، احتجت تلك التجربة لعلي أستطيع النجاح في السيطرة عليهم!

- لقد كنت فأر تجاربك اللعين!

- لا! لقد كنت ملهمي!

- ما يمنعني أن أقتلك الآن؟!

حرك رأسه نفيًا قائلًا:

- لا شيء، لا بأس بني إن فعلتها!

حاول الآسيوي المخنث الذي أحتجزه المقاومة، صوبت سلاحي نحو رأسه فهدأ من روعه. تدخل بعدها ذو العينين الزرقاوين قائلًا: - مثير للقشعريرة! لكنْ هناك حل أفضل من موتك أنت والإيطالية والطبيب. شهاب! نحن نحتاجكم في المحكمة مجددًا! وتلك المرة لن يهرب الفأر من المتاهة، لأنه لن تكون ثمة متاهة!

- عرضك مرفوض! هل تعتقد أن رئيسك وذلك الحقير بمكنهما الفرار بعد كل ما فعلا؟! أنتم ومن وراءكم ستدفعون الثمن، لو تركت الفتاة لتنجو سأتنازل عما سرقته من غرفتكم اللعينة، لو لم تفعل لن تنزل طائرتك فوق هذا المدرج مجددًا، ولا أي مدرج. سترى وجوهكم اللعينة في كل النشرات! حتى بعد أن أقتلكم، سيعلم العالم كل شيء!

نفخ ذو العينين الزرقاوين في نظارته وارتداها قائلًا:

- وماذا لو كنا نحن العالم؟

صمت لثانيتين وتابع:

- تظن نفسك بطلًا ما حل شفرة الحياة؟! وتظن أننا نستمتع هنا بلعب دور الإله؟! لا! نحن نستمتع فقط لأننا نلعب بكارت فائز! لو كانت الدول - فرضًا - شركات، نحن نعيِّن رؤساء لتلك الشركات! نحول الشركات الخاسرة إلى أخرى ناجحة! وندمر أخرى. نمنع حروبًا حتمية! نصنع الأموال من اللاشيء! ونصنع الضحكات على شفاه الأمهات اللائي أنقذنا أولادهن من الأكفان.

ربت على كتف أحد الحراس الذي بدا أمريكيًّا قائلًا:

- الولايات المتحدة مثلًا، كانت تفكر في الحرب من أجل ألاسكا، بعدما اكتشفت بعثة علمية - نحن من موَّلها - وجود بترول وكنوز بها! نحن من عيَّن المدير هناك - في الاتحاد السوفيتي - ليقنع ألكسندر الثاني أنها عبء، وأنها سهلة الاحتلال، وأنه يجب بيعها. نحن مَن جعلناه يرجو الأمريكان أن يشتروها من الاتحاد! الاتحاد السوفيتي نفسه الذي قسمناه بعد ذلك من دون طلقة نار من جانبنا! من دون صاروخ نووي واحد! وبالمثل في يوغوسلافيا. لقد فعلنا كثيرًا لنمنع الحرب العالمية الثالثة! وجود كثير من الثيران القوية سيؤدي حتمًا إلى كثير من النطحات! أليس كذلك؟!

ثم أشار إليَّ بعدما طبق نظارته ووضعها في جيبه مستطردًا:

- إسرائيل حاربت من أجل ممر مائي لعين يخنق حدودها البحرية، خسرته لصالح مصر، نحن مَن حررنا ذلك الممر من دون موت جندي واحد من الطرفين! حررناه منذ بضع سنين، لماذا؟ لأننا موجودون، «وانج جينجوي»! هل تسمع عنه؟ حينما أرادت اليابان احتلال الصين، وهو شيء مستحيل بسبب التعداد، نحن مَن جعلنا الأمر متاحًا، لقد جندنا جينجوي! رئيس الحكومة الصينية، أكرر: «رئيس الحكومة»، وستعود اليابان إلى مجدها مجددًا، نحن أحفاد الوحدة ٧٣١. سنعود مجددًا بعد أن قلموا أظافرنا، انظر إليَّ يا شهاب! انظر إليَّ في عينّي!

قلتها بذهول وأنا أحدق إلى وجهه اللعين:

- أنت هو: أفيتشي!

- نعم أنا، والرجل الذي كنت تطارده في الصور كان مساعدي! كنا نسوقه باسمي، لأسباب أمنية. ماذا توقعت أن تقابل؟ رجلًا طاعنًا في السن؟! أنا ياباني! من بلد الحضارة، لا أرتدي جلبابًا مثل بِن لادن، لكنني أؤمن بشيء مشترك بيني وبينه، العالم لن يستوعب كثيرًا من الحمقى، حمقى مثلك ومثل مَن تحدثت عنهم! ممن يكتبون قصص التشويق عن «الإيلومياتي» والجماعات السرية الماسونية، أشخاص مخيفون ذوو أقنعة يقيمون طقوسًا دموية مخيفة! نحن نضحك على ذلك! نضحك جيدًا، الأمر مبسط أكثر مما تتخيل.

- العائلات!

- بالطبع، مجرد عائلات، لديها كود للمبادئ، الفارق بين حياة كينيدي وموته، الفارق بين نجاح الربيع العربي وفشله، الفارق بين احتلال الكويت وتحريرها.

ثم عبس بوجهه وضم إصبعيه الوسطى والإبهام قائلًا بنبرة غاضبة: - الفرق أبسط من تلك الطقطقة، الفرق كلمة! نقولها نحن، مَن، ومتى!

- الكلمة التي قلتها، لم تنهِ وجودي!

- أنت - ها - أنت لا شيء! نحن صنعناك من مدرس للغة الألمانية يعاني اضطرابات نفسية وبضع إغماءات! موتك كان بأمري لأنك تتحدث كثيرًا! هذا كل شيء، لن أنتظر حتى تصبح أيقونة عند الشباب أيها الأحمق الثرثار!

- موتي لن يمحو الأمر، كل ما قلته حقيقي! وخُزن في عقل المستمعين!

أخرج من جيبه غليونًا رفيعًا، أشعله وتنفس منه مرتين، ثم نظر إليَّ مبتسمًا: - أنت أيضًا خُزن في عقلك الكثير، واعتقدت أن أحدًا لن يعبث به! نحن - أيها المغفل - نحن مَن نزرع الأفكار ونخلط الذكريات الزائفة مع الحقيقية! نحن مَن نشعل الحرب ونمنع ألف حرب، هل تعتقد أننا بتلك السذاجة؟

- عندما يرى العالم ما حصلتُ عليه من الغرفة، لن تستطيعوا إقناعه بشيء!

ربت على كتف الحارس الذي بجانبه ضاحكًا:

- مضحك، هذا الرجل مضحك!

ثم عاد إليَّ قائلًا:

- حينما كان بِن لادن يلهو في جبال «تورا بورا» أقنعنا المواطن الأمريكي أن يرسل ابنه ليموت في العراق! محونا العراق من فوق الخريطة لأنها تهدد أمن جيرانها! مَن يستطيع أن يستبدل كلمة «العراق» بـ«أفغانستان» أيها القط الصغير؟! نحن! هل تعتقد أنه سيعوقنا أمر المستمعين أو الناس الذين سيقرأون المحتوى المسروق؟! سندفع، وسنغير كل ما أمليتَ عليهم! سأغير كل شيء!

ألقى الغليون أرضًا وهشمه بحذائه وظهرت عليه ملامح الغضب:

- موتك كان مهمًّا، لأنني أحب أن أمنع كرة الثلج من بدايتها!

صوبت سلاحي استعدادًا لنزال قريب قائلًا:

- وفشلتَ! فشلتَ كثيرًا.

نظر إليَّ بكثير من التحدي قائلًا:

- ليس تلك المرة!

صاح الدكتور أبيض مرتعشًا ملوحًا بذراعيه في حركة دفاعية:

- أيها الرئيس! من فضلك! لقد وعدتني!

رمقه أفيتشي بحنق شديد وقال كلمته الأخيرة وهو يرتدي نظارته مجددًا: - لقد رفض العرض، وتخطى «الثريشولد»!

في تلك اللحظة تحرك كل شيء بالبطيء، توارى أفيتشي خلف الحارسين، شعرت بزناديهما يُعتصران من قِبل سبابتيهما، وعضلات وجهيهما تتشنج، رأيت - لسبب ما - فيردو تستعد لفعل شيء في حارسها، تصاعدت ضربات قلبي! ودفعت المخنث ليبتعد عن مرمى النيران لكنه سقط أرضًا بعدما أصابته طلقة! لقد اعتبروه خسائر بشرية في جزء من الثانية!

أطلقت رصاصتي الأولى تجاه الحارس الأيمن متراجعًا إلى الوراء، حاولت ألا أكون هدفًا ثابتًا، أطلقت من سلاحَي بطريقة متناوبة، استقرت طلقتان في صدره، لكنه لم يسقط! اللعنة! لم أفكر في أنه يرتدي واقيًا للرصاص!

شاهدت فيردو تركل الحارس في ساقه بكل قوتها فتكسرها ويسقط، تركض في اتجاهي، شنطتها تهبط وتعلو على ظهرها. نسمات الهواء تحرك شعري ومعطفي، منظر البحر والسماء يأسر قلبي على الرغم من كل شيء، تابعت إطلاق النار، سقط الحارس الأيسر.

حينما أفكر في الأمر، أعني ما حدث منذ شتاء ١٩٨١ حتى اللحظة الحالية؛ تتملكني تلك الرعشة الباردة، تجري في ظهري كهرباء مخيفة، تتسارع ضربات قلبي بجنون.

وشيء ما يدفعني إلى الخلف، مرتين.

وطلقتان، اخترقتا أعلى صدري وجانب كُليتي بالترتيب، ومر مثلاهما بجانبي.

وصلت إلى حافة المهبط، شعرت بتيار الهواء يدفعني إلى الخلف، وحاولت الاتزان.

حصلت على خطوة أخرى إلى الوراء.

و... خطوة أخرى إلى الوراء.

تسللت تيارات الهواء الباردة مثل السارق الذكي، تجمدت قدماي اللتان لم تجدا شيئًا لتستندا إليه، وفيردو تركض تجاهي بأقصى سرعة. تعلم أنها لن تصل إليَّ قبل أن أسقط، لكنها تركض!

لقد تخطيت «الثريشولد».

وسقطتُ من فوق مهبط الطائرات، أسبح في الهواء.

تصفعني تيارات الهواء، وتصفعني الحقائق الجديدة، لم أكن أسرع من قدري، ومع ذلك كنت الأسرع بينها.

أغمضت عينَي واستسلمت للسقوط، أرى حياتي تمر أمام عينَي في الثواني الأخيرة.

أرى فيردو حينما ابتسمت لي أول مرة.

أرى ليلى، بشعرها الأشقر نصف المجعد، تعطيني قطعة شوكولاتة وأنا في الخامسة من عمري، في غرفة كبيرة بها الكثير من الأطفال، كلٌّ منهم فوق سريره.

غافلتها دمعة تنزل على خدها على الرغم من ابتسامتها، وزوجها يجذبها من يدها لتمشي رغمًا عنها.

أراني أركض من حديقة كُتب عليها لافتة تقول: «دار أيتام»، أركض حتى أصل إلى البحر.

رجل يطاردني بسكين فوق لسان خشبي.

تظهر أمامي صورة سميروفيتش في السيارة، والشامي في الكازينو.

أراني أمام بيت بجانب اللسان الخشبي، أسأل عن سيدة سمراء اللون، فيجيبني البواب أنه لا يعلم، فأصعد على السلم، وأتردد في طرق الباب، وأمشي بعيدًا.

«فداء! قولي لي: هل تفضلين ذكريات زائفة مريحة، أم حقيقية تطعن كالسكين؟».

أستمع إلى كلماتي معها داخل عقلي: «وبعد مرور عام من التجربة، ما زال بعض المشاركين غير قادرين على تمييز الذكريات الصحيحة من تلك

الخاطئة!».

وعنوان الجريدة:

«مريض نفسي يقتل زوجته. حاولَت تبنِّي طفل فظن أنه ابن غير شرعي لها».

أرى وجه فيردو وهي تنقذني من الحريق.

أرى وجه فداء وهي تتحسس وجهي.

أرى الرجل الذي يسقط في إعلان المرسيدس.

أرى الرجل الذي يسقط في تجربة الوقت والخوف.

أرى الذئب الكارتوني الذي يركض من فوق الجبل ليطارد فريسته، من دون أن ينظر تحته.

أرى كل شيء...

لقد علمت كل شيء، والآن أنتظر الارتطام. يحتضنني الملاك الأسود، يعد اللحظات حتى يقبض روحي.

و...

آخر شيء أذكره هو صوتها.

يقول لي بإيطالية أجهل معناها:

-«Svegliati! Sei- ancora vivo»

إهداء

إلى السيدة الجميلة التي كانت تمرر لي الجرائد والقصص خلسة، أثناء المذاكرة في صغري، أمي.

إلى إيفا سفيدتش لمجهودها الكبير في تطوير العمل.

إلى الراحلة - أمي الثانية - ليلى عبد العزيز نجم، أفتقدكِ كثيرًا.

إلى الناقد السينمائي عبد الرحمن غانم، وإلى مصطفى سليمان المؤلف والناقد الأدبي.

وإلى عمر أحمد حسين، ابتسامة كل صباح، بعد ليل مؤلم طويل.